عبد الله بن عباس

حبر الأمة وترجمان القرآن

تأليف

الدكتور محمد أحمد أبو النصر

دار الجيل

بيروت

عبد الله بن عباس

حبر الأمة وترجمان القرآن

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



تصدير

الكتابة في أدب الراشدين، وأصحاب مدرسة رسول الإسلام ﷺ مورد عذب.. تزاحم عليه القصاد من رواة الأخبار وكتاب السير، ورواد البيان يوم أن أضحى اللسان العربي لغة دين وأدب، ثم لغة حضارة وعلم، عسى أن يكون في تتبع طريقتهم عون على محاكاة أساليبهم في الرقة والجزالة.

والبيان العربي الإسلامي لا يحيا إلا بالاستقاء من منابع عيونه الرقراقة وبحوره الهادرة. ذلك أن أصحاب تلك المدرسة النبوية، كانوا من الإسلام اشبه بالأركان التي تقوم عليها البنية، ويشد عليها أركانها بما كان لهم من سابقة في هذا الدين، وجهاد في سبيله، وقول لصاحب الرسالة، ورسوخ قدم في تفهم أحكام الشريعة وتنفيذها بحيث يرى الرائي المنهج المتكامل الواضح لروح الإسلام شريعة وعقيدة.

كما يختبر المختبر منهم مغارس النبوة، وبواكير ثمارها فيما أخذهم النبي المعلم به، وفيما انشأهم عليه من الهدي السماوي، والأدب النبوي الكريم، فكانوا الوجه المضيء الذي تتمثل على قسماته معالم هذا الوصف الفريد الذي كرم الله به هذه الأمة في قوله سبحانه: ﴿كنتم خَيْرَ أُمَّة أُخرِجَت للنّاس﴾[1].

إن تاريخ الرواد من العلماء ليس مجرد حياة أو موت، وأحداث وقعت فيما

---

(١) سورة آل عمران، آية ١١٠.

بين الحياة والموت، فضمَّتها صحف التاريخ، وجمعتها كتب التراث الأدبي وختم عليها الزمن بخاتمه، وإنما تاريخ حياتهم ميراث فياض تنهل الإنسانية منه وتغوص في أعماقه تستخرج منه تلك اللآلئ والعديد من العظات والعبر، وتقطف من أزاهيره ما تطول يدها وتبلغ همتها ليكون ذلك هاديا لها في مسيرتها يهديها سواء السبيل.

ومن أجل ذلك كانت حياة الذاهبين من العظماء.. في معرض النظر والدرس وفي مجال القدوة والريادة لكل إنسان ولكل جماعة أو أمة تصوغ لبناتها على صورة رائعة تتمكن بها من تشييد مجدها وإعلاء شأنها ولتحتل تلك المكانة المرموقة في مقدمة الأمم صانعة التاريخ.

وبنو هاشم: أصل النبي وعشيرته.. في مكان الصدارة من قمة العظمة الإنسانية في مختلف العصور وفي أرفع منازلها وأسمى مراتبها على تعاقب الأجيال.. إذ كانت عظمتهم موحدة بأسباب العظمة النبوية سالكة مسالكها في مدارج الكمال الروحي والاطمئنان القلبي الذي تسكن به نزعات الهوى وترتاح إليه النفس رضا وقبولا.

وابن عباس، مثل رفيع وقمة شامخة في سلوكه وأدبه وشخصيته وعلمه، ولا غرو فقد شب عن الطوق في ربوع بني هاشم وتفتحت عيناه وقد رحم الله الإنسانية وانتشلها من شقائها بإرسال محمد ﷺ نبعا فياضا للمكارم والفضائل، ونموذجا فريدا للخلق العظيم وحلو الشمائل.

يقول الإمام علي ـ كرم الله وجهه عن ابن عباس: ويح ابن أم الفضل. إنه لغواص على الهبات. وكان عطاء إذا حدث عنه يقول: حدثني البحر، ثم يذكر ما قاله ابن عباس من مثل قوله: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسعك جهله، وكفاك من علم الأدب ان تروي الشاهد والمثل. ثم يستشهد عطاء على ما نقله عن ابن عباس بما تمثل به ابن عباس نفسه من قول الشاعر:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

ومن مثل قوله: منهومان لا يشبعان، طالب علمٍ، وطالب دنيا[1].

وقوله: ذَلَلْتُ طالبًا، فعززت مطلوبًا.

وكيف لا يتسنم ذرى المجد، وهو ابن عم النبي الكريم وقد دعا له بأن يعلمه الله تعالى الكتاب والحكمة وتأويل القرآن وأن يفقهه في الدين، وأن يزيده فهما وعلما، ويبارك فيه وينشر منه ويجعله من عباده الصالحين!!

وإنني إذ أخذت بحظي من النظر في تراثنا الإسلامي لم أعثر على باحثين اقتربوا من هذا الطود الشامخ ليقدموه علمًا من أعلام الإسلام ولينهلوا من غدير حبر هذه الأمة محاولين تقديم ميراثه لشباب الإسلام.

ولست أدري حتى الآن سببا وجيها يجعل مفكرينا وأدباءنا يحجمون عن الكتابة عنه وعن علمه الواسع وما خلفه في شتى المعارف الإنسانية من أدب ورسائل، وفقه وتفسير مما يكوّن منهجًا متكاملاً مؤسّسًا على النهج الإسلامي الذي أراده الله ورسوله للناس أجمعين. الأمر الذي جعلني أتردد في خوض غمار هذا المورد النمير.

ولكن الله ـ جلت قدرته ـ أنار لي الطريق، وأعانني وهداني سواء السبيل فعرفت أن هذا المورد العذب ـ وان لم يتزاحم عليه الواردون ـ يفيض عن عينٍ ثرةٍ لا تفيض؛ بيد أني لا أدخل نفسي فيمن عناهم أبو العلاء المعري بقوله:

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وإن كان ذلك لا يعني أن الكتابة كانت سهلة عنه أو أن مراجع البحث كانت دانية القطاف.

وإذ قدر الله لي أن اخوض تلك المعركة النبيلة واكتب هذه الرسالة عن

---

(١) نسب هذا القول مع اختلاف يسير في محاضرات الأدباء ج ٢٨/١ ـ للرسول الكريم.

شخصية عبدالله بن عباس [أديبًا] أرجو أن أكون بها قد اضفت إلى التراث ما يكتبه الله لي في سجل حسناتي ـ بعد ان ازدادت صورته في نفسي وضوحا وملكت عليّ مشاعري وأخذت بمجامع قلبي ووددت أن أكون صورة ـ ولو مصغرة ـ مستمدة من هذا الإنسان المسلم الواعي.

لقد أعجبت بابن عباس غلامًا حدثا تهوى نفسه الإسلام، وهو بعد لم يبلغ العاشرة من عمره.

وأعجبت به يافعًا يلازم رسول الرحمة، ويسمع منه ويعيش حياته الخاصة، ليتخذ منه القدوة الصالحة والأسوة الحسنة.

وأعجبت به شابا يسعى إلى أبواب أهل المعرفة ليأخذ عنهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ متحملا في سبيل ذلك وقدة الحر، وزمهرير البرد من غير ملل ولا ضجر.

واعجبت به كهلا يتصدر المجالس يقدم للمتحلقين حوله من طلاب العلم ورواد المعرفة مما تعلمه من رسول الله ﷺ ومن صحابته الكرام.

وأعجبت به خطيبًا تتناثر الدرر من فيه حتى إذا أخذ في الكلام استولى على القلوب وأتى بالمقصود في أجمل بيان وأوجز عبارة.

واعجبت به فارسًا في ميدان القتال يسهم بسيفه في فتوحات الشمال الأفريقي وفي مواقع الجمل وصفين والنهروان.

وأعجبت به سياسيا بارعا يعرف كيف يلجم خصمه بالحجة، وكيف لا وقد استطاع بقدرته على الحوار واختياره للفظ الدقيق المعبر عن المعنى المقصود أن يغلق على رءوس الخوارج منافذ القول ويلزمهم الحجة حتى أذعنوا او سلموا ورجع معظمهم تحت راية الإمام علي ـ كرم الله وجهه.

وخلاصة القول، أنّى ما توجهت إلى البحث عن فضيلة إلا ووجدتها عنده واضحة جلية إذ أنه مجموعة من الفضائل والشمائل التي يسعد المؤمن بالتحلي بها

اكتسبها ابن عباس من تلك البيئة الإسلامية الأولى ومن هذه الصحبة الكريمة للنبي الخاتم، ﷺ، فهو الصحابي الجليل الذي ملك المجد من أطرافه فما فاته منه شيء:

مجد الصحبة للرسول الخاتم، ولو تأخر ميلاده قليلا لما شرف بها.
ومجد القرابة، فهو ابن عم النبي ﷺ.
ومجد العلم، فهو حبر أمة محمد، وبحر علمها الزاهر.
ومجد التقى، فقد كان صوامًا قوامًا مستغفرًا بالأسحار، بكاءً من خشية الله حتى خدَّدَ الدمع خديه.

إنه عبدالله بن عباس ربّاني أمة محمد وأعلمها بكتابه، وأفقهها بتأويله وأقدرها على النفوذ إلى أغواره، وإدراك مراميه وأسراره.

ولذا ـ كنت سعيدًا أن أكتب هذه الرسالة عن ذلك الضوء الشاهق والقمة الشامخة.

الباب الأول

- حَيَاة ابن عَبّاس
- ثَقَافَاتُه

الفصل الأول

حياة ابن عباس بالتفصيل

نسبه ومولده:

نسبه: هو عبدالله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب.

يلتقي نسبه ونسب رسول الله ﷺ في جدهما عبد المطلب، ويسترسل النسب في صحة تامة إلى عدنان[1].

مولده: ولد ـ رضي الله عنه ـ قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث بالشّعب[2]، والرّوّاد الأول من الطليعة وأصحاب مدرسة معلم الإنسانية ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ محصورون فيه، وأي حصار هذا!!؟.

فقد غشي الكون ليل ثقيل، ولف أمّ القرى صمت مكدود، ولم يعد يُسمع فيها إلا أنفاس الليل مختلطة بهمهمة صلوات وثنية، كانت لا تزال تتسلل من البيت العتيق.

والقمر قد توارى واحتجب، ولم يعد هناك على الأفق المعتم سوى ضوء

---

(١) ترجمته في الاستيعاب ص٩٣٣ ـ وأسد الغابة ج٣ ص١٩٢ ـ والإصابة ج٢ ص٣٣ وتهذيب الأسماء للنووي ج ١ ص ٢٧٤ ـ وتهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٧٦.

(٢) الحلية، ج ١ ص ٣٢٤ ـ أسد الغابة ج٣ ص١٩٢ ـ جمهرة أنساب العرب ج ١ ص ٣ . جامع الأصول ج ١٠ باب فضائل الصحابة ـ صفة الصفوة ٧٤٦/١ [الطبعة الحلبية].

شاحب تكاد تحجبه عن مكة جبالُها الصخرية التي تبدو وكأنها كتل صماء من ظلمات متراكمة عبر الدهور.

ونامت الدنيا، لا تلقى بالاً إلى رجل من بني هاشم، هو ابن امرأة من قريش تأكل القديد.

والمصطفى في داخل شعب أبي طالب قائم يتهجد بين يدي ربه حتى انبلج نور الفجر متهاويا من أفق المشرق ينشر سناه على بطاح مكة وكأنه صوت الرجاء يرف في أذن هؤلاء القساة الذين ألجأوا النبي ﷺ وعشيرته إلى ذلك الشعب في حصار رهيب ومقاطعة مهلكة أكلوا بسببها ورق الشجر.

وفي هذا الجو المشحون بالقلق والاضطراب، والمشركون يصبون ألوان العذاب صبًّا على المسلمين، وهم لم يفيقوا بعد من صدمة إسلام حمزة ـ سيد الشهداء ـ وإسلام الفاروق عمر!

وقد اهتزت ـ بل وترنحت زعامتهم بعد إسلام البطلين الكبيرين وأوشكت تلك الزعامات من قريش أن تفقد سيطرتها على الموقف.

والإسلام يشق طريقه منتشرا بين القبائل يمزق أستار تلك الجهالة الرابضة على القلوب مضيئا ليلها على الرغم من كل ما يلقى المسلمون من اذىً وعنت وبلاء، والمفاوضات مع أبي طالب تنتهي بالفشل!! فهم يريدونه أن يسلم ابن أخيه لهم أو يخلّي بينهم وبينه وتلك سبة في جبينه يأباها عربي كريم مثله. والنجاشي، يفتح بلاده لهؤلاء المهاجرين من المسلمين الأولين، بل ويؤمن كل من يلجأ إليه منهم، ويأبى أن يمسهم أذى في جواره.

وطار من قريش عقلها، فبدأت تتأهب لجولة حاسمة علها تستطيع أن تئد الدعوة في مهدها أو على الأقل توقف ذلك الزحف الإسلامي الهائل إلى أن تستعد له في موقعة حاسمة تجهز فيها عليه.

وأحس أبو طالب بما تبيته قريش من السوء ولمح نذر الشر تتراءى من

قريب، فجمع عشيرته الأقربين ودعاهم إلى منع محمد والقيام دونه، فأجابوه لم يتخلف واحد إلا أخوه أبو لهب، عبد العزى بن عبد المطلب.

وإزاء هذا الموقف تتراجع قريش عن خوض معركة مسلحة مع آل عبد المطلب وبني هاشم - وهم من صميم قريش - وينتهي بهم الأمر إلى فرض ذلك الحصار الرهيب في اجتماع ضم رءوس الحقد منهم وقيادات السوء فيهم من أمثال أبي جهل وأبي لهب وغيرهما. ذلك الاجتماع الذي انتهى بإصدار تلك الوثيقة التي بمقتضاها تفرض المقاطعة على بني هاشم والمطلب فلا يصهرون إليهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم وأكدوا ذلك بتسجيله في صحيفة علقوها في جوف الكعبة توثيقا لحرمتها وتأكيدًا للالتزام بها.

وأقاموا على ذلك زمنا، ينفذون ما تآمروا عليه من تلك المقاطعة المشئومة ومضت سنتان أو ثلاث لقي فيها المحاصرون من المسلمين والهاشميين ما لا يحمل من البلاء والعنت.

فقد حيل بينهم وبين الطعام أو الكساء يشترونه من التجار الوافدين على أسواق مكة، وقد يأتي أحد المنحازين إلى الشعب إلى سوق مكة يلتمس قوتًا يشتريه لعياله، فيقوم أبو لهب ويصيح بالتجار:

«غالُوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئًا، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي».

فيزيد التجار ثمن السلعة اضعافًا مضاعفة، ويرجع أصحاب المصطفى ومن معه من آله إلى أطفالهم بالشّعب[1] وليس في ايديهم طعام.

وبلغ منهم الجوع مبلغًا يصوره لنا قول سعيد بن أبي وقاص - بعد محنة الحصار:

«لقد جعت حتى أني وطئت ذات ليلةعلى شيء رطب فوضعته في فمي

---

(١) شعب أبي طالب مكان خارج مكة - أنظر السيرة الحلبية ج ١ص ٤٤٩.

وبلعته وما أدري ما هو حتى الآن».

وكانت التمرة الواحدة ربما وقعت لاثنين منهم يقتسمانها، فيكون أحسنهما حظًّا مَنْ وقعت النواة في قَسْمِهِ يلوكها بقية يومه!.

وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة الباهرة، وينشر نوره على القمم والسفوح والبطاح والقيعان، فيضيء الظلمة الداجية.

ومع نور الفجر الوليد كانت ـ لبابة الكبرى ـ تتهادى داخل الشعب، ونداء رسول الإسلام يطن في اذنيها... يا أم الفضل: إنك حامل بغلام، فإذا ولدت فأتني به، فلما ولدته أتته به، فأذن في اذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى وسماه عبدالله[1] ـ ثم ألبأه ـ واللباء: أول ما يحلب من اللبن عند الولادة... وألبأه: صبه في حلقه... رواه أبو نعيم.

ويروى أن الرسول الكريم وهو في داخل الشعب، التقى بعمه العباس، فقال له عمه: ما أرى أم الفضل إلا قد اشتملت على حمل، فقال عليه الصلاة والسلام: «لعل الله يقر أعيننا بغلام». فكان ذلك الغلام: عبدالله[2].

وهو واحد من عشرة بنين وثلاث بنات، هم: الفضل، وعبدالله، وقثم، وعبد الرحمن، ومعبد، والحارث، وكثير، وعون، وتمام.

وأما البنات فهن: ام حبيب بنت العباس بن عبد المطلب، وقيل أم حبيبة والأول أكثر لها[3].

روى يونس بن بكر عن ابن إسحق قال: حدثني الحسين بن عبدالله بن العباس عن عكرمة، عن عبدالله بن العباس قال: نظر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أم حبيب بنت العباس تدب بين يديه فقال: لئن بلغت هذه وانا حيٌّ

---

(١) أسد الغابة ج ٧ ص ٣١٣ والأنوار المحمدية للنبهاني ص ٥٧٦.

(٢) الحلبية ج ١ ص ٣٢٤ ـ وأسد الغابة ج ٣ ص ١٩٢.

(٣) أسد الغابة ج ٧ ص ٣١٣.

لأتزوجنّها. فقبض قبل أن تبلغ فتزوجها الأسود بن سفيان بن [عبد الأسد هلال[1] بن] عبدالله المخزومي فولدت له رزق[2] بن الأسود ولبابة بنت الأسود، سمتها باسم أمها أم الفضل لبابة بنت الحارث[3].

وأم الفضل بنت العباس بن عبد المطلب.. أخرجها أبو موسى وقال: كذا، فرّق جعفر بين هذه وبين أم الفضل زوجة العباس، وقد أخرجها البخاري فيمن روى عن النبي ﷺ من نساء بني هاشم[4].

وأم كلثوم بنت العباس بن عبد المطلب، أدركت النبي ﷺ وأمها أم سلمة بنت قحميّة بن جزء الزبيدي[5].

روى الدراوزدي عن أم كلثوم بنت العباس قالت: قال رسـول الله ﷺ: «إذا اقشعـر جلـد العبـد مـن خشيـة الله تعالى، تحاتّت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة البالية ورقها».

تزوج الحسن بن علي أم كلثوم هذه فولدت له محمدًا وجعفرًا ثم فارقها فتزوجها أبو موسى الأشعري فولدت له موسى ومات عنها فتزوجها عمران ابن طلحة، ففارقها فرجعت إلى دار أبي موسى، فماتت فدفنت بظاهر الكوفة[6].

---

(١) ما بين القوسين لا بد من إثباته - انظر كتاب نسب قريش ١٧٤ - ١٧٥ والاصابة ٤٢٢/٤.

(٢) كذا - وقال في كتاب نسب قريش ص٢٧ وفي طبقات ابن سعد ج٨ ص٣٣. فولدت له زرقاء ولبابة. وقال الحافظ في الإصابة ج ٤ ص ٤٢٢ - ذكرها ابن سعد في الصحابيات.

(٣) أسد الغابة ج ٧ ص ٣١٣.

(٤) أسد الغابة ج ٧ ص ٣٧٨.

(٥) كذا، والذي في كتاب نسب قريش أن أم كلثوم هي بنت الفضل بن العباس انظر ٢٨ وقد نبه الحافظ في الإصابة على هذا بعد أن ذكر ترجمة أم كلثوم بنت العباس انظر ٤٦٩/٤.

(٦) أسد الغابة ج ٧ ص ٣٨٥.

وأمه: الصحابية الجليلة لبابة بنت الحارث بن حَزْن بن بُجير بن الهُزَم بن رُوَيْبَة[1] بن عبدالله بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية.. أم الفضل وهي زوج العباس بن عبد المطلب، ولدت للعباس ستة رجال لم تلد امرأة مثلهم وهم: الفضل، وبه كانت تُكنَى ويُكنَى زوجها العباس أيضا (أبو الفضل) وعبدالله الفقيه، وعبيدالله العالم، ومعبد، وقثم، وعبد الرحمن وام حبيبة سابعة[2] وهي لبابة الكبرى، وهي أخت ميمونة زوج النبي - ﷺ. ولبابة الصغرى هي أم خالد بن الوليد - وفي إسلامها وصحبتها نظر[3] والصحيح أنها قد أسلمت وعاشت إلى ما بعد وفاة ابنها خالد بن الوليد رضي الله عنه[4] وعصمة، وعزة، وهزيلة، أخوات لأب وأم، كلهم بنات الحارث بن حزن الهلالي، وأخواتهن لأمهن.. أسماء وسلمى[5] - وسلامة بنات عميس الخثعميات وأخوهن لأمهن محمية بن جزء الزبيدي، فهن ست أخوات لأب وأم وتسع أخوات لأم، أمهن كلهن هند بنت عوف الكنانية، وقيل الحميرية.

ومَنْ قال الحميرية قال: هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة بن جُرس بن حمير.. قالوا: وهي العجوز التي قيل فيها أكرم الناس أصهاراً[6]... لأن رسول الله - ﷺ - زوج ميمونة، والعباس زوج لبابة الكبرى، وجعفر بن ابي طالب وأبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب أزواج أسماء بنت عميس وحمزة بن عبد المطلب زوج سلمى بنت عمبس، وخلف عليها بعده شداد بن الهاد والوليد بن المغيرة زوج لبابة الصغرى وهي أم خالد بن الوليد، وكان المغيرة من سادات قريش.

---

(١) في المطبوعة: «دُويبة» والمثبت عن كتاب قريش المصعب ٢٧ وطبقات ابن سعد ج٨ ص ٢٠٢ وجمهرة انساب العرب لابن حزم ٢٧٤.

(٢) الاستيعاب ج٤ ص ١٩٠٨، ص ١٩٠٩.

(٣) الاستيعاب ج٤ ص ١٩٠٨.

(٤) انظر الاصابة: ١٧٨/٨.

(٥) لم يذكر ابن سعد «سلامة» ولم يتقدم لها ذكر - وقد ذكرها أبو عمر.

(٦) الاستيعاب ج٤ ص ١٩٠٨ - والاصابة ج٨ ص ٢٦٦.

فأولاد العباس وأولاد جعفر ومحمد بن أبي بكر ويحيي بن علي وخالد بن الوليد... أولاد خالة[1].

روت عن النبي - ﷺ - أحاديث - روى عنها ابناها عبدالله وتمام[2] وأنس بن مالك وعبدالله بن الحارث بن نوفل وعمير مولاها. وخرج حديثها الجماعة. رويا لها ثلاثة أحاديث، أحدها متفق عليه والثاني للبخاري، والثالث لمسلم، ماتت بعد العباس في خلافة عثمان رضي الله عنه.

أخبرنا غير واحدٍ بإسنادهم عن محمد بن عيسى، حَدّثنا هنّاء، حدثنا عَبَدة عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيدالله بن عبدالله، عن ابن عباس عن أمه أم الفضل، قالت: «خرج علينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه في مرضه، فصلى المغرب فقرأ بالمرسلات، فما صلاها بعد حتى لقي الله عز وجل»[3].

يقال: إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة، وكان النبي ﷺ، يزورها ويقيل عندها، وكانت من المنجبات، ولـدت للعباس ستة رجال كما ذكرنا لم تلد امرأة مثلهم.

ولها يقول عبدالله بن يزيد الهلالي:[4]

مـا وَلَـدَت نَجيبـة مِـن فحْـلِ   كَسِتَّـةٍ مـن بطـين أُمِّ الفضـل

---

(١) الاستيعاب ج ٤ ص ١٩٠٨.

(٢) كذا في المطبوعة والمصورة - وتمام بن العباس ليس ابنها، وإنما أمه أم ولد انظر كتاب نسب قريش: ٢٧ ولعل الصواب: «قثم» وعلى أننا لم نجد لقثم ولا تمام رواية عنها في مسند الإمام احمد - انظر المسند ج ٦ ص ٣٣٨ - ٣٤٠.

(٣) تحفة الأحوذي، أبواب المواقيت، باب «في القراءة في المغرب» الحديث ٢٠٧ - ٢١٩.

(٤) انظر الرجز في: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٨١٢.

أكرم بها من كَهْلةٍ وكهلِ عَمّ النبيّ المصطفى ذي الفضلِ
وَخاتِم الرُّسلِ وَخَيْرِ الرُّسلِ[1]

وأم الفضل، لبابة كانت ترى في ولدها عبدالله نجابة، فكانت تقول وهي تُرَقّصُهُ:

ثَكِلْتُ نفسي وَثَكِلْتُ بكري إن لم يَسُدْ فِهْرًا وغير فهْر
بالحب الزاكي وبذل الوَفْرِ حتى يُوارى في ضريح القبر[2]

وكانت تردد دائما دعاء الرسول الكريم له بعد أن حنكه: (اللهم بارك فيه واكثر منه وعلمه الحكمة) وأيضا (اللهم فَقِّهْهُ في الدين وعلمه التأويل)[3] وقالوا: لا يعرف بنو أم تباعدت قبورهم كبنيها.

فالفضل، وكان أكبر أولادها، وكان جميلا، أردفه رسول الله - ﷺ - في حجته، ومات بالشام في طاعون - عمواس - بالشام. وعبدالله، وهو الحبر مات بالطائف من الحجاز.

وقُثم وكان يشبّه بالنبي الكريم - خرج إلى خراسان مجاهدا فمات بسمرقند زمن معاوية في إمارة سعيد بن عثمان. ومعبد قتل بإفريقية شهيدًا. وعبيدالله كان جوادًا سخيا ذا مال، مات بالمدينة المنورة[4].

وعبد الرحمن بن العباس قتل بإفريقية زمن عمر رضي الله عنه وعنهم جميعا[5].

---

(١) أسد الغابة ج ٧ ص ٢٥٣ - والطبقات الكبرى ج ٤ ص ٦.

(٢) أبناء نجباء الأبناء ص ٧٩ - ٨٠، والأمالي للقالي: ٢/١١٤.

(٣) حلية الأولياء ج ١ ص ٣١٤.

(٤) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٦.

(٥) سبائك الذهب لمحمد أمين البغدادي السويدي: ٧١ وانظر في شأن تباعد قبور الاخوة النوادر لأبي علي القالي: ٣/١٩٩.

والده: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب عم رسول الله - ﷺ - ومن أقرب الناس إلى قلبه، ومن أحبهم إلى نفسه، ولذا كان يقول دائما: «العباس صنو أبي فمن آذى العباس فقد آذاني»[1].

وفي الجاهلية: كانت له عمارة المسجد والسقاية، وكما كان قريبا إلى قلب الرسول، كان الرسول ﷺ، قريبا إلى قلبه، فكان وزيره لدى الأنصار ومستشاره في بيعة العقبة.

وتتفق الروايات التاريخية على أن تاريخ مولده قبل مقدم «ابرهة الحبش» على رأس أصحاب الفيل بثلاث سنوات.

وأمه نُتَيْلَة (بضم النون وفتح المثناة فوق) بنت حباب بن كليب النمرية، وهي أول أعرابية كست الكعبة بالحرير والديباج، وسببه أن العباس ضاع وهو صغير، فنذرت إن وجدته كست الكعبة الحرير والديباج فلما وجدته وفَّت. وكان العباس أسنَّ من الرسول الكريم بسنتين أو ثلاث[2].

ولم يزل العباس معظَّمًا في الجاهلية والإسلام، كان إليه أمر السقاية في الجاهلية وكان في مكة غياثا للمستضعفين من المسلمين، وكان صاحب أدب رفيع وخلق نبيل. انظر إلى جوابه حين سئل: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟

فقال: هو أكبر مني وأنا أَسَنُّ منه[3].

واختلف في وقت إسلامه، فقال بعضهم: اسلم قبل فتح خيبر، وقيل: إن إسلامه كان قبل بدر، وكان رضي الله عنه، يكتب بأخبار المشركين إلى

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧.
والاستيعاب ج ٢ ص ٨١٣.
(٢) الاستيعاب ج ٢ ص ٨١١.
(٣) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٤٢٤.

رسول الله ﷺ فكتب إليه الرسول: إن مقامك بمكة خير[1].

وتؤكد الرواية الثانية أن إسلامه كان مبكرا، فقد روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ[2] قال:

«كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، واسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، فكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، فكان يكتم إسلامه»[3].

وكان يلازم الرسول ﷺ، في الكعبة، يقول كعب بن مالك: خرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، أنا والبراء بن معرور كنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك، فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن الرسول ﷺ، فقال: هل تعرفانه.؟ قلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه.؟ قلنا: نعم، وقد كنا نعرف العباس، وكان لا يزال يقدم علينا تاجرًا، قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه[4].

وكان للعباس - رضي الله عنه - دور لا ينكر في بيعة العقبة، وكان أول المتكلمين. قال: «يا معشر الخزرج - وكانت الأوس والخزرج تدعيان الخزرج - إنكم قد دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعز الناس في عشيرته، يمنعه - والله - من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف، وقد أبى محمدًا الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة، فإنها سترميكم عن قوس

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٨١٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ١٠.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ١٠ والبخاري ج ٥ ص ١٨١.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ص٧ والبداية والنهاية ج٨ ص٢٩٦ - سير النبلاء ج٣ ص ٢٥٥.

واحدة، فارتأوا رأيكم وائتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه[1].

وهي كلمات تدل على بصر بالأمور وحكمة في معالجة القضايا، ولم يكتف بذلك بل أراد أن يعرف حقيقة القوم وأن يعجم عودهم فقال: «صفوا لي كيف تقاتلون عدوكم؟»[2].

فقام عبدالله بن عمرو بن حرام فقال: [نحن والله أهل الحرب، غذينا بها ومرنا عليها ورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر، نرمي بالنبل حتى تفنى، ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر الرماح، ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا].

فانفرجت أسارير العباس واطمأن إلى هؤلاء الرجال الذي سيسلمهم أحب الناس إلى قلبه، وكأنه نسي شيئا فقال مستدركا: أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع؟ قالوا: نعم شاملة، فبايعهم رسول الله ﷺ والعباس آخذ بيد رسول الله ﷺ يؤكد له البيعة.

وهاجر الرسول إلى يثرب، وبقي العباس في مكة يتنسم أخبار الرسول والمهاجرين معه ويرسل لهم بأخبار قريش، حتى كانت غزوة بدر، وعرف الرسول ﷺ أن العباس وأهله أخرجتهم قريش للقتال وهم له كارهون، فقال: «إني عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ فلا يقتله فإنما أخرج مستكرها»[3].

قال ذلك الرسول ﷺ وسرت مقالته بين رجال بدر، فتقبلها الرجال المؤمنون ولم يعترض أحد ما عدا أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فإنه قال:

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥٠ تحقيق: محيي الدين عبد الحميد.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٧.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٨١٢.

« نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس »؟ والله لئن لقيته لألحمنه السيف » أو قال: « لألجمنه السيف » فبلغت مقالته رسول الله - ﷺ - فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص، أيضرب وجه عم رسول الله - ﷺ - بالسيف فقال عمر: دعني ولأضربن عنق أبي حذيفة بالسيف، فوالله لقد نافق[1]. ولكن الرسول الكريم لا يوافق عمر على أن يقتل أصحابه، ويتركهم ليتوبوا ويكفروا عن أخطائهم، ولقد ندم ابو حذيفة على ما تلفظ به وكان يكرر دائما: « والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ ولا أزال منها خائفا إلا أن يكفرها الله عزَّ وجل عني بالشهادة فاستجاب الله وحقق له أمنيته فقتل يوم اليمامة شهيدًا[2].

وهاجر العباس إلى المدينة ومعه نوفل بن الحارث وكثيرون، غير أن المصادر التاريخية تضطرب في تحديد تاريخ هذه الهجرة وإن كانت تتفق على أن الرسول ﷺ اقطع العباس وصاحبًا له موضعا بالمدينة، وكان عليه الصلاة والسلام يرعاه ويحبه ويؤثره، فقد وقع رجل في أبٍ للعباس كان في الجاهلية أكثر من مرة وكان العباس ينهاه إلا أنه لم يرتدع فلطمه العباس لطمة اجتمع على اثرها قومه فقالوا: والله لنلطمه كما لطمه، ولبسوا السلاح. فبلغ ذاك رسول الله ﷺ، فجاء فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: « أيها الناس، أي الناس تعلمون من أكرم على الله..؟ قالوا: أنت، قال: فإن العباس مني وأنا منه، لا تسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياءنا »[3].

فجاء القوم فقالوا: يا رسول الله.. نعوذ بالله من غضبك. استغفر لنا يا رسول الله[4]. ويتأكد هذا الحب من رسول الله للعباس حين يتقدم العباس إلى رسول الله ﷺ قائلا له: يا رسول الله، ألا تؤمرني على إمارة؟ والرسول

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٩.
(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١١.
(٣) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١١.
(٤) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٤.

يعلم أن العباس صاحب رأي وحنكة وله خبرة ودراية غير أنه يرفض أن يقلده ما يريد لأنه لا يريد أن يحمله أعباء الحكم ومسئولياته ويقول له في رفق: يا عباس، يا عم النبي[1] نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها » ويقنع العباس ويرضى بما رآه له رسول الله ﷺ.

وحين يتقدم العباس إلى النبي ﷺ طالبا منه أن يستعمله على الصدقة، بعد أن أشار عليه بذلك الإمام علي كرم الله وجهه بقوله للعباس: إن لم تكن ولاية فسله أن يستعملك على الصدقة » نجد الرسول ﷺ يقول له: يا عم ما كنت لاستعملك على غسالة ذنوب الناس »[2].

إن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو أعلم الناس به لم يستعمله على ولاية، ولم يستعمله على الصدقات، ولا أمل له في أعمال الدنيا، فليبحث عما ينفعه في الآخرة، ويتجه مرة ثالثة إلى الرسول ﷺ قائلا: « أنا عمك، كبرت سني واقترب أجلي فعلمني شيئا ينفعني الله به » فقال له الرسول ﷺ « انت عمي، ولا أغني عنك من أمر الله شيئا، ولكن سل ربك العفو والعافية »[3].

ويؤدي الرسول رسالة ربه، ويكمل على يديه دينه، ويبلغ الكتاب أجله، ويكون العباس أشد الناس حزنا على فراق المصطفى ﷺ وإن وجد من الرعاية والتكريم في عهد صاحبه أبي بكر ومن بعده عمر رضي الله عنهما.

فهذا هو الفاروق عمر يمر على دار العباس وهو في طريقه إلى المسجد وكان للدار ميزاب، صب فيه ماء فأصاب عمر صدفة في إحدى مرات مروره فأمر عمر بقلعه ثم رجع فطرح ثيابه ولبس غيرها وجاء فصلى بالناس، فأتاه العباس وقال له: « والله إنه للموضع الذي وضعه رسول الله - ﷺ -

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧.
(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٧.
(٣) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٢٤.

فيه». فقال عمر للعباس: فأنا أعزم عليك لمّا اصعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ ففعل ذلك العباس[1].

لا يغضب العباس، ولكن يذكر عمر بأن الذي وضع الميزاب رسول الله ﷺ وترتعد فرائص عمر الشجاع - كيف يأمر بنزع ما وضعه المصطفى، ويكفر عن فعلته تلك بأن ينصب ظهره ليرتفع عليه العباس ليثبت ما ثبته الرسول. ثم ماذا يا حاكم المسلمين.. يطبع قبلة حب ورجاء على جبين العباس وولده عبدالله الذي شهد ما حدث وهو مبهور لذلك الحب المكين الذي يربط بين ابن عم رسول الله - ﷺ - وأصحاب مدرسته الأولى الذين يدينون له بالحب والإعزاز والوفاء.

ويضيق المسجد النبوي بالمسلمين ويفكر عمر بن الخطاب في توسيع المسجد فاشترى ما حول المسجد من الدور، وبقيت دار العباس بن عبد المطلب، أيمكن أن يتبرع بها لبيت المال؟.. أيقبل ان تشترى منه ويقبض الثمن؟.. ويتقدم إليه عمر قائلا: يا أبا الفضل، إن مسجد المسلمين، قد ضاق بهم وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين في مسجدهم إلا دارك، وحجر أمهات المؤمنين، فأما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسع بها في مسجدهم[2]. فقال العباس: ما كنت لأفعل. فقال له عمر: اختر مني إحدى ثلاث؛ إما أن تبيعها بما شئت من بيت مال المسلمين، وإما أن اخططك حيث شئت من المدينة وابنيها لك من بيت مال المسلمين، وإما ان تصدق بها على المسلمين فنوسع بها في مسجدهم، فقال العباس: لا ولا واحدة منها.

فقال عمر: اجعل بيني وبينك من شئت. فقال: أبي بن كعب، فانطلقا إلى أبي فقصا عليه القصة، فقال أبي: إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ٢٠.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤.

النبي ﷺ. قالا: حدثنا، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله أوحى إلى داود ان ابنِ لي بيتا أذكر فيه، فخطَّ له هذه الخطة، خطة بيت المقدس، فإذا تربيعتها بيت رجل من بني إسرائيل، فسأله داود أن يبيعه إياه فأبى، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه، فأوحى الله إليه: أن يا داود أمرتك أن تبني لي بيتا أذكر فيه فأردت أن تدخل في بيتي الغصب، وليس من شأني الغصب، وان عقوبتك ان لا تبنيه. قال: يا رب فمن ولدي... قال من ولدك »(1).

قال: فأخذ عمر بمجامع ثياب أبي بن كعب وقال: جئتك بشيء فجئت بما هو أشد منه لتخرجن مما قلت.

فجاء يقوده إلى المسجد حتى أدخله فيه، فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم أبو ذر - رضي الله عنه - فقال: نشدتك الله رجلا سمع رسول الله ﷺ يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره، فقال أبو ذر: أنا سمعته من رسول الله، وقال آخر. انا سمعته، يعني من رسول الله ﷺ فقال عمر للعباس: اذهب فلا أعرض لك في دارك، فقال العباس: أما وقد فعلت هذا فاني قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم في مسجدهم، واما وانت تخاصمني فلا »(2).

ما أعظمك يا عمر، تجادل وتخاصم ما دام الأمر يخص المسلمين ولا يتعارض مع شرع الله. أما وهناك نص فلا اجتهاد لك فيه بل تستسلم وتذعن - ويرى العباس ذلك منك ويعلم أن الأمر ليس أمر خصام أو اعتداء على حق من حقوقه بل هو في مصلحة من مصالح المسلمين، وعم الرسول ﷺ من اشد الناس حرصا على مصالح المسلمين لذلك يبادر بعد إثبات حقه وضرب المثل لغيره إلى تقديم داره هذه للمسلمين لتوسيع مسجدهم. ولا

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤.

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤.

عجب فهم رجال مدرسة الرسول - مدرسة القرآن - إنهم الرعيل الأول الذين حملوا راية الإسلام وانتشروا في كل بقاع الأرض حاملين لواءها داعين إليها صادقين مخلصين لله رب العالمين.

ويتحدث عبدالله بن عباس وأنس بن مالك - رضي الله عنهما - بأن الأرض أجدبت إجدابا شديدا، ويهرع الناس الى عمر - رضي الله عنه - يشكون ما هم فيه من جوع ومسغبة، ويدعو عمر إلى البذل والإنفاق، ويرسل إلى الولاة يطلب منهم المدد، ويدخل كعب على عمر قائلا: يا أمير المؤمنين، إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابهم مثل هذا استسقوا بعض الأنبياء[1].

فقال عمر: هذا عم رسول الله ﷺ وصنو أبيه، وسيد بني هاشم، ومشى إليه عمر وشكا إليه ما فيه الناس من القحط، ثم صعد المنبر ومعه العباس فقال:

«اللهم إنا توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين» ثم تقدم العباس فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه:

اللهم إن عندك سحابا، وعندك ماء، فانشر السحاب، ثم أنزل الماء منه علينا، فاشدد به الأصل، وادر به الضرع، اللهم إنك لم تنزل بلاء إلا بذنب ولم تكشفه إلا بثواب. وقد توجه القوم إليك، فاسقنا الغيث، اللهم شفعنا في أنفنسا وأهلينا، اللهم إنا شفعنا بمن لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا، اللهم اسقنا سقيًا نافعًا، اللهم إنا لا نرجو إلا إياك ولا ندعو غيرك ولا نرغب إلا إليك، اللهم إليك نشكو جوع كل جائع، وعري كل عارٍ، وخوف كل خائف، وضعف كل ضعيف، اللهم فأغثهم بحياتك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روحك، إلا القوم الكافرون[2].

---

(١) رواه عبد الله بن عباس وأنس بن مالك.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٤ ص ٨١٤.

واستجاب الله له فجاءت السماء بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام وأخصبت الأرض، وطفق الناس مستبشرين سعداء فقال عمر: هذا، والله الوسيلة إلى الله، والمكان منه، وقال الناس: هنيئًا لك ساقي الحرمين.

وأنشد حسان بن ثابت قوله:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا — فسقى الغمام بغـرة العباس
عـم النبي وصنـو والده الذي — ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا الإله به البلاد فأصبحت — مخضرة الأجناب بعد الياس[١]

وعاش العباس ما عاش وهو موضع الإجلال والإكبار من المسلمين وحكامهم، وكيف لا يكون كذلك وهو من هو مكانة عند المصطفى ﷺ.

انظر إليه وقد أسره ابو اليسر كعب بن عمرو في يوم بدر، وكان أبو اليسر رجلا مجموعا وكان العباس رجلا جسيما فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: «كيف اسرت العباس يا ابا اليسر؟ فقال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ولا بعد، هيئته كذا وهيئته كذا، فقال رسول الله ﷺ لقد أعانك عليه ملك كريم»[٢].

وعندما وقع العباس بن عبد المطلب في الأسر كان أول شيء سأل عنه رسول الله - ﷺ - فقال لأبي اليسر: ما فعل محمد؟ أصابه القتل؟ قال أبو اليسر: الله أعز وانصر - فقال العباس: كل شيء ما خلا محمدا خلل فما تريد؟ قال ابو اليسر: إن رسول الله ﷺ نهى عن قتلك. فقال العباس: ليس بأول صلته وبره[٣].

ويلقى العباس مع الأسرى موثقين بالحبال وأخذ يتضجر من وثاقه وارتفع

---

(١) لا توجد هذه الأبيات في ديوان حسان ولكن أوردها صاحب الاستيعاب - وأسد الغابة ج٣ ص ١٦٥ - ١٦٦، ١٦٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ١٢.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ١٢.

أنينه ووصل إلى سمع الرسول ﷺ فأقلقه وأرهقه وامتنعت عيناه من الغمض، ويدخل عليه بعض الصحابة، ويحسون بقلق الرسول ﷺ فيقولون: ما أسهرك يا رسول الله؟ فيقول: أنين العباس. فقام رجل فأرخى وثاقه فقال رسول الله ﷺ ما لي لا أسمع أنين العباس؟ فقال رجل من القوم: إني أرخيت من وثاقه شيئا يا رسول الله، فقال عليه السلام: فافعل ذلك بالأسارى كلهم[1].

وفي الصباح عرض الأسرى على رسول الله ﷺ فلما جاء دور العباس بن عبد المطلب قال رسول الله ﷺ «يا عباس» إفد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب وابن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم فإنك ذو مال. قال: يا رسول الله، إني كنت مسلما ولكن القوم استكرهوني، فقال الرسول ﷺ: الله أعلم بإسلامك، وإن بك ما تذكر حقًّا، فالله يجزيك به، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافدِ نفسك»[2].

وتذكر الروايات التاريخية أن الرسول ﷺ كان قد أخذ منه عشرين اوقية من ذهب. فقال العباس: يا رسول الله احسبها لي من قراي، قال: لا، ذاك شيء أعطاناه الله منك، قال: كأنه ليس لي مال؟ قال: فأين المال الذي وضعت بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهتي هذه؟ فهذا لك وللفضل ولعبدالله وعبيدالله وقثم، فقلت له من أخبرك بهذا؟ فوالله ما اطلع عليه أحد من الناس غيري وغيرها.. فقال رسول الله ﷺ الله أخبرني بذلك. فقلت له: فأنا أشهد أنك رسول الله حقًّا وإنك لصادق، وأنا أشهد ان لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

يذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى: «أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول الله من البحرين بثمانين ألفًا ـ ما أتى رسول الله ـ ﷺ مال أكثر منه،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص ١٣.

(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١٣.

فأمر بها فنثرت على حصير ونودي بالصلاة، فجاء المصطفى فمثل على المال قائما، وجاء الناس حين رأوا المال ـ وما كان يومئذٍ عدد ولا وزن ـ ما كان إلا قبضًا.

فجاء العباس فقال: يا رسول الله، إني أعطيت فدائي وفدى عقيل بن أبي طالب يوم بدر.. ولم يكن لعقيل مال، فأعطني من هذا المال. فقال: خذ.

قال: فجثا العباس بن عبد المطلب في خميصة كانت عليه، ثم ذهب ينهض فلم يستطع فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ارفع علي. فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه او نابه، وقال: ولكن أعد في المال طائفة وقسم بما تطيق.. ففعل وانطلق بهذا المال وهو يقول: أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزها ولا أدري ما يصنع في الأخرى»[1].

وصدق الله تعالى حيث يقول ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

هذا هو الإسلام يسوي بين الناس، فلا أنساب ولا أصهار ولا تفاضل إلا بالتقوى والعمل الصالح

في صُحبَة النَّبيّ ﷺ

صحب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نبيَّ المرحمة ورسول الملحمة نحوًا من ثلاثين شهرًا، لازمه فيها ملازمة تكاد تكون دائمة متصلة، وهي وإن كانت مدة قليلة، فإن الله باركها ونماها بتوفيقه لابن عباس حتى استطاع أن

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١٦.

(٢) سورة الانفال، آية ٧٠ واتفق العلماء على ان المقصود بهذه الآيات هو العباس بن عبد المطلب وعقيل ونوفل.

يروي للبشرية الكثير والكثير عن حياة الرسول ﷺ وما كان يعلمه للصحابة في مجالسه التي كانت مدرسة عليا تخرج فيها هؤلاء الهداة الذين قال فيهم معلمهم الأول محمد بن عبدالله: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

وسأحاول في سطور مضيئة أن ألقي بعض الضوء على تلك الصحبة المباركة - صحبة ابن عباس للنبي ﷺ - والتي من خلالها نرى تكريم الرسول له، وعنايته به، ورعايته له، حتى أصبح بحق ترجمان القرآن وحبر أمة محمد ﷺ.

في بيت الرسول

كان ابن عباس يبيت عند خالته ميمونة - أم المؤمنين وزوج رسول الإسلام - وتلعب المصادفة دورها في أن يكون الرسول الكريم عندها في ليلتها، فينام هو ورسول الأمة المحمدية في بيت واحد، بل ينامان على وسادة واحدة، ويتنفس الفتى في جو عبق بالمثاليات ولا شك أن النفس الفاضلة تشيع الفضل فيما حولها من الأرجاء، وتصنع الكمال للحياة والأحياء، ويتميز المنهج النبوي بالقدرة على التغيير سواء في داخل النفس أو خارجها لأن الأول هو المنطلق إلى الثاني. ولأن النفس إذا زكت من الداخل، استطاعت أن تبني من الخارج، وان تنشر أريج الصلاح وعطر الإصلاح في البيئة من حولها. ولم يتحمل ابن عباس أو يتكلف مشقة السعي بل وجد الفرصة متاحة له مهيأة فوجد تلك النفس الفاضلة والمنهج النبوي فشرب من ذلك المعين الصافي ونهل من ذلك المورد العذب. فأي خير وأي فضل يتاح لإنسان مثل ما أتيح لابن عباس!!

لقد اعتاد ابن عباس أن ينام على فراش سيد البشر، ويرتوي من رحيقه فكان لزاما عليه دائما أن يتصرف تصرف القدوة، فهو في كل حركاته وأدبه وعلمه يلتزم واجبات القدوة.

إن كلماته، ومعطياته، وسلوكه، تشكل طريقا عاما للأجيال المقبلة على

طول الزمن وعرضه، ومن ثم فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر إملاء عليه وإيحاء إليه!!

في طفولته يرضع لبان النبوة.. وفي صباه المبكر تلميذ الوحي وخادمه، فكان يسلك مسلك القدوة، فلا يلعب لعب الأتراب من لداته، ولا يلهو مع الصبية من أقرانه. وفي شبابه، كان يسلك مسلك المعلم، فقضاه شبابا طاهرا، وحمله مسئوليات الرجال الأفذاذ مبكرا..

هنا نلتقي بتلميذ الوحي، وربيب بيت النبوة، لم يكن يعنيه في حياته الشاهقة إلا أن يكون معلما ينشر فكره وعقله على الناس ليعطي صورة مشرفة لمسلم من الرعيل الأول سمع دوي الوحي، وصلى خلف سيد البشر.

فلا غرابة في ان ينقل لنا شيئا من حياة رسول الله ـ ﷺ ـ الداخلية مما كان لا يطلع عليه غيره من الناس ولا عجب أن يجعل من رسول الله المثل والقدوة في حياته.

فعن ابن عباس قال: بت في بيت خالتي ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ وكان النبي ﷺ عندها في ليلتها، فصلى العشاء، ثم جاء إلى منزله فصلى اربع ركعات ثم نام ثم قام ثم قال: نام الغليّم، أو كلمة تشبهها ثم قام فقمت عن يساره، فجعلني عن يمينه فصلى خمس ركعات، ثم صلى ركعتين، ثم نام حتى سمعت غطيطه أو خطيطه، ثم خرج إلى الصلاة[1].

وعن كريب مولى ابن عباس أن عبدالله بن عباس أخبره أنه بات ليلة عند أم المؤمنين ميمونة زوج الرسول الكريم ـ وهي خالته ـ فاضطجعتُ في عرض الوسادة، واضطجع عليه الصلاة والسلام في طولها هو وأهله، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل

(١) البخاري ١/٣٧.

عمران، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن الوضوء ثم قام يصلي.

قال ابن عباس: فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه، فوضع يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأذني يفتلها، فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين، ثم ركعتين ثم أوتر، ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن فقام وصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج إلى المسجد فصلى الصبح[1].

هذا والذي يظهر من هذا الحديث والذي قبله أن رسول الله - ﷺ - قد خرج إلى الصلاة بعد هذا النوم ولم يتوضأ، وهذا الظاهر قد جاء مصرحا به في رواية أخرى فقد جاء فيها: ثم اضطجع فنام حتى نفخ، ثم أتاه المنادي فآذنه بالصلاة فقام معه إلى المسجد فصلى ولم يتوضأ[2].

وروى أبو المتوكل أن ابن عباس حدثه: أنه بات عند النبي ﷺ ذات ليلة، فقام نبي الله ﷺ من آخر الليل، فخرج فنظر في السماء ثم تلا هذه الآية من آل عمران **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾**[3] حتى بلغ: **﴿فقنا عذاب النار﴾**[4] ثم رجع إلى البيت فتسوك وتوضأ ثم قام فصلى، ثم اضطجع ثم قام فخرج إلى السماء فتلا هذه الآية ثم رجع فتسوك فتوضأ ثم قام فصلى[5].

وعن أبي الشعثاء أن ابن عباس أخبره أن رسول الله ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة[6].

ولشدة صلته بحياة الرسول الخاصة - كما مر - استطاع ابن عباس ان

---

(١) البخاري ١/٥٣ - ٥٤ - والشن: القربة.

(٢) البخاري ج ١ ص ٤٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٩٠.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٩١.

(٥) رواه مسلم ج ١ ص ١٥٢.

(٦) رواه مسلم: ١ - ص ١٧٧. وفضل ميمونة هو الماء الذي بقي في الوعاء بعد اغتسالها.

يصف لنا أمورًا ما كان غيره ليستطيع الاطلاع عليها.

فمن ذلك وصفه لمزاح الرسول، عليه الصلاة والسلام، مع نسائه، فقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس - رضي الله - عنهما - ان رجلاً سأله: أكان رسول الله - ﷺ - يمزح؟ قال: نعم، فقال الرجل. ما كان مزاحه؟، فقال ابن عباس كسا النبي - ﷺ - بعض نسائه ثوبا واسعا، قال: البسيه واحمدي الله وجرّي من ذيلك هذا كذيل العروس[1].

ومن ذلك وصفه لكيفية عيش الرسول في بيته، أخرج الترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوين لا يجدون عشاء، وإنما اكثر خبزهم الشعير[2].

أدبه مع النبي ﷺ

لقد كان ابن عباس - رضي الله عنهما - مثالا كريما في أدبه مع رسول الله ﷺ شأنه في ذلك شأن الصحابة والمسلمين عامة.

فعن كريب أن ابن عباس أخبره فقال: أتيت رسول الله ﷺ من آخر الليل، فقام يصلي، فوقفت خلفه، فأخذ بيدي فجرني حتى جعلني حذاءه، فلما أقبل على الصلاة خنست، فلما انصرف من صلاته قال: ما شأنك أجعلك حذائي فتخنس؟ فقلت: يا رسول الله، أوينبغي لأحد أن يصلي في حذائك وأنت رسول الله؟ فدعا الله لي أن يزيدني علمًا وفهمًا[3].

إرداف الرسول له

كان ﷺ متواضعًا جم التواضع، فقد كان لا يأنف اذا ركب أن يردف خلفه، وكان ممن أردفهم خلفه ابن عباس.

(١) حياة الصحابة ١٧٨/٣.

(٢) انظر حياة الصحابة ٤٥٤/١.

(٣) رواه الإمام احمد ـ انظر البداية والنهاية ٢٩٦/٨ ـ خنس: انقبض وتأخر.

فقد أخرج أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ان رسول الله ﷺ أردفه على دابته، فلما استوى عليها كبر ثلاثا وسبح ثلاثا، وهلل واحدة ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: ما من امرئ يركب دابته فيصنع كما صنعت إلا أقبل الله عز وجل. فضحك إليه كما ضحكت إليك[(١)].

ومما يدل على حب الرسول ﷺ لابن عباس، ما رواه ابن أبي مليكة من أن ابن الزبير قال لابن جعفر - رضي الله عنهم - أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس فحملنا وتركك؟؟ قال: نعم[(٢)].

وما روي عن جعفر بن محمد عن أبيه من أن رسول الله ﷺ لم يبايع من الصّغار إلا الحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر[(٣)].

موقفه اثناء وفاة النبي ﷺ

وقف ابن عباس والدموع تترقرق في عينيه وهو يودع الرسول الكريم يوم لقاء ربه وقد عادت به الذكرى إلى ذلك الموقف المشهود في حجة الوداع حين وقف ﷺ يقول للناس: أيها النـاس، اسمعـوا قـولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عام بهذا الموقف، وقف يرى ما يقوله المصطفى حقيقة واقعة فيودع الدنيا تاركا وراءه رسالته الخالدة يضمها كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة كريمة تشرح للناس أمور دينهم. وكانت وفاته ﷺ في يوم الاثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة [٨/٦/٦٣٢م].

وتكون آيته بعد أن أتم رسالة، أنه يجوز عليه المرض والموت، كما جازت عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها من حزن وثكل وحب وبغض وفرج

---

(١) حياة الصحابة ٤/٦٠.

(٢) البخاري ٤/٣٩.

(٣) البداية والنهاية: ٨/٢٠٧.

وضيق مثلما تجوز على سائر البشر لكيلا يفتن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول كما فتن مَن قَبْلَهم فاتخذوا أنبياءهم مع الله آلهة وصدق الله العلي حيث يقول: **﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أفإن مات أو قُتِلَ انقَلَبْتُم على أعقابِكُم، ومن ينقلب على عَقِبيْه فلن يَضُرَّ اللهَ شيئًا وسيجزي اللهُ الشاكرين﴾**[1].

وعاد محمد إلى خالقه حيث قبض في بيت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بيد أنه عاش بعد ذلك معجزة نبوة وكتاب شريعة، ولواء عقيدة حررت الإنسانيةمن اغلالها وهدتها إلى الصراط المستقيم مستشرفة إلى آفاق المثل العليا راضين بما هيأه الله لها من معاني الخير والعدل والمساواة.

وها هو ابن عباس يصور لنا تلك اللحظات الأخيرة في حياة صاحب الرسالة فيقول: «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى. اتخذوا قبور انبيائهم مساجد، بئس ما صنعوا»[2].

وكأن عليه الصلاة والسلام في هذا الموقف قد علم أنه مرتحل من ذلك المرض، فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى، فلعن اليهود والنصارى إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم ويحذوا حذوهم[3].

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4]. وأخرج الطبراني عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ ثقل، وعنده عائشة وحفصة، إذ دخل عليٌّ - رضي الله عنهم - فلما رآه النبي ﷺ رفع رأسه ثم قال: ادنُ مني، ادن مني فأسنده إليه، فلم يزل

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤٤.

(٢) البخاري: ١/١١٢.

(٣) انظر فتح الباري: ١/٣٥٨.

(٤) سورة النور، آية ٦٣.

عنده حتى توفي. فلما قضى قام علي وأغلق الباب، وجاء العباس رضي الله عنه ومعه بنو عبد المطلب فقاموا على الباب، فجعل علي يقول: بأبي أنت طبت حيا وطبت ميتا، وسطعت ريح فيه لم يجدوا مثلها، قال: [أي العباس] إيها.. دع خنينا كخنين المرأة، واقبلوا على صاحبكم قال علي: أدخلوا عَلَيَّ الفضل بن العباس، فقالت الأنصار - نشدناكم بالله ونصيبنا من رسول الله ﷺ فأدخلوا رجلا يقال له: أوس بن خولي يحمل جرة بإحدى يديه، فسمعوا صوتا في البيت، لا تجردوا رسول الله ﷺ، واغسلوه كما هو في قميصه، فغسله علي، يدخل يده من تحت القميص، والفضل يمسك الثوب عنه، والانصاري ينقل الماء، وعلى يد علي خرقة يدخل يده تحت القميص[1].

وأخرج ابن إسحق عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال: لما مات رسول الله ﷺ أدخل الرجال فصلوا عليه بغير إمام أرسالًا حتى فرغوا، ثم أدخل النساء فصلين عليه ثم أدخل الصبيان فصلوا عليه ثم أدخل العبيد فصلوا عليه أرسالا لم يؤمهم على رسول الله أحد[2].

وفاة ابن عباس

تركت وفاة النبي ﷺ في ابن عباس ذي الثلاثة عشر ربيعا أثرا.. هو مزيج من الحزن والرضا والتسليم.

الحزن على فقد معلمه الأول، وقدوته التي يترسم خطاها، وينقل عنها الفضائل والشمائل، والرضا بقضاء الله وقدره، وتسليما لحكمة الله في هذا الكون فقد قضى الله أن ﴿ **كل شيء هالك إلا وجهه** ﴾[3] و﴿ **كل من عليها فانٍ** ﴾[4]

---

(١) حياة الصحابة: ٢/٦٠٤.

(٢) حياة الصحابة: ٢/٦٠٤.

(٣) سورة القصص، آية ٨٨.

(٤) سورة الرحمن، آية ٢٦.

و ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[1] و ﴿إنك ميت وهم ميتون﴾[2].

لقد خالطت آيات القرآن الكريم نفس ابن عباس، فلم تعد نفسا عادية تمر عليها الأيات فلا تلتفت لها وإنما حولته إلى إنسان قرآني يعرف موقع الكلمة وما يراد بها، فقد عاش كما يعيش البليغ في العالم ويكتب كما يكتب البليغ للعالم، ولا يرضى عن نفسه، إلا أنه يرضي الناس، وقد قبل البشر بكل ما فيهم من صفات ليخرجهم عما هم فيه.

إنه يخاطب في الإنسان العقل والإرادة والإحساس، ويوقظ فيه مشاعر العبودية لله رب العالمين، ويضع الناس في مشاهد حية تدعم في نفوسهم الإيمان بأن لا إله إلا الله، وان ليس للإنسان إلا ما سعى وأن الحياة الدنيا ليست إلا معبراً للآخرة وان الآخرة هي دار القرار.

قال ابو الحسن: أخبرني نفر من قريش - ويرفع الحديث إلى عبدالله بن عباس - قال هلك رجل من أهل المدينة فشهد جنازته ابن عباس، فلما دفن الرجل، قال بعض من شهد: ليت شعري إلى ماذا صار صاحبنا؟ فسمعه ابن عباس فقال: أما تدري؟ قال الرجل: لا والله - قال ابن عباس: لكني والله أدري، أما سمعت قول الله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ★ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ★ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ★ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ★ وأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ★ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ★ وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[3] وليس صاحبنا من المكذبين الضالين - فإن اخطأه أن يكون من المقربين فلن يخطئه أن يكون من أصحاب اليمين - قال ففرح جميع القوم بما سمعوا[4]. والمؤمنون دائما مبتلون.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٥.

(٢) سورة الزمر، آية ٣٠.

(٣) الآيات من آخر سورة الواقعة، الآيات ٨٨ - ٩٤.

(٤) كتاب التعازي والمراثي للمبرد ص ٥.

قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»[1].

وابن عباس واحد من هؤلاء الذين أحبهم الله فامتحنهم وابتلاهم، فقد كف بصره في آخر حياته كما كان ذلك في أبيه وجده.

فقد روي أن معاوية بن أبي سفيان قال له بعد أن كف بصره: ما لكم تصابون في أبصاركم يا بني هاشم، فقال له ابن عباس على الفور: كما تصابون في بصائركم يا بني أمية[2].

وقد عزوا ذهاب بصره إلى بكائه على الإمام علي بن ابي طالب وعلى ولديه: الحسن والحسين ويقال إن السبب في ذلك هو سقوط ماء في عينيه، فقد روي عن السماك أن حين كف بصر ابن عباس بسبب سقوط الماء في عينيه أتاه هؤلاء الذين ينقبون العيون ويسيلون الماء، فقالوا: خل بيننا وبين عينيك نسيل ماءهما، ولكنك تمكث خمسة أيام لا تصلي [يعني قائما] قال: لا والله ولا ركعة واحدة، إني حدثت انه من ترك صلاة واحدة متعمدا الفى الله ـ عزل وجل ـ وهو عليه غضبان[3].

وقيل في سبب ذهاب بصره: أنه رأى مع النبي ﷺ رجلا فلم يعرفه فسأل عنه الرّسول، فقال له: أرأيته؟! قال: نعم، قال: ذاك جبريل، أما إنك ستفقد بصرك.

[وقد يكون رفض ابن عباس للعلاج مرتبطا بما سمعه من رسول الله ﷺ حين سأله عن الرجل الذي كان معه].

وفي إمارة عبد الملك بن مروان مات حبر الأمة عبدالله بن عباس في سنة ثمان وستين أو تسع وستين بالطائف وله إحدى وسبعون سنة.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) حلية الاولياء وطبقات الأصفياء ج ١ ص ٣٠١٤.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ٥٠.

وروي أنه لما مات سمع عند دفنه ﴿يا أيتها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ★ ارْجَعي إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً★ فَآدْخُلي في عِبَادي★ وَآدْخُلي جَنَّتِي﴾[1].

قال ميمون بن مهران: شهدت جنازة ابن عباس، فبينا الناس واقفون إذ جاء طائر أبيض فوقع في أكفانه ودخل فيها، فالتُمِسَ فلم يوجد، فلما سوينا عليه التراب سمعنا من نسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة...﴾ الخ[2].

وعن منذر قال: لما مات ابن عباس، قال ابن الحنفية: اليوم مات حبر هذه الأمة. ولما بلغ جابر بن عبدالله وفاة ابن عباس، صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أعلم الناس واحلم الناس، ولقد أصيبت هذه الأمة مصيبة لا ترتق.

وصلى عليه محمد بن الحنفية وكبر أربعًا، وضرب على قبره فسطاطا، وهذا القبر مشهور في مسجد كبير بالطائف بني في زمن الناصر لدين الله العباسي[3].

أبناؤه

لقد خلف عبدالله بن عباس من الولد: علي السجَّاد، وهو أبو الخلفاء العباسيين الذين أسسوا دولة العباسيين التي استمر حكمها حتى عام ٦٥٦هـ والعباس ومحمد والفضل، وعبد الرحمن، وعبدالله، وأسماء ولباب وأمهم زرعة بنت مشرح الكندية.

وأما عبدالله ومحمد والفضل فلا أعقاب لهم[4].

---

(١) سورة الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) انظر الرياضة المستطابة ص ١٩٨ ـ ١٩٩ وابن القيم ـ زاد المعاد ج ٣ ص ٢٨.

(٣) هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله أبو العباس احمد بن المستضيء بامر الله تولى الخلافة من سنة ٥٧٥ حتى عام ٦٢٢ هـ.

(٤) مروج الذهب ـ ج ١ ص ١٠٨.

الفصل الثاني
ثقافات ابن عبّاس

تعددت روافد ثقافة ابن عباس وتشعبت، فقد نشأ وتربى في بيئة تحمل السمة المميزة لهذا الميراث الجليل، وفي بيت كريم له الشرف العظيم والمجد المؤثل، تصونه عناصر أبية كل قوى الخير فيهم مشحوذة ماضية يحثها الإيمان ويحدوها التوفيق واليقين، وتأخذ بيدها الثقة في أن ما عند الله خير وأبقى. وسوف ترى ذلك واضحا أكثر ما يكون الوضوح في [عبدالله] الابن والحفيد.. لا سيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة في مختبرات الدين القيم والإسلام الحنيف.. فتخرج خبأها النفيس ويزداد ألقها الفريد.

وثمة أمر آخر، سنراه جليا في حياة [عبدالله] غير التي ورثها من خصال أبيه (العباس) وجده (عبد المطلب من قبل) ذلك الأمر، هو الاتصال المباشر المتمثل في معايشته لابن عمه (محمد) سيد البشر، تلك المعايشة شبه الدائمة، مكنته من أن يرقب (منصة الأستاذية) في عزم وتصحيح ونبل وشرف.

ففي ذلك الجو المشحون بالطهارة والشرف ـ صحب ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ نبي العرب ورسول الإسلام، وأخذ عنه وحفظ وضبط الأقوال، والأفعال والأحوال، ولم يقتصر في أخذ الحديث عن رسول الله ﷺ لحداثة سنه وصغره عند موت النبي الكريم بل أخذ عن أصحاب رسول الله علمًا

عظيما زاده تألقًا تلك الملكة الفريدة في ابن عباس الواضحة في فهمه الثاقب لمدلولات الألفاظ.

أخذ ابن عباس بعد رسول الله ﷺ عن جماعة من الصحابة منهم والده العباس وأمه ام الفضل، واخوه الفضل وخالة ام المؤمنين ميمونة، وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل، وأبو ذر، وابي ابن كعب، وتميم الداري، وخالد بن الوليد - ابن خاله - وأسامة بن زيد.

ولا شك أن فراسة أمه لبابة، قد صدقت.. منذ أن كانت ترقصه وتقول:

ثكلت نفسي وثكلت بكري   إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب الزاكي وبذل الوفر[1]

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يسأل فقهاء الصحابة - رضي الله عنهم - عن النازلة ثم يلتفت إلى ابن عباس ويقول: غص غواص!

وشاوره يوما فأعجبه رأيه، فقال عمر: شنشنة أعرفها من أخشن.. هكذا يروى عنه - والمثل المعروف: شنشنة أعرفها من أخزم - فجعل (أخشن) مكان: أخزم - والشنشنة: هي الطبيعة والعادة - واخشن واخزم، اسمان والمقصود من المثل: أن هذه عادة او طبيعة أعرفها من الذي ضرب له المثل. ومراد عمر - رضي الله عنه - تشبيه عبدالله بن عباس بأبيه في جودة الرأي... بإنه كان يقال: ليس لقريش رأي كرأي العباس - رضي الله عنه.

لقد رأى ولاء أبيه لما كان يراه حقًا، وورث ولاء جده عبد المطلب ومن قبلُ جده «هاشم» لما كانا يريانه حقًا وصدقا.

لقد جاء من أصلاب قوم عرفوا أنهم حماة العقيدة والفضائل والخير. فقد حكي أن ناسًا ذكروا مغاوية وعمرو بنْ العاص - رضي الله عنهما - عند عمر

---

(١) ابناء نجباء الابناء ص ٧٩ - ٨٠.

ابن الخطاب، فقال لهم: اين أنتم من عبدالله بن عباس! فقالوا والله انه..!

ولكنهما أذكى سنًّا وأطول تجربة، فقال عمر - رضي الله عنه: إن هذا لهما عليه، ولئن بقي حتى يجري في عناتهما ليبرِّحنَّ بهما تبريح الأشقر معرًّا وشيخًا[1].

وروي ان «الحطيئة» الشاعر نظر إلى ابن عباس من مجلس عمر فقال: من هذا الذي نزل عن الناس في سنه، وعلاهم في قوله؟

وقال العباس - رضي الله عنه - لابن عبدالله: يا بني.. إني أرى هذا الرجل - يعني - عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد أكرمك وأدناك واختصك دون أكابر أصحاب رسول الله ﷺ فاحفظ عني ثلاثا: لا يجرينَّ عليك كذبا، ولا تفشينَّ له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحدًا.

فقال الشعبي - رحمه الله - وهو راوي هذا الحديث عن ابن عباس - فقلت له: كل واحدة خير من ألف.. فقال: أي والله ومن عشرة آلاف[2].

وقد سبق ان ذكرنا ان ابن عباس كان من الصغار الذين بايعهم رسول الله ﷺ وهذا أعدل شاهد على سبقه وتقدمه في حلبة النجابة وإعرافهم من مخايل السيادة ثم انتهى أمره إلى أن كان يسمى (البحر) لكثرة علومه.

وقد قال حسان بن ثابت فيه[3]:

١- إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه	رأيت له في كل مجمعة فضلا
٢- إذا قال لم يترك مقالا لقائل	بملتقطات لا ترى بينها فصلا

---

(١) أبناء نجباء الأبناء ص ٨١ - ٨٢.

(٢) البداية والنهاية ٨/٢٩٩.

(٣) الأبيات: ٢، ٣ فقط في الديوان والبيت الأول زيادة من نسب قريش، والاستيعاب وفي معجم الأدباء لياقوت، بملتقطات - كما ذكرنا اعلاه، وتعي المتفقة مع الوزن - بخلاف ما وجد في الديوان وهو: بمتلفظات - وهو لحن يؤيد ما ذهبنا إليه ما جاء في الاستيعاب: =

٣ـ كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع لذي إربة في القول جدا ولا هـزلا
٤ـ سموت إلى العليا بغير[1] مشقـة ونلت قصاها لا جبانـا ولا وغلا[2]
٥ـ خلقت حليفا للمروءة والنـدى بليجًا ولم تخلق جبانـا ولا حبلا[3]

وقد جاء البيتان الأول والثاني في تحقيق الدكتور «وليد عرفات»:

سمـوت إلى العليـا بغير مشقـة فنلـت ذراهـا لا دنيـا ولا وغلا
خلقـت حليفـا للمـودة والنـدى فليجا ولم تخلق كهامًـا[4] ولا جهلا

ولم يكن ابن عباس كثير الحفظ والفهم والفتيا فحسب، بل كان بحرا من بحور العلم غاية في فهم ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم.

فكان يستنبط الأحكام من ألفاظ النصوص الواردة من الكتاب والسنة، حتى اولاه أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» عنايته وأدخله في مجلس الشورى مع البدريين من أصحاب الرسول الكريم ـ وكان يقول له إذا أطل جاء فتى الكهول، وذو اللسان السؤول، والقلب العقول، ولم يكن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ اقل تقديرا له من عمر فإنه كان يقول: لو ادرك ابن عباس اسناننا ما عشره منا أحد ـ أي ما بلغ أحد منا عشر علمه[5].

= بمنتظهات وهي متفقة مع الوزن ـ ومما جاء في هذا المعنى ما ذكر في كتاب الحيوان ٣ ص ١١٤

إذا قـال لم يترك مقـالا ولم يضـف بعـيّ ولم يثـن اللسـان على هجـر
يصرف بـالقـول اللسـان إذا انتحـى وينظـر في أعطـافـه نظـر الصقـر

(١) في معجم الأدباء لياقوت: من غير خفة.

(٢) وغل الرجل، من باب وعد، أن دخل الرجل على القوم في شرابهم فشرب معهم من غير أن يدعى إليه.

(٣) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٨٢ والاصامة ٤/ ٩٠ وسير النبلاء: ٣/٢٣٧ والبلوج: الإشراق - حبلا: الشديد الغضب.
وذكر ذلك أيضاً بديوان حسان تحقيق د. وليد عرفات ص ٤٧٩.

(٤) كهاماً: جباناً.

(٥) رسالة أسماء الصحابة لابن حزم ص ٢٧٧.

وفي مسند احمد «كان ابن عباس يقرئ عمر القرآن»[1].

ومن شاء أن يتعرف على حياة ابن عباس، وأدبه الجم، وسلوكه الإيماني باعتباره أحد النماذج الباهرة والنادرة في مدرسة الحياة الشاهقة مدرسة «محمد» ابن عبدالله ﷺ المملوءة بالفروع الزاكية والثمار اليانعة، حتى يشملنا عبيرها، وطهرها، ونقاؤها المعرِق. فإذا كان الإسلام عبادة، ونُسكًا.. جهادًا.. وبذلاً.. وزهدًا.. فطنة.. وورعًا.. سيادةً، وتواضعًا.. قوةً، ورحمة، عدالة وفضلا.. استقامةً وعلمًا.. بساطة وتمكنا ولاء وفهما، فإنما هو - بالدرجة الأولى - أدب وتواضع وسلوك وقدوة. فقد روي عن ابن عباس[2] أنه امسك للحسن والحسين ركابيهما حين خرجا من عنده، فقال له بعض من حضره: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسن منهما؟ فقال له: اسكت يا جاهل.. لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

وكأني بالمقادير كانت تدخر لسمعه ووجدانه، تلك الآيات الباهرات يسمعها مشرقة متألقة يرددها ابن عباس خلف رسول رب العالمين... ولعل تلك الكلمات التي حفظها هي التي كانت ترسم حياته وسلوكه حتى صار في تاريخ العظماء مثلا رائدا يقتفى أثره.

فقد حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم عن الزهري عن عبيدالله بن عبدالله عن ابن عباس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ أردفه على بغلة فقال: يا غلام: إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

---

(١) مسند الإمام ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) نزهة الألباب ص ٢٥.

وفي رواية أخرى: احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا[1] . وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: دعا رسول الله ﷺ لعبدالله بن العباس فقال: اللهمّ بارك فيه وانشر منه.

وعن مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنه - ان رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه فقال: اللهم أعطه الحكمة وعلمه التأويل، ووضع يده على صدره فوجد عبدالله بن عباس بَرْدها في ظهره ثم قال: اللهم احشِ جوفه حكمة وعلما. فلم يستوحش ابن عباس في نفسه إلى مسألة أحد من الناس. وعن مجاهد عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال: دعا لي رسول الله ﷺ بخير كثير وقال: نعم ترجمان القرآن انت.

حدثنا سليمان بن أحمد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لِمَ تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم وما رأيته دعاني يومئذٍ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون: ﴿إذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة[2]؟ فقال بعضهم: لا ندري! ولم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس: كذلك تقول. قلت: لا قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله به ﴿إذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ﴾ فتح مكة - فذاك علامة أجلك - ﴿فَسَبِّحْ بِحمد رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوّابًا﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[3] وكيف تلومونني عليه بعدما ترونه[4].

---

(١) مختصر النبراوي على الأربعين النووية للشيخ المرحوم: عبد الرحيم الخدري ص ٦٤.

(٢) سورة النصر بكاملها.

(٣) حلية الأولياء، ج ١ ص ٣٢٠ وصفة الصفوة ج ١ ص ٧٩.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٠ والحديث أخرجه البخاري.

وكان عمر - رضي الله عنه - فقيها من فقهاء الإسلام في عصره بلا منازع، فقد وصفه الرسول الكريم بأنه محدث - أي انه مُلهم - وكذلك كانت له ثقافة واسعة في الأدب - شعره ونثره.

وكانت له مجالس علمية يجتمع فيها معه كبار الصحابة يتشاورون في كل ما يتعلق بأحوال الأمة الإسلامية الفتية.

ويروي ابن عباس - رضي الله عنه - «ان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جلس في رهط من أصحاب رسول الله - ﷺ - من المهاجرين فذكروا ليلة القدر، فتكلم منهم من سمع فيها بشيء مما سمع، فتراجع القوم فيها الكلام، فقال عمر: ما لك يا ابن عباس صامت لا تتكلم؟ تكلم ولا تمنعك الحداثة، قال ابن عباس فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى وتر يحب الوتر، فجعل أيام الدنيا تدور على سبع، وخلق الإنسان من سبع، وخلق ارزاقنا من سبع وخلق فوقنا سموات سبعا، وخلق تحتنا أراضين سبعا، وأعطى من المثاني سبعا ونهى في كتاب عن نكاح الأقربين عن سبع. وقسم الميراث في كتابه على سبع، ونقع في السجود من أجسادنا على سبع، وطاف رسول الله - ﷺ - بالكعبة سبعًا، وسعى بين الصفا والمروة سبعا، ورمى الجمار بسبع لإقامة ذكر الله مما ذكر في كتابه.. فأراها في السبع الأواخر من شهر رمضان والله أعلم. فتعجب عمر وقال: ما وافقني فيها أحد عن رسول الله ﷺ إلا هذا الغلام الذي لم تستو شؤون رأسه، إن رسول الله ﷺ قال: التمسوها في العشر الأواخر. ثم قال: يا هؤلاء من يؤديني في هذا كأداء ابن عباس»[2].

وعن عبد الرازق عن ابن عيينة عن أبي بكر الهزلي قال: دخلت على الحسن فقال: إن ابن عباس كان من القرآن بمنزل وكان عمر يقول: ذاكم فتى الكهول، إن له لسانًا سؤولا، وقلبًا عقولاً، كان يقوم على منبرنا هذا - أحسبه قال عشية عرفة - فيقرأ سورة البقرة وسورة آل عمران، ثم يقرؤها آية

آية متجًا نجدًا غربا[1].

وعن الأوزاعي قال: قال عمر بن الخطاب لعبدالله بن عباس: والله إنك لأصبح فتياننا وجهًا، وأحسنهم عقلاً، وأفقههم في كتاب الله عز وجل[2].

جرأته في قول الحق أمام عمر

كان الناس يهابون عمر ـ رضي الله عنه ـ وقلما ترى واحدا يجرؤ على التحدث أمامه مهابة له، حتى إن ابن عباس نفسه ـ رضي الله عنه ـ قال: مكثت سنة وأنا أريد أن اسأل عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة له[3].

لكن ابن عباس لم تمنعه هذه الهيبة أن يقول عنده ما يعتقده حقا، فالحق أحق أن يقال ويتبع، ولا يبالي بعد ذلك أقابله عمر بشيء من الزجر او الإعراض أم لم يقابله.

روى البيهقي وغيره عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إذا صلى صلاة جلس للناس، فمن كان له حاجة كلمه، وإلا قام ومضى. فصلى ذات يوم فلم يجلس، فقلت « يا يرفأ » أبأمير المؤمنين شكاة؟ فقال: ما بأمير المؤمنين شكو، فجلست فجاء عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فجلس. فخرج يرفأ فقال: قم يا ابن عفان، قم يا ابن عباس، فدخلنا على عمر، فإذا بين يديه صبر من مال على كل صبرة منها كتف، فقال: إني نظرت إلى أهل المدينة فوجدتكما من أكثر أهلها عشيرة، فخذا هذا المال فاقتسماه، فما كان من فضل فردّا، فاما عثمان فحثا وأما أنا

---

(١) في النهاية عن الحسن في صفة ابن عباس كان متجا يسيل غربا أي يصب الكلام صبا، بسكون عين الكلمة، واحد الغروب وهي الدموع حين تجري ـ والنجد ـ محركة من نجد الماء إذا سال.

(٢) صفة الصفوة للجوزي ج ١ ص ٤٢.

(٣) الحلية لأبي نعيم، ج ٣١٧/١، وانظر سيرة عمر ـ الطنطاوي ص ٤٦٢.

فجثوت لركبتي وقلت: وإن كان نقصانا رددت علينا!!

فقال عمر: شنشنة من أخزم، أما كان هذا عند الله إذ محمد ﷺ وأصحابه يأكلون القد؟ فقلت: بلى والله، لقد كان هذا عند الله ومحمد حي، ولو عليه فتح لصنع فيه غير الذي تصنع، فغضب عمر وقال: إذن صنع ماذا؟ قلت: إذًا لأكل وأطعمنا، فنشج عمر حتى اختلفت اضلاعه ثم قال: وددت أني خرجت منها كفافًا لا لي ولا علي[1].

وعن يزيد بن الأعصم عن ابن عباس قال: قدم على عمر رجل، فجعل عمر يسأله عن الناس فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، فقلت: والله ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة. قال: فزبرني عمر ثم قال: صهْ فانطلقت إلى منزلي مكتئبا حزينا، فقلت: قد نزلت من هذا بمنزلة ولا أراني إلا سقطت من نفسه، فاضطجعت على فراشي، حتى عادني نسوة أهلي وما بي وجع فبينا أنا على ذلك قيل لي: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو قائم على الباب ينتظرني، فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفا؟! قلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني استغفر الله وأتوب إليه، وأنزل حيث أحببت قال: لتخبرني، قلت: متى ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقوا ومتى ما يحتقوا يختصموا، ومتى ما اختصموا، يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا قال: لله أبوك!! لقد كنت أكتمها الناس حتى جئت بها[2].

وأخرج ابن عبد البر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن حديث ما منعني منه إلا هيبته، حتى تخلف في حج أو عمرة في الأراك الذي ببطن مر الظهران لحاجة، فلما جاء وخلوت به قلت: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أسألك عن

---

(١) انظر حياة الصحابة ج ٢/٤٨٥ - يرفأ: حاجب عمر - شكاة: مرض.

(٢) سير النبلاء ٣/٢٣١ ويحتقوا: يقول كل منهم ان الحق معي.

حديث منذ سنين ما يمنعني إلا هيبة لك قال: فلا تفعل، إذا أردت أن تسأل فسلني. فإن كان منه عندي علم أخبرتك وإلا قلت: لا أعلم، فسألت من يعلم قلت: مَن المرأتان اللتان ذكرهما القرآن أنهما تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال: عائشة وحفصة[١].

هيبة الناس لعمر

وكما أن ابن عباس كان يهاب عمر، فقد كانت هذه الهيبة تملأ نفوس الناس. روى ابن عساكر عن ابن عباس - رضي الله عنهما. قال: لما ولي عمر بن الخطاب قال له رجل: لقد كاد بعض الناس أن يحيد هذا الأمر عنك. قال عمر: وما ذاك؟ قال: يزعمون انك فظ، قال عمر: الحمد لله الذي ملأ قلبي لهم رحمًا وملأ قلوبهم لي رعبًا[٢].

وعن سعيد بن جبير أن معاوية كتب إلى ابن عباس يسأله عن ثلاثة أشياء وقال: إن هرقل كتب إليه يسأله عنهن، فقال (معاوية) فمن لهذا؟ قيل له: ابن عباس، فكتب إليه يسأله عن المجرة، وعن القوس، وعن مكان من الأرض طلعت فيه الشمس ولم تطلع منه قبل ذلك اليوم ولا بعده، فقال ابن عباس: اما المجرة: فباب السماء الذي تنشق منه، وأما القوس فأمان لأهل الأرض من الغرق، وأما المكان الذي طلعت فيه الشمس لم تطلع قبل ذلك اليوم ولا بعده، فالمكان الذي انفرج من البحر لبني اسرائيل[٣].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رجلا أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كانتا رتقًا ففتقناهما﴾[٤] قال: إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني ما قال فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال: كانت السموات رتقا

---

(١) انظر كتاب جامع بيان العلم وفضله ١/١١٢ لابن جرير وانظر البخاري ٣/١٠٣.

(٢) انظر حياة الصحابة ٢/١٤٥.

(٣) حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ج ١ ص ٣٢١.

(٤) سورة الانبياء، آية ٣٠.

لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: إن ابن عباس أوتي علم صدق، هكذا كانتا ـ ثم قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن.. فالآن قد علمت أنه قد أوتي علما![1].

روى أبو نعيم في الحلية عن أبي صالح قال: لقد رأيت من ابن عباس مجلسًا لو أن جميع قريش فخرت به لكان لها فخرا.

لقد رأيت الناس اجتمعوا حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحد يقدر على أن يجيء ولا أن يذهب، قال: فدخلت عليه فأخبرته بمكانهم على بابه، فقال لي: ضع لي وضوءًا، قال: فتوضأ وجلس، وقال: اخرج لهم، من كان يريد أن يسأل عن القرآن وخروجه وما أراد منه فليدخل، قال: فخرجت فاذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجر فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به، وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر، ثم قال: إخوانكم، فخرجوا ـ ثم قال: اخرج فقل: من أراد أن يسأل عن تفسير القرآن وتأويله فليدخل، قال: فخرجت وأذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجر، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوا عنه أو أكثر ـ ثم قال: إخوانكم ـ فخرجوا ـ ثم قال: اخرج فقل من أراد أن يسأل عن الحلال والحرام والفقه فليدخل، فخرجت فقلت لهم.. قال: فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرات فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله ثم قال: إخوانكم فخرجوا ـ ثم قال: اخرج فقل: من أراد ان يسأل عن الفرائض وما أشبهها فليدخل ـ وقال: فخرجت فاذنتهم فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرات، فما سألوه عن شيء، إلا أخبرهم به وزادهم مثله، ثم قال: إخوانكم فخرجوا، ثم قال: اخرج فقل من أراد أن يسأل عن العربية والشعر والغريب من الكلام فليدخل، قال: فدخلوا حتى ملأوا البيت والحجرات، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله، قال

(١) حلية الاولياء ج ١ ص ٣٢٤.

أبو صالح: فلو أن قريشا كلها فخرت بذاك اليوم لكان فخرًا، فما رأيت مثل هذا لأحد من الناس[1].

ولا عجب إذن أن يقول عمر حين يذكر أمامه ابن عباس: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول، ولا غرابة أيضا حين يرد ابن عباس على من يسأله: أنّى أصبت هذا العلم يا ابن عباس؟ فيجيب: لسان سؤول وقلب عقول. يشير إلى أن السؤال مفتاح العلم، وعقل القلب معناه: حافظته الواعية.

وتلك المرحلة من مسيرة التاريخ - مرحلة صدر الإسلام - دعمت اللغة العربية بنزول القرآن الكريم، فكان مصفاة ربانية أزالت عن اللغة ما علق بها من مستغرب الألفاظ واثرتها بمضامين جديدة حملتها تلك الكلمات الإسلامية التي لم تكن قد استعملت بهذا المفهوم الجديد.

ولقد كان ابن عباس - رضي الله عنه - مطبوعا على الفصاحة والبلاغة ولا غرو، فقد ورث ذلك من عشيرته وقومه ثم انصهر في بيئة أدبية صادقة البيان، فكان جنى طيبًا وثمارًا يانعةً دانية القطاف.

يروى أن أبا بكر بن الأنباري حضر مع جماعة من العدول ليشهدوا على إقرار رجل فقال أحدهم للمشهود عليه: ألا نشهد عليك؟ فقال: نعم، فشهد عليه الجماعة، وامتنع ابن الأنباري وقال: إن الرجل منع أن يُشهد عليه بقوله: نعم لان تقدير جوابه: لا تشهدوا علي - وذلك حكم (نعم) بعد الاستفهام الداخل على النفي.

ولهذا قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكم قالوا بلى﴾[2]. لو انهم قالوا نعم لكفروا لأن حكم نعم أن يرفع الاستفهام، فلو قالوا: نعم لكان التقدير: نعم لست ربنا، وهذا لغز. وإنما دل على إيمانهم قولهم: بلى

(١) حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، ج ١ ص ٣٢٨.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٧٢.

لأن معناها يدل على رفع النفي فكأنهم قالوا: انت ربنا، لأن «أنت» بمنزلة التاء التي في ألست[1].

وعن «ابن عباس» - رضي الله عنهما - قال: كان عمر يسألني مع أصحاب محمد وكان يقول لي: لا تكلم حتى يتكلمون فإذا تكلمت قال: غلبتموني أن تأتوا بمثل ما جاء به هذا الغلام الذي لم يجتمع شؤون رأسه. قال ابن ادريس: شؤون رأسه: الشيب الموجود في الرأس.

ومما لا شك فيه أن الأدب العربي في عصر أصحاب الرسول الكريم قد تلوّن بألوان جديدة لم تكن له من قبل، حيث تنوعت أغراضه وتهذبت وجدانيته واكتسبت لغته قدرة على التعبير عن تلك المعاني الرقيقة التي تهدف إلى خير البشرية وبناء أمة هي خير أمة أخرجت للناس.

ولقد كان القرآن الكريم والبيان النبوي الشريف أهم الأسس التي قامت عليها النهضة الأدبية في تلك المرحلة من تاريخ البشرية، بل هما العمود الفقري لذلك البناء الأدبي الرائع فإذا ضممنا إلى ذلك تلك الفتوحات الإسلامية الواسعة وهذا النظام الذي سارت عليه الدولة الإسلامية والمبادئ الإنسانية التي حملتها التشريعات الجديدة ورقي أذواق الأدباء والشعراء بتأثير القرآن الكريم والحديث الشريف وكذلك حكم الحكماء من أبطال الدعوة لما عجبنا لذلك التراث الضخم من الأدب الذي خلفه لنا هؤلاء الأوائل فكان لنا نورًا وضياء.

لقد نبغ في هذا العصر شعراء وأدباء وخطباء وفقهاء أورثوا الأدب واللغة رفعة وسموا وخلودا على امتداد الرقعة الإسلامية في كل عصر ومصر. من هؤلاء النوابغ، عمر الفاروق والإمام علي والشهيد عثمان بن عفان وحسان بن ثابت والنابغة الجعدي والخنساء والحطيئة وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وجعفر بن ابي طالب والعباس وغيرهم كثيرون من الدعاة المشهورين في

(١) نزهة الالباب وطبقات الأدباء ص١١٥.

البلاغة والبيان وعلوم القرآن واللغة حتى كانوا درة مضيئة وسفرا رائعا في تاريخ الأدب العربي.

وناهيك بما أضافه ابن تلك المدرسة المحمدية - ابن عباس - الحبر وبلاغته، وحبه للأدب، وتذوقه له ورعايته لأهله، وحسن توجيهه لهم، فقد كان مدررسة للأدب والعلم يقصده الأدباء والعلماء حتى أنه ليعد عصره من أعظم عصور الأدب وأبعدها اثرا في تاريخه وتطوره وتحديد أغراضه والسمو بمعانيه وتهذيب أشكاله وتجميل صوره وأساليبه.

ولم ينل ما نال ويحظى بما حظي به إلا في نور الآيات المنزلة التي كان الوحي يجيء بها تباعا والتي قضى ابن عباس بواكير حياته النضرة، يبهره نورها.. ويهزه هديرها.

يسمع آيات الجنة يتلوها النبي ﷺ فكأنما هذا الغلام الصاعد يراها رأي العين، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من جناها وثمارها.

ويسمع آيات النار، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار قاتل، ولولا جلال الموقف وروعة المشهد لولّى هاربا من لفح النار الذي يكاد يحسه ويراه. أما إذا سمع آية تصف الله في عظمته وجلاله أو آية تعاتب الناس على إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم وجحودهم فضله ونعمته.. فعندئذٍ يتحول الغلام الراشد إلى ذوب تقى وحياء!

وكان ينظر بعين الإعجاب والإكبار إلى ابن عم آخر له كان ولاؤه طوال حياته القرآن لا يقبل أدنى ميل عنه، ولا يغفر أقل تفريط فيه، إنه التلميذ الأول للقرآن وانه سابق المسلمين.

كان يسمع القرآن يتساءل في هدير ورهبة: ﴿**تلكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقِّ فبأيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وآياتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾[1].

---

(١) سورة الجاثية، الآية ٦.

فتدمع عين الفتى الأواب ابن ابي طالب من هول التساؤل وجلال الخطاب ويجيب في صيحة مكظومة: ولا بحديث غير حديثك نؤمن يا رب كل شيء!!

ويحدّق ابن عباس في ابن عمه الأواب الذي أشرب قلبه جمال القرآن وجلاله وأسراره حتى صار جديرًا بأن يقول وهو صادق:

«سلوني وسلوني وسلوني عن كتاب الله ما شئتم.. فوالله ما من آية من آياته الا وأنا أعلم أنزلت في ليل أم في نهار».

فكان الإمام الشهيد، هو القدوة والمثل أمام حبر الأمة وترجمان القرآن وهو يتحدث عن الإسلام فيقول:

«تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا فكونوا من أهله، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد أتت مقبلة.. ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

ألا وإن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطًا والتراب فراشًا، والماء طيبًا ألا وإنّ مَنِ اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومن زهد في الدنيا هانت عليه مصائبها.. ألا وإن لله عبادًا شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة أنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة.. صبروا أياما قليلة لعقبى راحة طويلة، إذا رأيتهم في الليل، رأيتهم صافين أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم.. يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما نهارهم فظلماء، حلماء بررة، أتقياء، كأنهم القداح.. ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى... وما بهم من مرض ولكن الأمر العظيم»[1].

ولقد كان ابن عباس ـ وهو الأديب المدرك لأسرار اللفظ، والفاهم لمقاصده ـ يقضي ليله ونهاره في عبادة تضني جسمه الأيّد الرقيق ويطرح الدنيا

---

(١) فضائل الإمام علي ـ لمحمد جواد مغنية ص ٨٥.

وراءه ظهريا مؤثرًا ما عند الله باحثا عن العلم في مظانه.

فعن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال: واعجبا لك يا ابن عباس!! أترى الناس يفتقرون إليك وفيهم من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت أسأل أصحاب النبي الكريم عن الحديث، فإنه كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل (من القيلولة) فأتوسد التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ هلا أرسلت إلي فآتيك!؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك فأسألك عن الحديث.

وعاش ذلك الفتى الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألونني فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني[1].

لقد ورث الفضائل كلها والمكرمات جميعها، وعلى رأس هذه المبادئ، الإيمان بالله وحسن الاعتماد عليه، وبذل النفس والنفيس في طلب العلم، والأخذ عن أصحاب رسول الله ﷺ ولذا كان يلقب بالإمام الحبر البحر بدر الأحبار، وفخر الفخار، قطب الأفلاك وعنصر الأملاك، مفسر التنزيل ومبين التأويل[2].

وكان ابن عباس ـ كذلك ـ فصيحا ألمعيًا مجتهدًا، عالمًا في الرواية، يتردد على بيوت الأنصار والمهاجرين، حتى نال من ذلك قسطا كبيرًا من المعرفة، وشهد له أصحاب رسول الله بالتقدم في القرآن والسنة والفقه والأدب والبلاغة واللغة.

ولقد عاش ـ رضي الله عنه ـ بعد ابن مسعود خمسًا وثلاثين سنة تشد إليه

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ٨٥ وعلوم الحديث ص ١٠٩.

(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ص ١٠٠٥.

الرحال للفتوى والرواية لم يخامره فيها شيء من كبر، بل كان متواضعًا جمَّ التواضع محترمًا للعلماء عالما بأقدارهم.

أخذ مرة بركاب (زيد بن ثابت) فقال زيد: لا تفعل يا ابن عباس!! فقال له: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال له زيد: أين يداك؟ فأخرج يديه فقبلهما، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا! وقال سعد بن أبي وقاص: ما رأيت أحدًا أحضر فهمًا ولا ألبَّ لُبًّا ولا أكثر علمًا ولا أوسع حلمًا منه[1].

وقال عبيدالله بن عبدالله بن عنبر: ما رأيت أحدًا أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول الله - ﷺ - وقضاء أبي بكر وعمر وعثمان، ولا أفقه منه ولا أعلم بتفسير القرآن، و بالعربية والشعر والحساب والفرائض، وكان يجلس يوما للفقه، ويومًا للتأويل، ويومًا للمغازي، ويومًا للشعر، ويومًا لأيام العرب.. وما رأيت قط عالما جلس إليه إلا خضع له، ولا سائلا سأله إلا وجد عنه علما[2].

وقال ابن عيينة: الناس ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، وكان ذلك ببركة دعاء الرسول ﷺ له.. وقد استجاب الله دعاءه.

وجمع محمد بن موسى فتاويه في عشرين جزءًا، وكان في تفسيره للقرآن، وإظهار ما فيه من التأويل والعلوم معدوم النظير، حتى قيل في تفسيره «لو سمعه أهل الروم والديلم لأسلموا».

وروي أن نافع بن الأزرق، ونجدة بن عويمر خرجا في نفر من الخوارج يطلبون العلم فدخلا مكة، فإذا بابن عباس عند زمزم يسأله الناس في التفسير

(١) حلية الأولياء ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ص ٧٩.

وهو يجيبهم فسأله نافع عن آيات في القرآن، وعن كلمات فيها قائلاً: وهل تعرف العرب ذلك قبل أن ينزل الكتاب؟ فيقول له: نعم، وينشده بيتا من الشعر، حتى شهد له هو وأصحابه وانصرفوا.

وقد روى ابن عباس عن علي وعمر وأبي ذر وغيرهم، وروى عنه من الصحابة والتابعين، نذكر منهم ابن عمر وانس بن مالك، وسهل بن حنيف، ومولاه عكرمة. وحين مات ابن عباس وكان مولاه عكرمة ما يزال على الرق، فباعه ولده علي لخالد بن يزيد بأربعة آلاف دينار، فقال عكرمة: خير لك؟! بعت علم أبيك بأربعة آلاف دينار!! فاستقاله، فأقاله خالد فأعتقه علي.

ولما كان ابن عباس يجلس في مواسم الحج ينشر تفسيره حمله عنه العدل والمجروح، أما الأسانيد في تفسيره فطرقها كثيرة، فمن جيدها عنه ما يلي:

أولا: طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي، وكانت نسخة التفسير من هذا الطريق بمصر عند أبي صالح كاتب الإمام الليث، يرويها عن علي بن أبي طلحة معاوية بن صالح، ويرويها عن معاوية ـ كاتب الليث ـ وهذا الطريق اعتمده الإمام البخاري في صحيحه كثيرًا فيما يعلقه عن ابن عباس، وفيها يقول أحمد: «بمصر صحيفة في التفسير، رواها علي بن أبي طلحة لو أن رجلاً رحل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرًا».

وأخرج منها ابن جرير، وابن أبي حاتم وابن المنذر كثيرا بوسائط بينهم وبين أبي صالح، والقول بأن ابن أبي طلحة لم يسمعها من ابن عباس وانه سمعها من مجاهد أو من ابن جبير لا يضر في صحة نسبتها لابن عباس ما دام الراوي عنه ثقة كما ذكره ابن حجر[1].

ثانيا: طريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عنه، وهذا الطريق على شرط الشيخين، خرّج منها الحاكم في مستدركه.

---

(١) المختصر في علم رجال الأثر ص ٩٥، وانظر الإصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ٨٩.

ثالثا: طريق ابن اسحق عن محمد بن أبي محمد، مولى آل زيـد بن ثابت عن عكرمة أو ابن جبير عنه، وهذا الطريق حسن، وأخرج من ابن جرير وابن أبي حاتم كثيرا.

وأوهى طرقه في التفسير:

أولا: طريق الكلبي عن أبي صالح عنه، فإذا روى عن الكلبي محمد بن ودان قيل لهذه السلسلة: سلسلة الكذب، وخرج من هذا الطريق الثعلبي والواحدي.

ثانيا: طريق الضحاك بن مزاحم، وهي منقطعة لأنه لم يلق ابن عباس وأخرج منه ابن جرير أيضا وابن أبي حاتم كثيرا، وأصح اسانيده في الحديث كما ذكره النسائي: ما رواه «الزهري» عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس[1].

إن الآخرة عند حبر الأمة، هي الدار.. هي الأبد، وما أهل الدنيا في شتى العصور والدهور إلا سائرون فوق جسر.. كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية حيث الجنة أو النار، فلنستمع لكلماته الضارعة إلى الله في بأسه وشدته:

حدثنا محمد بن أحمد بن مخلد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا أتيت سلطانا مهيبا تخاف أن يسطوَ عليك فقل: الله أكبر، الله أعز من خلقه جميعا، الله أعز مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله إلا هو الممسك للسموات السبع أن تقع على الأرض إلا بإذنه من شر عبده فلان وجنده واتباعه وأشياعه من الجن والإنس.. اللهم كن لي جارا من شرهم جل ثناؤك، وعز جارك وتبارك اسمك ولا إله غيرك. (ثلاث مرات)[2].

---

(١) المختصر في علم رجال الأثر ص ٩٨. .

(٢) حلية الأولياء ج ١ ص ٣٢٩، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٤٢.

وابن عباس بإسلامه، وفي إسلامه لا يتغير... إن تقوى الله تأخذ عليه لُبّه.. فهو دائماً صاحب الولاء لله الواحد القهار!!

فقد روي عنه قوله: من قال: بسم الله. فقد ذكر الله - ومن قال: الحمد لله فقد شكر الله، ومن قال: الله أكبر - فقد عظم الله، ومن قال: لا إله إلا الله فقد وحد الله، ومن قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقد أسلم واستسلم وكان له بهاء وكنز في الجنة[1].

وحدثنا حبيب.. حدثنا أبو مسلم.. حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه: أن ابن عباس كان يأخذ الحبة من الرمان فيأكلها، فقيل له: يا ابن عباس، لم تفعل هذا؟ قال: إنه بلغني أنه ليس في الأرض رمانة تلقح إلا بحبة من حب الجنة، فلعلها هذه.

وعن معاوية بن صالح عن عكرمة عن ابن عباس أنه تغذى عند ابن الحنفية وذلك بعدما حجب بصره، قال: فوقعت على خواننا جرادة فأخذتها فدفعتها إلى ابن عباس وقلت: يا ابن عم رسول الله ﷺ وقعت على خواننا جرادة، فقال لي: يا عكرمة.. قلت لبيك، قال: هذه كأنما مكتوب عليها: إني انا الله لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي - الجراد جند من جندي أسلطه على من أشاء من عبادي - أو قال: أصيب به من أشاء من عبادي[2].

وهكذا حمل ابن عباس إسلامه وخوفه من الله بين جنبيه، وتحت ضلوعه، وفي أعماق روحه، ومضى يستصغر شأن الدنيا بكل ترفها وزينتها. فهو يقول: يا صاحب الذنب لا تأمن من سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، فإن قلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب وفرحك بالذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص٢١٨.

(٢) العقد الفريد ج٣ ص٣٠٩ - رواه مسلم في صحيحه ج٨ ص١٤٠.

حركت ستر بابك وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا عملته ويحك.. هل تدري ما كان ذنب أيوب ـ عليه السلام ـ أنه استعان به مسكين على ظلم يدرؤه عنه فلم يعنه، ولم يأمر بمعروف وفيه الظالم عن ظلم هذا المسكين، فابتلاه الله عز وجل[1].

كان ابن عباس شديد الخوف على حياته الطيبة أن تغيرها خطيئة او تعيبها شبهة لأنها لو كانت ملكًا له لوجب عليه أن يربأ بها عن كل سوء، فكيف وهي في تقديره ليست حياته، وليست ملكه، إنما هي وديعة الله عنده، ولسوف يسأله عنها ﴿أَفَحَسِبْتُم أنَّما خلَقْناكم عَبَثًا وأنكم إلينا لا تُرجعون﴾[2] فلقد أصابته رجفة شديدة لأن أناسا كانوا يختصمون ويتجادلون في القدر فماذا فعل؟!

فعن وهب بن منبه قال: أخبر ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن قومًا عند باب بني سهم يختصمون، أظنه قال: في القدر، فنهض إليهم وأعطى محجنه «عكرمة» ووضع إحدى يديه عليه، والأخرى على (طاوس) فلما انتهى إليهم أوسعوا ورحبوا به فلم يجلس، قال أبو شهاب في حديثه، فقال لهم: انتسبوا حتى أعرفكم!!.. فانتسبوا له، أو من انتسب منهم، فقال: أوَعلمتم أن لله تعالى عبادا أصمتتهم خشيته من غير بكم ولاعيّ، وأنهم لهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء.. العلماء بأيام الله ـ عزّ وجل ـ غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله ـ عز وجل ـ طاشت لذلك عقولهم وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استفاقوا من ذلك تسارعوا إلى الله ـ سبحانه ـ بالأعمال الزاكية، وزاد عبد الرحمن بن مهدي في حديثه.. يعدون أنفسهم مع المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء ومع الظالمين والخطائين، وإنهم لأبرار برءاء إلا أنهم لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون له القليل، ولا يدلون عليه بالأعمال، هم

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص ٣٠١.

(٢) سورة المؤمنون، آية ١١٥.

حيثما لقيتهم مهتمون مشفقون وجلون خائفون ـ قال: وانصرف عنهم فرجع إلى مجلسه[1].

كان ولاء ابن عباس دائما للحق.. ولقد تعلم ذلك من قدوة سلفت، طالما كان يلهج بها ذاكرا ومذكرا، تلك القدوة التي لم تغب عن خاطره لحظة من ليل أو نهار والتي عبر عنها وذكرها عن أبيه عن قس بن ساعدة!!.

أخبر علي بن الحسين بن إسماعيل الفقيه قال: حدثنا مهدي بن سابق عن عبدالله بن عباس عن أبيه قال[2]: جمع قس بن ساعدة ولده فقال: إن من عيرك شيئا ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه، ومتى عدلت على نفسك عدل عليك من فوقك، وإذا نهيت عن شيء فَأْتهِ نفسك، ولا تجمع ما لا تأكل، ولا تأكل ما لا تحتاج إليه، وإذا ادخرت فلا يكن كنزك إلا فعلك وكن عفَّ العيلة [الفقر] مشترك الغنى، تسد قومك، ولا تشاورن مشغولاً وان كان حازمًا، ولا جائعًا وإن كان فهمًا، ولا مذعورًا وإن كان ناصحًا ولا تضعـن في عنقك طوقًا لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك، وإذا خاصمت، فاعدل، وإن قلت فاقتصد، ولا تستودعَنَّ أحدًا دينك وإن قربت قرابته فإنك إذا فعلت ذلك لم تزل وجلاً، وكان المستودع بالخيار في الوفاء والغدر، وكنت له عبدًا ما بقيت، وإن جنى عليك كنت أولى بذلك، وإن وفى كان الممدوح دونك.

---

(١) العقد الثمين ١٩/٥ ـ وأبناء نجباء الأبناء ص ٧٩ ـ ٨١.

(٢) المصون في الأدب ص ٩٨.

ابن عباس... مفسرًا

كان ابن عباس واحدًا من الرجال في مدرسة معلم الإنسانية، الذين تأثروا بثقافة القرآن، ووعوا تعاليمه، وعكفوا عليه تلاوة وحفظا وفهمًا ووعيًا لآياته المكية والمدنية وعناية.. بأسباب نزوله.

وعلى كل دارس لتاريخ ابن عباس وثقافاته أن يقف وقفة متأنية أمام هذا الفيض الرباني الصافي، الذي غذى المواهب وفجر العبقريات ونمى ثقافة القوم، ونعني به ـ القرآن الكريم ـ وقد نزل منذ بدايته مطلع حياة جديدة، كانت تنتظرها الدنيا في شوق ولهفة، ويرنو إليها الزمن في رجاء وأمل، فلما دنت هشت لها الإنسانية في تفاؤل واطمئنان، واستمدت من نفح القرآن بشائر صادقة، وأملا موصولاً، وطموحًا إلى نجح غير محدود.

وشاءت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يجعل إشراقة هذه الحياة في كلمات يسيرة من كتابه نزلت على النبي ﷺ فأخذت مأخذها من نفسه رهبة وإجلالا، واستأثرت بمشاعره تقديرًا وإدراكا، واهتزت لها وجدانه خشية وإيمانا، وابتهجت روحه تعلقا بما أوحى إليه، وتهيأت عزيمته لحمل ما يلقى عليه... هي كلمات قليلة في لفظها، قيّمة في مفهومها... هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(١) فهذا أمر علوي بالقراءة لمن لم يكن يقرأ، ولا تعلم القراءة فكيف تكون المهابة والروعة لهذه المفاجأة...

مفاجأة هبط بها من سماوات الله جبريل، أمين الله، على النبي الأمي، محمد ابن عبدالله، وهو في عزلة عن الناس، وفي غار سحيق، برأس الجبل في وحشة ليل مظلم، وفي ليلة ذات قدر عند الله... إنها رسالة الله الخاتمة، يتخير لها من الأزمنة والأمكنة، والأشخاص ما يشاء بحكمته، ﴿والله أعلَمُ حيثُ يجعلُ رسالَتَه﴾(٢).

---

(١) سورة العلق الآية الاولى.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٢٤.

هذا أمر بالقراءة، اقتضى البدء بتسمية الله، دون شيء قبل هذا.. وذلك البدء فيه غرس لعقيدة الإيمان بالله، وتوحيده بالألوهية، وتخصيصه بصفة الربوبية... وفي حكم الفطرة وبداهة العقل ألا يكون شيء مذكور قبل اسمه تعالى كما لم يكن شيء مشابه له في خصائصه تعالى.

فليكن توجيه الله في استهلال القرآن إيقاظًا للمشاعر نحو عظمة الله وتنبيها إلى الاستعانة به والاعتماد عليه بأن نذكر اسمه أول كل شيء نريده. فهو الذي خلق، وخلق ماذا؟ خلق كل شيء لمن؟ للإنسان. خلق الإنسان من علق، فكل ما في الكون للإنسان يخدمه، والوسيلة إلى ذلك هي العلم، والعلم مفتاحه القراءة والقلم آلة الكتابة... والحديث يطول، لكنها لمحات تشع نورا، تفصيلها مطوي في الأمر بالقراءة والإشادة بالعلم والتعلم.

ومن هنا نجد أن المعايشة مع معلم الإنسانية أثرت في فكر ابن عباس، فكان حريصًا على أن يحفظ ويضبط الأقوال مع علم وفهم ووعي وبلاغة، ولم لا؟ وقد دعا له الرسول الكريم: اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن.

ويؤكد كثير من مفكري الإسلام أن ابن عباس أول المفسرين وبالتالي رائد الدراسات اللغوية في النصوص العربية، ووصف بأنه [ترجمان القرآن][1].

ويروى أن عمر بن الخطاب كان يقدم ابن عباس صبيًّا على كبار الصحابة، تقديرًا لذكائه الحاد ومعارفه الواسعة الأمر الذي دعا معاصريه أن يمدحوه:

وأبو الفضل وابنه الحبر عبدالله إن عيَّ بالرئْي الفقهاء[2]

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٢٠.

(٢) القصيدة للشاعر عبد الله بن قيس الرقيات، وجاء في شرح السكري، بأن الابن المقصود هو عبد الله بن العباس، وكلمة «الرئي» تعني الرأي وعلى هذا يكون بينهما قلب مكاني.

ولعلنا نستطيع أن نقول: إن قضية علم ابن عباس بالفقه والتفسير ومعرفته بتاريخ الجاهلية وآثارها وباللغة والشعر حين توضع على مائدة الدراسة والبحث، ترتبط بعدة قضايا تتصل بالتراث العربي.

من هذه القضايا، وجود تراث عربي مدون في الجاهلية - ومنها قضية اشتغال بعض شباب الصحابة وكبار التابعين بقضايا علمية، ومنها كذلك، الارتباط بين هذا النشاط العلمي المبكر والتطور العام لحركة التأليف بالعربية.

وقد أوضحنا أن الشك في اشتغال ابن عباس بمجالات العلم المختلفة ليس له ما يبرره، فاعتمادا على التفاسير التي وصلت إلينا لتلاميذ ابن عباس، واعتمادا على أنه من الممكن إعادة تكوين الكتب الأقدم - المفقودة - بصورة جزئية أو كاملة، ببحث الأسانيد التي وصلت إلينا في المراجع المتاحة، نستطيع أن نكون صورة تختلف عن الصورة السائدة إلى الآن. وفي الحقيقة أنه في الإمكان جمع مادة تفسير ابن عباس برواية علي بن أبي طلحة اعتمادًا على حوالي ألف نص عند الطبري، وذلك للمتخصصين في تفاسير القرآن الكريم.

وكان تفسير ابن عباس موضع تقدير الإمام ابن حنبل، وقد وجدت منه في عصر ابن حنبل نسخة في مصر كانت تشد إليها الرحال طلبا لإجازة بتفسير ابن عباس[1].

وكان تفسير القرآن لعبدالله بن عباس - في رأي المفكرين - أول محاولة للشرح اللغوي ويمكن أن يوصف هذا العمل بأنه في علم المفردات: وهو بهذا يعتبر أول دراسة في علم المفردات عند المسلمين، ثم وسع تلاميذ ابن عباس بعد ذلك هذه الدراسات، ومن هؤلاء: مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك.

وتدلنا دراسة تفاسير هذا الجيل من الصحابة والتابعين، على أن ابن عباس

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ٩١.

لم يكن وحده في الأخذ بمنهج شرح الكلمات الصعبة في القرآن بشواهد من الشعر، وفوق هذا وذاك، فهناك أسباب أخرى تجعلنا لا نتفق مع [جولد زيهر] في اعتبار هذا العمل مجرد قصة من قصص الكرامات، فابن عباس شرح المائتي كلمة تقريبا - التي قدمها له نافع بن الأزرق أحد زعماء الخوارج بشواهد من الشعر الجاهلي[1].

ونحن بصدد تفسير ابن عباس - رضي الله عنهما - رأينا من الضروري أن يوضح البحث نوعين من كتب التفسير، فهناك كتب في التفسير رواها تلاميذ ابن عباس عنه بعد ان كتبها بنفسه.. وهناك تفاسير دونها تلاميذه عنه، والمؤكد أن التفسير الذي رواه علي بن أبي طلحة الهاشمي (المتوفى ١٢٠هـ - ٧٣٧م) منسوبا إلى ابن عباس هو من تدوين ابن عباس نفسه، وذلك لأن علي بن أبي طلحة قد جرح لروايته هذا التفسير دون أن يكون قد أخذه سماعا عن ابن عباس. وهناك بقايا من هذا التفسير يبدو أنها كانت في التفاسير المبكرة التي وصلت إلينا على نحو غير مباشر: مثل تفسير السدّي. ويبدو أن تفسير عبدالله بن عباس قد وصل إلينا كاملا بالرواية التالية - في تفسير الطبري[2] حدثني المثنى بن ابراهيم الآملي - المتوفى بعد سنة ٢٤٠هـ - ٨٥٤م - قال: حدثنا عبدالله بن صالح - المتوفى سنة ٢٢٣ هـ - ٨٣٧م - قال: حدتنا معاوية بن صالح المتوفى سنة ١٥٨هـ - ٧٧٤م - عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس..

ويبدو أن الطبري قد أخذ النصف الأول تقريبا بهذه الرواية، وأما النصف الثاني فقد أخذه برواية شيخ آخر هو علي بن داود التميمي - المتوفى سنة ٢٦٢هـ - ٨٧٥م.

ولقد جمع محمد فؤاد عبد الباقي أجزاء من صحيح البخاري بعنوان

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) انظر كتاب التراث العربي - فؤاد سزكين ص ٤٥ - ٤٦.

«معجم غريب القرآن» مستخرجا من صحيح البخاري وفيه كثير من النصوص التي كان البخاري قد أخذها من كتاب ـ مجاز القرآن ـ لأبي عبيدة.

وهناك تفاسير وصلت إلينا بعنوان (تفسير ابن عباس) واكثرها بتهذيب محمد بن السائب الكلبي.. روايتها عن ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

وهناك مجموعة نصوص جمعها مجد الدين بن يعقوب الفيروزابادي ـ المتوفى سنة ٨١٧هـ ـ ١٤١٥م ـ بعنوان (تنوير المقياس من تفسير ابن عباس)[١].

ومن هذا يتضح أن ابن عباس كان من الأوائل الذين ساهموا في أن يجعل للعقل المسلم منهجا في شرح كلام الله للناس حتى يفقهوه ويستضيئوا بهديه، ويسيروا على نوره في هدى وتوفيق وأمان. وعن الحسن: كان ابن عباس يقوم على منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران ويفسرهما آية، آية.

وعن مسروق قال: نعم ترجمان القرآن ابن عباس[٢]..

وروى عبيدالله بن عبدالله بن عتبة: ما رأيت أحدا أعلم بتفسير القرآن من ابن عباس[٣].

ابن عباس.. ومكانته في التفسير..

نستطيع أن نتبين نبوغ ابن عباس وقيمته العلمية ومكانته في التفسير من قول تلميذه مجاهد «انه اذا فسر الشيء رأيت عليه النور»، ومن قول الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ يثني عليه في تفسيره «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق». ومن قول ابن عمر «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد». ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه في فهم ما أشكل عليهم من

(١) طبع بولاق ـ القاهرة ١٣٠٢ هـ.
(٢) صفة الصفوة لابن الجوزي ج ١ ص ٩٠.
(٣) انظر الاصابة ١٩٣/٣. وانظر ابن جرير ج ٢٠ ص ٤٣.

كتاب الله، فكثيرا ما توجه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عز عليهم فهمه من كتاب الله تعالى. ففي قصة موسى مع شعيب أشكل على بعض أهل العلم، أي الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين أو أنه أتم عشرا؟ ولما لم يقف على رأي يمم شطر ابن عباس الذي هو بحق ترجمان القرآن ليسأله عما أشكل عليه، وفي هذا يروي الطبري في تفسيره، عن سعيد ابن جبير قال: « قال يهودي بالكوفة ـ وأنا أتجهز للحج ـ: اني أراك رجلا تتبع العلم، فأخبرني أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب ـ يعني ابن عباس فسائله عن ذلك، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرني بقول اليهودي، فقال ابن عباس « قضى اكثرهما وأطيبهما، وأن النبي اذا وعد لم يخلف، وقال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودي فأخبرته، فقال: صدق وما أنزل على موسى هذا والله العالم »[١].

وهذا عمر ـ رضي الله عنه ـ يسأل الصحابة عن معنى آية من كتاب الله، فلما لم يجد عندهم جوابا مرضيا رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره، وفي هذا يروي الطبري « أن عمر سأل الناس عن هذه الآية، يعني ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..﴾[٢].

فما وجد أحدا يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين اني أجد في نفسي منها شيئا، فتلفت إليه فقال: تحول ههنا، لم تحقر نفسك؟ قال: هذا مثل ضربه الله ـ عز وجل ـ فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى اذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فني عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه »[١].

---

(١) أنظر ابن جرير ج ٢٠ ص ٤٣.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٦٦.

(٣) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ١٤٧.

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾[1]. وجوابه المشهور عنه سبق أن أشرنا إليه يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفيّ المعاني التي يشير إليها القرآن، ولا يدركها إلا من نفحه الله بنفحة من روحه، وكثيرا ما ظهر ابن عباس في المسائل المعقدة في التفسير بمظهر الرجل الملهم الذي ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كما وصفه الإمام علي - رضي الله عنهما - الأمر الذي جعل الصحابة يقدرون ابن عباس - رضي الله عنهما - ويثقون بتفسيره، ولقد وجد هذا التقدير صداه في عصر التابعين فكانت هناك مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس، استقرت هذه المدرسة بمكة، ثم غذت بعلمها الأمصار المختلفة وما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين اعجابا وتقديرا، الى درجة أنه اذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر. وقد صرح الزركشي بأن قول ابن عباس مقدم على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم في التفسير[2].

ابن عباس.. وأهل الكتاب...

ويقرر المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي[3] أن ابن عباس - رضي الله عنهما - كان كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجعون في فهم معاني القرآن إلى ما سمعوه من رسول الله ﷺ والى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة بمعرفة أسباب النزول والظروف والملابسات التي نزل فيها القرآن. وكان - رضي الله عنه - يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والانجيل في كثير من المواضع التي أجلت في القرآن وفصلت في التوراة أو الانجيل، ولكن نستطيع

---

(١) سورة النصر، آية ١.

(٢) انظر الاتقان ج ٢ ص ١٨٣.

(٣) انظر التفسير والمفسرون بقلم د. الذهبي ج ١ ص ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣.

أن نقول ان الرجوع إلى أهل الكتاب كان في دائرة محدودة ضيقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك مما يتنافى مع القرآن ولا يتفق مع الشريعة الاسلامية، فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

ابن عباس... وبعض المستشرقين وأحمد أمين..

ويمضي الدكتور الذهبي في بحثه فيقرر بأنه وجد في كتاب (المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن) مبلغ اتهام مؤلفه (جولد زيهر) لابن عباس بتوسعه في الأخذ عن أهل الكتاب، مخالفا ما ورد عن النهي عن ذلك في حديث رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس، ثم نرد عليه.

(قال: وكثيرا ما يذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أي ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدي، الذي أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبي يقرأ القرآن في كل سبعة أيام، ويختم التوراة في سنة، يقرؤها نظرا فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن ان يبين لنا مكان الأب في الاستفادة من التوراة..

(ومن بين المراجع العلمية المفضلة عند ابن عباس، نجد أيضا كعب الأحبار اليهودي، وعبدالله بن سلام، وأهل الكتاب على العموم، ممن حذر الناس منهم، كما أن ابن عباس نفسه في أقواله حذر من الرجوع إليهم، ولقد كان اسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكذب، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم.. ولم تكن التعاليم الكثيرة التي أمكن أن يستقيها ابن عباس، والتي اعتبرها من تلك الأمور التي يرجع فيها إلى أهل هذا الدين الآخر، مقصورة على المسائل الانجيلية والاسرائيلية، فقد كان يسأل كعبا عن التفسير الصحيح لأم القرآن وللمرجان مثلا، وقد رأى الناس في هؤلاء اليهود أن عندهم

أحسن الفهم على العموم - في القرآن وفي كلام الرسول ﷺ وما فيهما من المعاني الدينية، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد - من كل جهة - من سؤالهم)[١].

هذه هي عبارة - جولد زيهر - في كتابه، ومنها يتضح لنا مبلغ تجنيه على الصحابة وعلى ابن عباس على الأخص.

وقد تابعه الاستاذ أحمد أمين على هذا الرأي، حيث يقول في فجر الإسلام (وقد دخل بعض هؤلاء اليهود في الاسلام، فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت في تفسير القرآن يستكملون بها الشرح، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم. روي أن النبي - ﷺ - قال «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم». ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا يصدقونهم وينقلون عنهم)[٢].

فالأستاذ جولد زيهر، والأستاذ أحمد أمين، يريان أن الصحابة - وبخاصة ابن عباس - لم يأبهوا لنهي الرسول ﷺ، فصدقوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير في التفسير، وأن اللون اليهودي قد صبغ مدارس التفسير القديمة وبالأخص مدرسة ابن عباس، بسبب اتصالهم بمن دخل في الاسلام من أهل الكتاب.

والرد على هذا الاتهام سهل ميسور.. والحق أن هذا غلو في الرأي، وبعد عن الصواب، فابن عباس - وكثير من الصحابة - كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شيء يمس بالعقيدة، أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، وانما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية، ولم يكونوا يقبلون كل ما يروى لهم على أنه

---

(١) انظر المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ص ٦٥ - ٦٧. للمستشرق جولد زيهر.

(٢) أنظر فجر الاسلام ص ٢٤٨.

صواب لا يتطرق إليه شك، بل كانوا يحكمون دينهم وعقلهم، فما اتفق مع الدين والعقل صدقوه، وما خالف ذلك نبذوه، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقفوا فيه، وبهذا المسلك يكون الصحابة قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج). وقوله: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم)، فان الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث والأخبار، كما فيها من العظة والاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: (فان فيهم أعاجيب).

والثاني محمول على ما اذا كان المخبر به من قبلهم محتملا، ولم يقم دليل على صدقه ولا على كذبه. لأنه ربما كان صدقا في نفس الأمر فيكون في التكذيب به حرج، وربما كان كذبا في نفس الأمر فيكون في التصديق به حرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، كما أفاده ابن حجر ونبه عليه الشافعي - رضي الله عنه -[1]

ثم كيف يستبيح ابن عباس - رضي الله عنهما - لنفسه أن يحدث عن بني اسرائيل بمثل هذا التوسع الذي يجعله مخالفا لأمر رسول الله ﷺ وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس نكيرا على ذلك، فقد روى البخاري في صحيحه عنه أنه قال: «يا معشر المسلمين: تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرأونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[2].

أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا رجلا منهم

---

(١) أنظر فتح الباري ج ٨ ص ١٢٠.

(٢) سورة البقرة، آية ٧٩.

قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم[1].

ابن عباس... والشعر القديم

كان ابن عباس - رضي الله عنهما - يوضح معاني الألفاظ التي وردت في القرآن بالرجوع إلى الشعر الجاهلي، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق في فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربي القديم، ليستعان به على فهم معاني الألفاظ القرآنية، فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى في الآية (٤٧) من سورة النحل ﴿أَوْ يَأْخذَهُم على تَخَوُّفٍ﴾، فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التخوف، التنقص، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟. فيقول له: نعم

ويروي قول الشاعر:

تخوّف الرّحل منها تامكًا قَرِدًا   كما تخوَّف عودَ النبعةِ السَّفَنُ

فيقول عمر - رضي الله عنه - لأصحابه: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فان فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم[2].

غير أن ابن عباس، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيرا ما كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد روي عنه الشيء الكثير من ذلك، وأوعب ما روي عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وقد بلغت مائتي مسألة، وهي تدل على قوة ابن عباس في معرفته بلغة العرب، والمامه بغريبها، الى حد لم يصل إليه غيره مما جعله - بحق - امام التفسير في عهد الصحابة، ومرجع المفسرين في الأعصر التالية للعصر الذي وجد فيه، وزعيم

---

(١) انظر البخاري في كتاب الشهادات ج ٥ ص ١٨٥ من فتح الباري.

(٢) انظر القصة في الموافقات ج ٢ ص ٨٨. وانظر الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ١١٩.

هذه الناحية من التفسير على الخصوص، حتى لقد قيل في شأنه «انه هو الذي أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن»[1].

هذا وقد بين لنا ابن عباس - رضي الله عنهما - مبلغ الحاجة إلى هذه الناحية في التفسير، وحض عليها من أراد أن يتعرف على غريب القرآن، فقد روى أبو بكر بن الأنباري عنه أنه قال: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه»[2].

وروى ابن الأنباري عنه أيضا أنه قال: «اذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فان الشعر ديوان العرب»[3].

فابن عباس - رضي الله عنهما - كان يرى رأي عمر في ضرورة الرجوع الى الشعر الجاهلي، للاستعانة به على فهم غريب القرآن بل وكان أكثر الصحابة الماما بهذه الناحية وتطبيقا لها.

وقد استمرت هذه الطريقة الى عهد التابعين ومن يليهم الى أن حدثت خصومة بين متورعي الفقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقة، وقالوا: ان فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن[4] وقالوا: كيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم في القرآن والحديث.

والحق أن هذه الخصومة التي جدّت في الأجيال المتأخرة لم تقم على اساس، فالأمر ليس كما يزعمه أصحاب هذا الرأي من جعل الشعر أصلا للقرآن، بل هو في الواقع، بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى

---

(١) انظر المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ٦٩.

(٢) انظر الاتقان ج ١ ص ١١٩.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر مقدمة نفسير الامام النيسابوري فقد صرح بذلك ج ١ ص ٦.

يقول: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[1] وقال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[2].

ولهذا لم يتحرج المفسرون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشعر الجاهلي للاستشهاد به على المعنى الذي يذهبون إليه في فهم كلام الله تعالى.

ابن عباس.. وحقيقة التفسير المنسوب إليه

هذا، وقد نسب إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - جزء كبير في التفسير، وطبع في مصر مرارا باسم «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي الشافعي، صاحب القاموس المحيط.

وعندما تطالع هذا التفسير تجد أن جامعه يسوق عند الكلام عن البسملة الرواية عن ابن عباس بهذا السند «أخبرنا عبدالله الثقة بن المأمون الهروي قال: أخبرنا أبي قال: أخبرنا أبو عبدالله محمود بن محمد الرازي قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي قال: أخبرنا علي بن اسحق السمرقندي عن محمد ابن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وعند تفسير أول البقرة تجده يسوق الكلام باسناده إلى عبدالله بن المبارك. قال: حدثنا علي بن اسحاق السمرقندي عن محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وفي مبدأ كل سورة يقول: وباسناده عن ابن عباس..

... وهكذا يظهر لنا جليا، أن جميع ما روي عن ابن عباس في هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدي الصغير عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس وهذه أوهى الطرق، والكلبي مشهور بالتفسير وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشيع كما قال ابن عدي في الكامل ومع ذلك فان وجد من قال: رضوه في التفسير فقد وجد من قال: أجمعوا على

---

(١) سورة الزخرف، آية ٣.

(٢) سورة الشعراء، آية ١٩٥.

ترك حديثه، وليس بثقة ولا يكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع[1].

وممن يروي عن الكلبي، محمد بن مروان السدي الصغير وقد قالوا فيه: إنه يضع الحديث، وذاهب الحديث متروك، ولهـذا قال السيوطي في الاتقان « فان انضم إلى ذلك - أي طريق الكلبي رواية محمد بن مروان السدي الصغير، فهي سلسلة الكذب »[2].

وهذه هي أشهر الطرق عن ابن عباس، صحيحها وسقيمها وقد عرفنا قيمة كل طريق منها، ومن اعتمد عليها فيما جمع من التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقد روى من طريق ابن عبد الحكم قال: « سمعت الشافعي يقول: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير الا شبيه بمائة حديث »[3].

وهذا الخبر - ان صح عن الشافعي - يدلنا على مقدار ما كان عليه الوضاعون من الجرأة على اختلاق هذه الكثرة من التفاسير المنسوبة إلى ابن عباس.

وعلى العموم فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويعلم ولم يشتغل بالامارة الا قليلا لما استعمله الإمام علي على البصرة. والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربي بأكمل معانيه علما وفصاحة، وسعة اطلاع في نواح علمية مختلفة لا سيما فهمه لكتاب الله تعالى وخير ما يقال فيه ما قاله ابن عمر رضي الله عنه (ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد)[4].

وهذه نماذج من تفسير ابن عباس - رضي الله عنهما -:

---

(١) انظر تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١١١ والتفسير - معالم حياته - منهجه اليوم ص ٩.

(٢) انظر الاتقان ج ٢ ص ١٨٩.

(٣) انظر الاتقان ج ٢ ص ١٨٩.

(٤) انظر أسد الغابة ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٥.

١ - من الحقائق المسلم بها أنه قلما تمر آية في التنزيل الحكيم إلا ولابن عباس تفسير لها يعلم هذا من له فهم واطلاع على التفاسير، خاصة التفاسير التي تلتزم بمنهج تفسير القرآن بالمأثور عن رسول الله - ﷺ - أو عن احد من مدرسته، وكيف لا يكون لابن عباس في كل آية تفسير.. وقد ذكر ابن أبي مليكة: رأيت مجاهدا يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب. قال: حتى سأله عن التفسير كله. وقول مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته الى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها؟.. لذلك كان من العسير أن ننقل في هذا البحث جميع ما روي عن ابن عباس في تفسير كتاب الله الكريم.

غير أن ذلك لا يعفينا من أن نذكر طرفا مما روي عن ابن عباس في التفسير، لتتكامل الدراسة عنه في مضمار الأدب والبلاغة ونلتزم - إن شاء الله - ما نقل عنه نقلا صحيحا سواء أكان ذلك في صحيح البخاري أو غيره من المراجع الصحيحة.

٢ - ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية، فتأثموا أن يتّجروا في الموسم، فنزلت «ليس عليكم جناح» الآية. في مواسم الحج[٢].

٣ - قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿ما ألفينا﴾[٣] قال: يعني وجدنا. قال: وهل تعرف العرب ذلك. قال: نعم. أما سمعت قول نابغة بني ذبيان:

فحسبوه فألفوه كما زعمت تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد

(١) سورة البقرة، آية ١٩٨.

(٢) البخاري ٥/١٥٥.

(٣) سورة البقرة، آية ١٧٠.

٤ - ﴿يَا أيُّها الّذين آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصَ فِي القَتْلَى...﴾[1]

عن مجاهد قال: سمعت ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: كان في بني اسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عليكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى: الحُرُّ بِالحُرِّ والعَبْدُ بِالعَبْدِ، والأُنْثَى بِالأُنْثَى، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾[1] فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ﴿فاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[1] يتبع بالمعروف ويؤدي باحسان، ﴿ذلكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[1] مما كتب على من كان قبلكم، ﴿فمن اعتَدَى بَعْدَ ذلكَ فَلَهُ عَذَابٌ أليمٌ﴾[1] قتل بعد قبول الدية[2].

٥ - ﴿لا تَحْسَبَنَّ الّذِينَ يَفْرَحُون بِمَا أَتوا...﴾[3].

عن علقمة بن أبي وقاص أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟. انما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه اياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾ كذلك حتى قوله: ﴿يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾[4].

وورد عن أبي سعيد الخدري أنها نزلت في شأن رجال من المنافقين.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٨.

(٢) البخاري: ٥/١٥٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٨٨.

(٤) البخاري: ٥/١٧٤ ونتمة النص. ﴿أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما تشترون. ولا تحسبن الذين..﴾ سورة آل عمران، الآيات ١٨٧ - ١٨٨.

فعن أبي سعد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رجالا من المنافقين على عهد رسول لله ﷺ كان اذا خرج رسول الله ﷺ الى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه، وحلفوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: **﴿لا تحسبنَّ الذين يفرَحُون بما أتوا ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا﴾**[1].

٦ ـ **﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهًا﴾**[2].

عن ابن عباس قال: كانوا اذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، ان شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وان شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية[3].

٧ ـ **﴿إِنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾**[4]: قال ابن عباس: الأزلام: القداح يقتسمون بها في الامور. والأنصاب: يذبحون عليها[5].

٨ ـ **﴿الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾**[6]:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت: **﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ﴾**[7] شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: **﴿الآن خَفَّفَ الله عنكم وعلم أن فيكم ضَعْفا، فان يكنْ منكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا**

---

(١) البخاري: ١٧٤/٥.

(٢) سورة النساء الآية ١٩.

(٣) البخاري: ١٧٨/٥.

(٤) سورة المائدة الآية ٩٠.

(٥) البخاري: ١٨٩/٥.

(٦) سورة الانفال الآية ٦٦.

(٧) سورة الانفال الآية ٦٥.

مائتين﴾ قال: فلما خفف الله عنهم من العدّة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم[1].

٩ - ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا﴾[2].

عن عطاء: سمع ابن عباس ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا قال: هم كفار أهل مكة[3].

١٠ - ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ ★ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[4].

عن ابن عباس: كما أنزلنا على المقتسمين: قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض: اليهود والنصارى.

وعنه: الذين جعلوا القرآن عِضِين. قال: هم أهل الكتاب جَزَّءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[5].

١١ - ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إلاّ فِتْنَةً للنّاسِ﴾[6].

قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به إلى بيت المقدس قال: والشجرة الملعونة في القرآن. قال: هي شجرة الزقوم[7].

١٢ - ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ولا تُخَافِتْ بِهَا﴾[8].

---

(١) البخاري: ٥/٣١.
(٢) سورة ابراهيم، آية ٢٨.
(٣) البخاري: ٥ ٢٢٠.
(٤) سورة الحجر، الآيتان ٩٠، ٩١.
(٥) البخاري: ٥/٢٢٢.
(٦) سورة الإسراء، آية ٦٠.
(٧) البخاري: ٥/٢٧، ٧/٢١٤.
(٨) سورة الإسراء، آية ١١٠.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولا تجهرْ بصلاتك ولا تخافِتْ بها﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله لنبيه ﷺ: ولا تجهر بصلاتك أي بقراءتك. فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلا[١].

١٣ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾[٢].

قال ابن عباس: كان الرجل يقدم المدينة، فان ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وان لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء[٣].

١٤ - ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾[٤].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل الرجل إذا لم يستطع ان يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيـلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا نعم ما جربنا عليك الآ صدقا، قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال ابو لهب: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ★ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[٥].

١٥ - ﴿إنَّ الذي فَرَضَ عليك القرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾[٦]:

---

(١) البخاري: ٢٢٩/٥.

(٢) سورة الحج، آية ١١.

(٣) البخاري: ٢٤٢/٥.

(٤) سورة الشعراء، آية ٢١٤.

(٥) سورة المسد، الآيتان ١ و٢. وانظر البخاري ١٦/٦ - ١٧.

(٦) سورة القصص، آية ٨٥.

عن ابن عباس: لرادّك إلى معاد: إلى مكة[1].

١٦ - ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾[2]:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: ان الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل **﴿والذين لا يدعون مع اللهِ إلهاً آخَرَ ولا يقتُلُون النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحقِّ ولا يزنُون﴾**[3] ونزل **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾**[1].

١٧ - ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[4].

قال المنهال عن سعيد قال: قال رجل لابن عباس: اني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: **﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾**. **﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾**[5]. **﴿ولا يكتمون اللهَ حديثا﴾**[6]، **﴿والله ربّنا ما كنا مشركين﴾**[7]. فقد كتموا في هذه الآية، وقال: **﴿أم السماءُ بناها﴾** إلى قوله **﴿دحاها﴾**[8]، فذكر خلق السماء في يومين إلى طائعين. فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وقال تعالى: وكان الله غفورا رحيما، عزيزا حكيما، سميعا بصيرا، فكأنه كان ثم مضى.

---

(١) البخاري: ٦/١٨ وانظر المقباس لابن عباس.

(٢) سورة الزمر، آية ٥٣.

(٣) البخاري: ٦/٣٣ - ومسلم: ١/٧٩. والآية من سورة الفرقان رقمها ٦٨.

(٤) سورة المؤمنون، آية ١٠١.

(٥) سورة الصافات ٢٧؛ والطور ٢٥.

(٦) سورة النساء آية ٤٢.

(٧) سورة الأنعام آية ٢٣.

(٨) سورة النازعات الآيات ٢٧ - ٣٠.

فقال: فلا أنساب بينهم في النفخة الأولى، ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض الا من شاء الله، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الأخيرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وأما قوله: ما كنا مشركين، ولا يكتمون الله، فان الله يغفر لأهل الاخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: فَقَالوا نقول لم نكن مشركين، فختم على أفواههم، فتنطق ايديهم فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثا، وعنده يود الذين كفروا... الآية. وخلق الأرض في يومين. ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله دحاها وقوله خلق الأرض في يومين، فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السموات في يومين، وكان الله غفورا، سَمَّى نفسه ذلك، وذلك قوله أي لم يزل كذلك، فان الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذي أراده فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلا من عند الله[1].

١٨ - ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2].

قال ابن عباس: بالتي هي أحسن: الصبر عند الغضب والعفو عند الاساءة. فإذا فعلوه عصمهم الله وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم[3].

١٩ - ﴿إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبَى﴾[4].

قال طاووس عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه سئل عن قوله: الا المودة في القربى، فقال سعيد بن جبير: قربى آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: عجلت، ان النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش الاّ كان له فيه قرابة

---

(١) البخاري: ٦/ ٣٥ - ٣٦.
(٢) سورة فصلت، آية ٣٤.
(٣) البخاري: ٦/ ٣٦.
(٤) سورة الشورى، آية ٢٣.

فقال: الا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة[1].

٢٠ - ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[2].

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: أنشدك عهدك ووعدك، اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا، فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك - وهو في الدرع - فخرج وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر[3].

٢١ - ﴿لَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[4].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وَدّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الطلاع، اسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخَ العلم عبدت[5].

٢٢ - ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾[6].

عن ابن عباس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء

(١) البخاري: ٦/٣٧.
(٢) سورة القمر، آية ٤٥.
(٣) البخاري: ٦/٥٤.
(٤) سورة نوح، آية ٢٣.
(٥) البخاري: ٦/٧٣.
(٦) سورة الجن، آية ١.

وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء الا ما حدث، فأضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد الى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: انا سمعنا قرآنا عجبا. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنزل الله - عزل وجل - على نبيه ﷺ ﴿قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن﴾، وانما أوحى إليه قول الجن[1].

٢٣ - ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[2].

قال ابن عباس: كان - أي النبي - ﷺ يحرك شفتيه إذا أنزل عليه، فقيل له: لا تحرك به لسانك، يخشى أن ينفلت منه ان علينا جمعه وقرآنه ان نجمعه في صدرك، وقرآنه أن تقرأه فإذا قرأناه يقول: أنزل عليه، فاتبع قرآنه، ثم ان علينا بيانه: ان نبينه على لسانك. وفي رواية: فكان اذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرآه كما وعده الله[3].

٢٤ - ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾[4].

قال ابن عباس: لتركبن طبقا عن طبق: حالا بعد حال: قال هذا نبيكم ﷺ[5].

٢٥ - ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[6].

حدث أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - انه

---

(١) البخاري: ٦/٧٣ - ٧٤.

(٢) سورة القيامة، آية ١٧.

(٣) البخاري: ٦/٨١.

(٤) سورة الانشقاق، آية ١٩.

(٥) البخاري: ٦/٨١.

(٦) سورة الكوثر، آية ١.

قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله اياه. قال ابو بشر لسعيد بن جبير فان الناس يزعمون انه نهر في الجنة: فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله أياه[1].

٢٦ - ﴿الذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلاّ اللَّمَمَ﴾[2].

قال ابن عباس: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال ابو هريرة عن النبي ﷺ قال: ان الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى، ادرك ذلك لا محالة. فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه[3]. يقصد ابن عباس ان النظر والنطق من اللمم المعفو عنه المستثنى في كتاب الله.

٢٧ - ﴿والذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزّورَ وَإذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[4].

كان ابن عباس يفسر لا يشهدون الزور بمشاهدة أعياد المشركين. ففي الكامل للمبرد: يروى عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿**والذين لا يشهدون الزور...**﴾ قال: أعياد المشركين. وقال ابن مسعود: الزور الغناء. فقيل لابن عباس: او ما هذا في الشهادة بالزور؟ فقال: لا، انما آية شهادة الزور ﴿**ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به علمٌ إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كُلُّ أُولئك كان عنه مسئولا**﴾[5].

---

(١) البخاري: ٦/٩٣.

(٢) سورة النجم الآية ٣٢.

(٣) البخاري: ٧/٢١٤.

(٤) سورة الفرقان الآية ٧٢.

(٥) شرح الكامل. للمرصفي: ٧/١٨٦ وانظر القرطبي ١٠/٢٥٧. والآية من سورة الإسراء رقمها ٣٦.

ابن عباس.. ونافع بن الأزرق

ومع علم ابن عباس بالتفسير المأثور أي تفسير القرآن بالقرآن، ووقوفه على اسرار العربية فقد روي ان ابن عباس قال: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه.

وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال: اذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب.

وقصة لقاء ابن عباس مع نافع بن الأزرق زعيم الأزارقة ـ طائفة من الخوارج ـ فقد روي عن عبدالله بن ابي بكر بن محمد عن أبيه قال[1]: بينما عبدالله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا الى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به. فقاما إليه فقالا: إنا نريد ان نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فان الله تعالى انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما، فقال نافع: اخبرني عن قول الله تعالى ﴿عن اليمينِ وعن الشِّمالِ عِزِينَ﴾[2] قال: العزون: حِلَق الرقاق. قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يُهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عِزينا

قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿وابْتَغُوا إلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[3].

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ط ١ ٔ ١١٩ ـ ١٢٠ ـ ١٢١.. الخ.

(٢) سورة المعارج، آية ٣٧.

(٣) سورة المائدة، آية ٣٥.

قال: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت قول عنترة وهو يقول:

ان الرجال لهم اليكِ وسيلةٌ   إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

- قال: اخبرني عن قوله ﴿شِرعة ومنهاجًا﴾[1] قال الشرعة: الدين. والمنهاج الطريق. قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى   وبين للاسلام دينًا ومنهجا

- قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿إذا أثمر وَيَنْعِهِ﴾[2] قال: نضجه وبلاغه قال: وهل تعرب العرب ذلك؟ قال أما سمعت قول الشاعر:

إذا ما مشت وسط النساء تأودت   كما اهتز غصن ناعم النبت يانع

- قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿وريشا﴾[3] قال: الريش: المال. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت قول لبيد:

فَرِشْنِي بخير طال ما قد بَرَيْتَنِي   وخيرُ الموالي من يَريش ولا يبري[4]

قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿يكاد سَنا بَرْقِهِ﴾[5] قال: السنا: الضوء. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت ابا سفيان بن الحارث يقول:

يدعو إلى الحق لا يبغي به بدلا   يجلو بضوء سناه داجيَ الظُّلَم

---

(١) سورة المائدة، آية ٤٨.

(٢) سورة الانعام، آية ٩٩.

(٣) سورة الاعراف، آية ٢٦.

(٤) الريش: هو اللباس الفاخر وقيل: المال والخصب والمعاش. مختار الصحاح/ مادة ريش.

(٥) سورة النور، آية ٤٣.

قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿وَحَفَدَةً﴾[1] قال: ولد الولد.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول الشاعر:

حَفَدُ الولائد حولهن واسلمت   بأكفهن أزمة الأحمال

قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿وحنانًا من لدنّا﴾[2] قال رحمة من عندنا قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت طرفة بن العبد يقول:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا   حنانيك بعض الشر أهون من بعض

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أفلَمْ ييأسِ الذين آمنُوا﴾[3] قال: أفلم تعلم بلغة بني مالك. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت مالك بن عوف يقول:

لقد يئس الأقوام أني أنا ابنه   وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿مَثْبُورا﴾[4] قال: ملعونا محبوسا عن الخير. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت عبدالله بن الزبعرى يقول:

إذ أتاني الشيطان في سِنَةِ النوم   وقد مال ميله مثبورا

قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿فَأَجَأَهَا المَخَاضُ﴾[5] قال: ألجأها. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت حسان بن ثابت يقول:

إذا شددنا شدة صادقة   فأجأناكم الى سفح الجبل

---

(١) سورة النحل، آية ٧٢. والحفد: الاعوان والخدم وَوَلد الولد، والواحد: حافد. مختار الصحاح مادة حَفَد.

(٢) سورة مريم الآية ١٣.

(٣) سورة الرعد الآية ٣١.

(٤) سورة الاسراء الآية ١٠٢.

(٥) سورة مريم الآية ٢٣.

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿نَدِيًّا﴾[1] قال النادي: المجلس قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت قول زهير:

يومان يوم مقامات وأندية ... ويوم يسير إلى الأعداء تأويب[2]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾[3] قال: الأثاث: المتاع والرأي من الشراب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت قول ابن الزبعرى:

كأن على الحمول غداة وَلَّوا ... من الرأي الكريم من الأثاث[4]

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾[5].

قال: القاع: الأملس والصفصف: المستوي، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول العباس:

بِمَأْمومةٍ شهباء لو قذفوا بها ... شماريخَ من رَضْوى إذن عاد صفصفا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وإنَّك لا تَظْمَأُ فِيها وَلاَ تَضْحَى﴾[6]. قال: لا تعرق فيها من شدة حر الشمس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت الشاعر يقول:

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت ... فَيضحَى وأما بالعشي فيخصر[7]

---

(١) سورة مريم الآية ٧٣.

(٢) الاواب: التائب ـ والتأويب: التردد.

(٣) سورة مريم الآية ٧٤.

(٤) الحمول: الابل وغيرها بالضم: الابل عليها الهوادج. انظر مختار الصحاح. مادة حَمَلَ والرئى: المنظر الحسن والكسوة الظاهرة والاثاث. المال اجمع ـ مادة أثث.

(٥) سورة طه الآية ١٠٦.

(٦) سورة طه الآية ١١٩.

(٧) فيخصر: يبرد.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿له خُوار﴾[1] قال: له صياح. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول الخنساء:

كأن بني معاوية بن بكر إلى الإسلام صائحةٌ تخور

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[2] قال: لا تضعفا عن أمري. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول ابن أبي ربيعة:

اني وجدِّك ما وَنَيْتُ ولم أزل أَبْغي الفكاك له بكل سبيل[3]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرّ﴾[4] قال: القانع الذي يقنع بما أُعطي، والمعتر الذي يعترض الأبواب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. اما سمعت قول ابن حاتم:

على مكثريهم حق معترٍّ بابهم وعند المقلين السماحةُ والبذل

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[5].

قال: مشيد بالجص والآجر. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول عدي بن زيد:

شاده مرمرا وجلله كلسا فللطير في ذُراه وكور[6]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿شُوَاظٌ﴾[7] قال: الشواظ: اللهب الذي لا

---

(١) سورة طه الآية ٨٨.

(٢) سورة طه الآية ٤٢.

(٣) الفكاك: ما يفتك به: اي عوض الرقبة. انظر مادة فكك في المختار.

(٤) سورة الحج الآية ٣٦.

(٥) سورة الحج الآية ٤٥.

(٦) الوُكور: عش الطائر في قصر أو جبل.

(٧) سورة الرحمن الآية ٣٥.

دخان له. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت قول أمية بن الصلت:

يظل يشُب كيرا بعد كير وينفخ دائبّا لهب الشواظ[1]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون﴾[2]. قال: فازوا وسعدوا.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول لبيد بن ربيعة:

فاعقلي ان كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عَقَل[3]

قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿ونُحَاسٌ﴾[4] قال: هو الدخان الذي لا لهب فيه. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول الحطيئة:

يضيء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا[5]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَمْشَاجٍ﴾[6] قال: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة اذا وقع في الرحم. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول أبي ذؤيب:

كَأن الريش والفوقيَّ منه خلال النصل خالطه مشيج

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾[7] قال: الحنطة.

---

(١) تشب: يوقد النار ـ وبالكسر: شب الغلام، كبر.

(٢) سورة المؤمنون الآية ١.

(٣) العقل: الحِجْر والنهي: اعقلي: امسكي. انظر مادة عَقَلَ في المختار.

(٤) سورة الرحمن الآية ٣٥.

(٥) السليط: الزيت عند عامة العرب: انظر مادة سلط، المختار.

(٦) سورة الانسان الآية ٢.

(٧) سورة البقرة الآية ٦١.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول أبي محجن الثقفي:

قد كنت أحسبني كأغنى واحد قدم المدينة عمن زراعه فوم

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[1] قال: ليس فيها نتن ولا كراهة كخمر الدنيا، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول امرئ القيس:

رب كأس شربت لا غول فيها وسقيت النديم منها مزاجا[2]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ﴾[3].

قال: اتساقه: اجتماعه، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، اما سمعت قول طرفة بن العبد:

ان لنا قلائصا، نقانقا مستوسقات لم يجدن سائقا[4]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[5] قال: باقون لا يخرجون منها أبدا، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول عدي بن زيد:

فهل من خالد اما هلكنا وهل بالموت يا للناس عاد

قال: اخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كالجَوَابِ﴾[6] قال: كالحياض

---

(١) سورة الصافات الآية ٤٧.
(٢) المزاج: ما خلط بغيره من الشراب.
(٣) سورة الانشقاق الآية ١٨.
(٤) قلائص: جمع قلوص وهي من الابل الفتية المجتمعة الخلق.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥.
(٦) سورة سبأ الآية ١٣.

الواسعة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم: أما سمعت قول طرفة بن العبد:

كالجوابي لا تني منزعة ... يقري الأضياف أو للمحتضر[1]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾[2] قال: الفجور والزنى قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول الأعشى:

حافظ للفرج راض بالتقى ... ليس ممن قلبه فيه مرض

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾[3]. قال: الملتزق. قال: أو تعرف العرب ذلك. قال: أما سمعت قول النابغة:

فلا يحسبون الخير لا شر بعده ... ولا يحسبون الشر ضربة لازب

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَشَوْبًا من حميم﴾[4] قال: الخلط بماء الحميم والغساق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال أما سمعت قول الشاعر:

تلك المكارم لا قَعْبَانِ من لبن ... شيبًا بماء فعادا بعدُ أَبْوالا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾[5]. قال القط: الجزاء. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال أما سمعت قول الأعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته ... بنعمته يعطي القطوط ويطلق

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[6]. قال: الحمأ

---

(١) عن اختصر المجلس اي حضره.
(٢) سورة الاحزاب الآية ٣٢.
(٣) سورة الصافات الآية ١١.
(٤) سورة الصافات الآية ٦٧.
(٥) سورة صٓ الآية ١٦.
(٦) سورة الحجر الآية ٢٦.

السواد، والمسنون، المصور، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال أما سمعت قول حمزة بن عبد المطلب:

اغـرٌّ كـأن البـدرَ شُقَّـةُ وجهـه جلا الغيمَ عنـه ضَـوؤُه فتبـددا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿البَائِسَ الفَقِيرَ﴾[1]. قال: البائس الذي لا يجد شيئا من شدة الحال. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول طرفة:

يغشـاهـم البـائس المدقـع والضيـف وجـار مجاور جُنُـب

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَاءً غَدَقًا﴾[2] قال: كثيرا جاريا قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت قول الشاعر:

تـدني كـراديس ملتفا حـدائقهـا كالنبت جادت بها أنهارها غـدقـا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾[3] قال: شعلة من نار يقتبسون منه، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قـال: نعم أما سمعت قول طرفة بن العبد:

هَـمٌّ عَـرانِـي فَبِـتُّ أَدْفَعُـه دون سهـادي كشُعْلَـةِ القبس

قال: اخبرني عن قوله تعالى: ﴿عذابٌ أليمٌ﴾[4] قال: الأليم. الوجيع قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال أما سمعت قول الشاعر:

نـام مـن كـان خليـا مـن ألم وبقيـت الليـل طـولا لم أنم

---

(١) سورة الحج الآية ٢٨.

(٢) سورة الجن الآية ١٦.

(٣) سورة النمل الآية ٧.

(٤) سورة النور الآية ١٩.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾[1]. قال: اتبعنا على آثار الأنبياء: أي بعثنا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت قول عدي بن زيد:

يوم قفت عيرهم من عيرنا واحتمال الحي في الصبح فلق

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾[2]. قال: اذا مات وتردى في النار. قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول عدي بن زيد:

خطفته منية فتردّى وهو في الملك يأمل التعميرا

قال: اخبرني عن قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾[3]. قال: النهر: السعة. قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول لبيد بن ربيعة:

ملكت بها كفي فَأَنْهَرَت فَتْقَهَا يرى قائم من دونها ما وراءها

قال أخبرني عن قوله تعالى ﴿وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾[4]. قال: الخلق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول لبيد:

فإن تسألينا مِمَّ نحن فاننا عصافير من هذا الأنام المسخر

قال: فأخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾[5].

قال: ان لن يرجع ـ بلغة الحبشة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول الزبرقان.

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٦.
(٢) سورة الليل الآية ١١.
(٣) سورة القمر الآية ٥٤.
(٤) سورة الرحمن الآية ١٠.
(٥) سورة الانشقاق الآية ١٤.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾[1].

قال: أجدر أن لا تميلوا قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول حسان:

إنـا تبعنـا رسـول الله واطـرحـوا قـول النبي وعـالـوا في الموازيـن

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾[2] قال: تقتلونهم قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول العباس:

ومنـا الذي لاقـى بسيـف محمدا فَحَس به الأعداء عرض العساكـر

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿جَنَفًا﴾[3] قال: الجور والميل في الوصية. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول عدي بن زيد:

وأمسـك يـا نعمان في أخـواتها يـأتين مـا يـأتينـه جنفـا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿بالبأساء والضَّرَّاءِ﴾[4]. قال: البأساء: الخصب والضراء: الجدب.. قال: وهل تعرف العرب ذلـك؟ قال: نعم. أما سمعت قول زيد بن عمرو:

ان الإلـه عـزيـز واسـع حكـم بكفـه الضر والبـأسـاء والنِّعـم

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿إلا رَمْزًا﴾[5] قال: الإشارة باليد والومي بالرأس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قـال: أما سمعت قول الشاعر:

مـا في السماء مـن الرحمن مـرتمز الا إليـه ومـا في الأرض وزر

(١) سورة النساء الآية ٣.
(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٢.
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٢.
(٤) سورة الأنعام الآية ٤٢.
(٥) سورة آل عمران الآية ٤١.

قال: اخبرني عن قوله تعالى ﴿فَقَدْ فَازَ﴾[1] قال سعد ونجا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول عبد الرحمن بن رواحة:

وعسى أن أفوز ثَمّتَ ألقى حجّة اتقى بها الفتانا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿سَوَاءٍ بينَنا وبينَكُم﴾[2] قال: عدل. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر:

تلاقينا فقاضينا سواء ولكن جرعن حال بحال

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿الفلكِ المشحونِ﴾[3] قال: السفينة الموقرة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول عبيد بن الأبرص:

شحنا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذلَّ من الصراط

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿زَنيم﴾[4] قال: ولد الزنى. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر:

زنيم تداعته الرجال زيادةً كما زيد في عرض الأديم الأكارع

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿طَرَائِقَ قِدَدًا﴾[5] قال المنقطعة في كل وجه، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول الشاعر:

ولقد قلت وزيد حاسر يومَ ولت خيلُ زيدِ قددا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿بربِّ الفلقِ﴾[6]. قال: الصبح اذا انفلق

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥.
(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤.
(٣) سورة الشعراء الآية ١١٩.
(٤) سورة القلم الآية ١٣.
(٥) سورة الجن الآية ١١.
(٦) سورة الفلق الآية ١.

من ظلمة الليل. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول زهير بن أبي سلمى:

الفارج الهمِّ مسدولا عساكرُه كما يُفرِّج غمَّ الظلمةِ الفلَقُ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَلَاقٍ﴾[1] قال: نصيب. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت:

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم الا سرابيل من قطر وأغلال

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[2] قال: مقرون. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول عدي بن زيد:

فاننا لله يرجو عفوه يوم لا يكفر عبد ما ادخر

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿جَدُّ رَبِّنا﴾[3] قال: عظمة ربنا، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت:

لك الحمد والنعماء والملك ربَّنَا فلا شيءَ أعلى منك جَدًّا وأمجدا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾[4] قال: الآني الذي انتهى طبخه وحره. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول نابغة بني ذبيان:

ويخضب لحية غدرت وخانت بأحمى من نجيع الخوف آن

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[5]. قال: الطعن

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة الآية ١١٦.

(٣) سورة الجن الآية ٣.

(٤) سورة الرحمن الآية ٤٤.

(٥) سورة الاحزاب الآية ١٩.

باللسان. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت قول الأعشى:

فيهم الخصب والسماحة والنجـ ـدة فيهم والخاطب المسلاق

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿وَأَكْدَى﴾[1]. قال: كدره بمنه، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الشاعر:

فأعطى قليلا ثم أكدى بمنه ومن ينشر المعروف في الناس يحمد

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿لا وَزَرَ﴾[2] قال: الملجأ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول عمرو بن كلثوم:

لعمرك ما ان له صخرة لعمرك ما أن له من وزر

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿قَضَى نَحْبَهُ﴾[3] قال: أجله الذي قدر له. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم. أما سمعت قول لبيد بن ربيعة:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل.

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾[4] قال: السحاب يعصر بعضها بعضا فيخرج الماء من بين السحابتين. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول النابغة:

تجربها الأرواح من بين شمأل وبين صباها المعصرات الدوامس

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾[5] قال: العضد المعين الناصر. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول النابغة:

---

(١) سورة النجم الآية ٣٤.
(٢) سورة القيامة الآية ١١.
(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٣.
(٤) سورة النبأ الآية ١٤.
(٥) سورة القصص الآية ٣٥.

في ذمة من أبي قابوس منقذة   للخائفين ومن ليست له عضد

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿في الغَابرين﴾[1] قال: في الباقين. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول عبيد بن الأبرص:

ذهبوا وخلفني المخلف فيهم   فكأنني في الغابرين غريب

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿فلا تأسَ﴾[2] قال: لا تحزن. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول امرئ القيس:

وقوفا بها صحبي علي مطيّهم   يقولون لا تهلك أسى وتجمّل

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿يَصْدِفُونَ﴾[3] قال: يعرضون عن الحق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول أبي سفيان:

عجبت لحلم الله عنا وقد بدا   له صدفنا عن كل حق منزل

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾[4] قال: تحبس. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول زهير:

وفارقتك برهن لا فكاك له   يوم الوداع فقلبي مبسل غلقا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿فلمّا أَفَلَتْ﴾[5] قال: زالت الشمس عن كبد السماء. أما سمعت قول كعب بن مالك:

فتغير القمر المنير لفقده   والشمس قد كُسِفت وكادت تأفل

---

(١) سورة الصافات الآية ١٣٥.
(٢) سورة المائدة الآية ١٨.
(٣) سورة الأنعام الآية ٤٦.
(٤) سورة الأنعام الآية ٧٠.
(٥) سورة الأنعام الآية ٧٨.

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿كالصريم﴾[1] قال: الذاهب. أما سمعت قول الشاعر:

غدوت عليه غدوة فوجدته قعود الديه بالصريم عواذله

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿تفتؤ﴾[2] قال: لا تزال. أما سمعت قول الشاعر:

لعمرك ما تفتأ تذكر خالدا وقد غاله ما غال من قبل تبّع

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿خَشْيَةَ إمْلاقٍ﴾[3] قال: مخافة الفقر. أما سمعت قول الشاعر:

واني على الاملاق يا قوم ماجد أعد لأضيافي الشواء المصهبا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿وحدائق﴾[4] قال: البساتين. أما سمعت قول الشاعر:

بلاد سقاها الله أما سهولها فقضب ودرّ مغدق وحدائق

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿مُّقِيتًا﴾[5] قال: قادرا. أما سمعت قول أصبحة الأنصاري:

وذي ضغن كفقت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿ولا يَئُودُهُ﴾[6] قال: لا يثقله. أما سمعت قول الشاعر:

---

(١) سورة القلم الآية ٢٠.
(٢) سورة يوسف الآية ٨٥.
(٣) سورة الإسراء الآية ٣١.
(٤) سورة عبس الآية ٣٠.
(٥) سورة النساء الآية ٨٥.
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

يعطي المسيئة ولا يئوده حملها   محض الضرائب ماجد الأخلاق

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿سَرِيًّا﴾[1] قال: النهر الصغير. أما سمعت قول الشاعر:

سهل الخليقة ماجدٌ ذو نائل   مثل السري تمده الأنهار

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿وكأسًا دِهاقًا﴾[2] قال: ملأى. أما سمعت قول الشاعر:

أتانا عامر يرجو قرانا   فأترعنا له كأسا دهاقا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿لَكَنُودٌ﴾[3] قال: كفور للنعم وهو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويجيع عبده. أما سمعت قول الشاعر:

شكرت له يوم العكاظ نواله   ولم أك للمعروف ثم كنودا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿فَسَيُنْغِضُون إليكَ رءُوسهم﴾[4] قال: يحركون رءوسهم استهزاء بالناس، أما سمعت قول الشاعر:

أتنغض لي يوم الفخار وقد ترى   خيولا عليها كالأسود ضواريا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿يُهْرَعُونَ﴾[5] قال: يقبلون إليه بالغضب. أما سمعت قول الشاعر:

أتونا يهرعون وهم أسارى   نسوقهم على رغم الأنوف

---

(١) سورة مريم الآية ٢٤.

(٢) سورة النبأ الآية ٣٤.

(٣) سورة العاديات الآية ٦.

(٤) سورة الاسراء الآية ٥١.

(٥) سورة الصافات الآية ٧٠.

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ﴾[1] قال: بئس اللعنة بعد اللعنة. أما سمعت قول الشاعر:

لا تقذفني بركن لا كفاء له وان تأسفك الأعداء بالرفد

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[2] قال: تخسير. أما سمعت قول بشر بن أبي حازم:

هم جدعوا الأنوف فاوعبوها وهم تركوا بني سعد تبابا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ من اللَّيْلِ﴾[3] ما القطع؟ قال: آخر الليل سحرا. قال مالك بن كنانة:

ونائحة تقوم بقطع ليل على رجل أصابته شعوب

والشعوب: الداهية.

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[4] قال: تهيأت لك. أما سمعت قول أصيحة الجلاح الأنصاري:

به أحمي الضياف اذا دعاني اذا ما قيل للأبطال هيتا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿يومٌ عصيبٌ﴾[5] قال: شديد. أما سمعت قول الشاعر:

هم ضربوا قوانس خيل حجر بجنب الرده في يوم عصيب

---

(١) سورة هود الآية ٩٩.
(٢) سورة هود الآية ١٠١.
(٣) سورة هود الآية ٨١.
(٤) سورة يوسف الآية ٢٣.
(٥) سورة هود الآية ٧٧.

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾[1] قال: مطبقة. أما سمعت قول الشاعر:

تحـن إلى أجبـال مكـة نـاقتي ومن دوننا أبواب صنعاء مؤصـده

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿لا يَسْأَمُونَ﴾[2] قال: لا يفترون ولا يملون. أما سمعت قول الشاعر:

من الخوف لاذ وسامه مـن عبـادة ولا هـو مـن طـول التعبـد يجهـد

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[3] قال: ذاهبة وجائبة تنقل الحجارة بمناقيرها وأرجلها فتبلبل عليهم فوق رؤوسهم. أما سمعت قول الشاعر:

وبالفوارس من ورقـاء قـد علمـوا أحلاس خيـل على جـرد أبـابيـل

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[4] قال: وجدتموهم. أما سمعت قول حسان:

فـامـا تـشـقـفـن بني لـؤي جـذيمـة ان قتلـهـم دواء

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ به نَقْعًا﴾[5] قال: النقع ما يسطع من حوافر الخيل. أما سمعت قول حسان:

عـدمنـا خيلنـا ان لم تـروهـا تشيـر النقـع مـوعـدهـا كـداء

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿في سَوَاءِ الجَحِيمِ﴾[6] قال: وسط الجحيم.

---

(١) سورة الهمزة الآية ٨.
(٢) سورة فصلت الآية ٣٨.
(٣) سورة الفيل الآية ٣.
(٤) سورة البقرة الآية ١٩١.
(٥) سورة العاديات الآية ٤.
(٦) سورة الصافات الآية ٥٥.

أما سمعت قول الشاعر:

رماها بسهم فاستوى في سوائها وكان قبولا للهوى ذي الطوابق

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿في سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾[1] قال: الذي ليس له شوك. أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت:

ان الحدائق في الجنان ظليلة فيها الكواعب سدرها مخضود

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿طلعُهَا هضيمٌ﴾[2] قال: منضم بعضه إلى بعض. أما سمعت قول امرئ القيس:

دار لبيضاء العوارض طفلة مهضومة الكشحين ريا المعصم

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿قولاً سديدًا﴾[3] قال: قولا عدلا حقا. أما سمعت قول حمزة:

أمين على ما استودع الله قلبه فان قال قولا كان فيه مسددًا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿حُوبًا﴾[4] قال: بلغة الحبشة «اثما» قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت قول الأعشى:

فاني وما كلفتموني من أمركم ليعلم من أمسي أعق وأحوبا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿العَنَتَ﴾[5] قال: الأثم. أما سمعت قول الشاعر:

رأيتك تبتغي عنتي وتسعى مع الساعي علي بغير دخل

---

(١) سورة الواقعة الآية ٢٨.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٤٨.

(٣) سورة النساء الآية ٩.

(٤) سورة النساء الآية ٢.

(٥) سورة النساء الآية ٢٥.

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿فتيلا﴾[1] قال: التي تكون في شق النواة. أما سمعت قول النابغة:

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ الأعادي فتيلا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[2] قال: الجلدة البيضاء التي تكون على النواة. أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت:

لم أنل منهم فسيطا ولا زبدا ولا فوفة ولا قطميرا

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾[3] قال: حبسهم. أما سمعت قول أمية:

اركسوا في جهنم انهم كانوا عتاة يقولون كِذْبا وزورا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرِفِيهَا﴾[4] قال: سلطنا أما سمعت قول لبيد:

ان يغبطوا ييسروا وان أمروا يوما يصيروا للهلك والفقد

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَنْ يفتِنَكُمُ الذين كَفَرُوا﴾[5] قال: يضلكم بالعذاب والجهد، بلغة هوازن. أما سمعت قول ابي طالب:

كل امرئ من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهور ومفتون

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لم يَغْنَوْا﴾[6] قال: كأن لم يسكنوا. أما سمعت قول لبيد:

---

(١) سورة النساء الآية ٧٧.
(٢) سورة فاطر الآية ١٣.
(٣) سورة النساء الآية ٨٨.
(٤) سورة الاسراء الآية ١٦.
(٥) سورة النساء الآية ١٠١.
(٦) سورة هود الآية ٦٨.

وغنيت سبتا قبل مجرى داحس لو كان للنفس اللجوج خلود

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿عذابَ الهُونِ﴾[1] قال: الهوان، أما سمعت قول زهير:

انا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهون

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿ولا يُظْلَمُون نَقِيرًا﴾[2]. قال: النقير ما في شق النواة، ومنه تنبت النخل. اما سمعت قول عنترة:

وليس الناس بعدك في نقير وليسوا غير اصداء وهام

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لا فَارِضٌ﴾[3] قال الهرمة. أما سمعت قول عدي بن حاتم:

لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضا يساق إليه ما يقوم على رجل

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿الخيطُ الأبيض مِنَ الخيطِ الأسود﴾[4] قال: بياض النهار من سواد الليل.. وهو الصبح اذا انفلق. اما سمعت قول أمية:

الخيط الأبيض ضوء الصبح منفلق والخيط الأسود لون الليل مكموم

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿بئسَمَا اشتَروا به أنفُسَهُمْ﴾[5] قال: باعوا نصيبهم من الآخرة بطمع يسير من الدنيا. اما سمعت قول الشاعر:

---

(١) سورة الاحقاف الآية ٢٠.
(٢) سورة النساء الآية ١٣٤.
(٣) سورة البقرة الآية ٦٨.
(٤) سورة البقرة الآية ١٨٧.
(٥) سورة البقرة الآية ٩٠.

يعطـــي بها ثمنـــا فيمنعهـــا ويقـول صــاحبهــا الا تشتري[1]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿حسبانا من السماء﴾[2] قال: نار من السماء أما سمعت قول حسان:

بقيـــة معشر صبـــت عليهـــم شـآبيـب مـــن الحسبـــان شهـــب

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الوجوهُ﴾[3] قال: استسلمت وخضعت. أما سمعت قول زهير:

ليبـك عليـك كـل عـان بكـربـة وآل قصي مـن مقـل وذي وفــر

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿معيشةً ضنكًا﴾[4] قال: الضنك الضيق الشديد. أما سمعت قول لبيد:

والخيل لقــد لحقـت بها في مـأزق ضنـك نـواحيــه شـديـد المقـدم

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿من كل فَجٍّ عميقٍ﴾[5] قال: طريق. أما سمعت قول عنترة العبسي:

حـازوا العيـال وسـدوا الفجـاج بـأجســاد عـــاد لها أبـــدان

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَدَعُ اليتيمَ﴾[6] قال: يدفعه عن حقه. أما سمعت قول أبي طالب:

يقسم حقـــا لليتيم ولـــم يكـــن .يدع لـدى ايسارهـن الأصـاغـرا

---

(١) لم يستدل على قائله.

(٢) سورة الكهف الآية ٤٠.

(٣) سورة طه الآية ١١١.

(٤) سورة طه الآية ١٢٤.

(٥) سورة الحج الآية ٢٧.

(٦) سورة الماعون الآية ٢.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**كالمُهْلِ**﴾[1] قال: كدردي الزيت. أما سمعت قول الشاعر:

تبارى بها العيس السموم كأنها تبطنت الأقراب من عرق مهلا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**أَخْذًا وبيلاً**﴾[2] قال: شديدا ليس له ملجأ. أما سمعت قول علقمة:

وخزي الحياة وخزي الممات وكلا أراه طعاما وبيلا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**فنقَّبُوا في البلادِ**﴾[3] قال: هربوا بلغة اليمن. أما سمعت قول عدي بن زيد:

فنقبوا في البلاد من حذر المو ت وجالوا في الأرض أي مجال

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**إلا همسًا**﴾[4] قال: الوطء الخفي والكلام الخفي. أما سمعت قول الزِّبرقان:

فباتوا يدلجون وبات يسري بصير بالدجا هاد هموس

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**مُقْمَحُون**﴾[5] قال: المقمح: الشامخ بأنفه المنكس رأسه. أما سمعت قول الحطيئة:

ونحن على جوانبها قعود نغض الطرف كالأبل القماح

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**في أمرٍ مَرِيجٍ**﴾[6] قال: المريج: الباطل.

---

(١) سورة الدخان الآية ٤٥.
(٢) سورة المزمل الآية ١٦.
(٣) سورة قٓ الآية ٣٦.
(٤) سورة طه الآية ١٠٨.
(٥) سورة يس الآية ٨.
(٦) سورة قٓ الآية ٥.

أما سمعت قول طرفة:

فراعت فانتقدت به حشاها فخر كأنه خوط مريج

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿حتمًا مقضيًّا﴾[1] قال: الحتم الواجب. أما سمعت قول أمية:

عبادك يخطئون وأنت رب بكفيك المنايا والحتوم

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وأكوابٍ﴾[2] قال: القلال التي لا عرى لها. أما سمعت قول الهذلي:

فلم ينطق الديك حتى ملأت كئوب الدنان له فاستدار

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ولا هُمْ عنها يُنْزَفُونَ﴾[3] قال: لا يسكرون أما سمعت قول عبدالله بن رواحة:

ثم لا ينزفون عنها ولكن يذهب الهم عنهم والغليل

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿كان غرامًا﴾[4] قال: ملازما شديدا كلزوم الغريم الغريم. أما سمعت قول بشر بن أبي حازم:

ويوم النّارِ ويوم الجفار وكان عذابا وكان غراما

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وكنتم قَوْمًا بورًا﴾[5] قال: هلكى بلغة عمان. وهم من اليمن. أما سمعت قول الأعشى:

فلا تكفروا ما قد صنعنا اليكمو وكافوا به فالكفر بور لصانعه

---

(١) سورة مريم الآية ٧١.

(٢) سورة الانسان الآية ١٥.

(٣) سورة الصافات الآية ٤٧.

(٤) سورة الفرقان الآية ٦٥.

(٥) سورة الفتح الآية ١٢.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿نَفَشَتْ﴾[1] قال: النفش: الرعي بالليل. أما سمعت قول لبيد:

بـدلـن بعـد النَفشَ الوجيفـا وبعـد طـول الجِرَّة الصريفـا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ألدُّ الخصام﴾[2] قال: الجَدِل المُخاصَم في الباطل. أما سمعت قول المهلهل:

ان تحت الأحجار حـزمـا وجـودا وخصـيمـا ألـد ذا مـغـلاق

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿بعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[3] قال: النضيج مما يشوى بالحجارة. أما سمعت قول كعب:

لهم راح ونـار المسـك فيهـم وشـاويهم اذا شـاءوا حنيـذا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿من الأجداثِ﴾[4] قال: القبور. أما سمعت قول ابن رواحة:

حينًا يقولون اذ مروا على جـدثـي أَرْشِدْه يا رب مِنْ عَانٍ وقد رَشَدا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿هَلُوعًا﴾[5] قال: ضجرا جزوعا. أما سمعت قول بشر بن ابي حازم:

لا مـانعًـا لليتيم نِحْلَتَـه ولا مكبـا لخلقـة هلعـا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ولات حينَ مناصٍ﴾[6] قال: ليس حين

---

(١) سورة الانبياء الآية ٧٨.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٤.
(٣) سورة هود الآية ٦٩.
(٤) سورة يس الآية ٥١.
(٥) سورة المعارج الآية ١٩.
(٦) سورة صٓ الآية ٣.

فرار. أما سمعت قول الأعشى:

تـذكـرت ليلى حين لات تـذكـرٍ وقـد بِنْـتُ منهـا والمنـاصُ بعيـد

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَدُسُرٍ﴾[1] قال: الدسر: الذي تخرز به السفينة: أما سمعت قول زهير:

سفينـة نـوتي قـد أحكـم صنعهـا مُنْحَتَّـةُ الألـواح منسـوجـة الدسرْ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿بَاسِرَةٌ﴾[2] قال: كالحة. أما سمعت قول عبيد بن الأبرص:

صَبَحْنَـا نميا غـداة النسـا وشهبـاء ملمـومـة بـاسره

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ضِيزَى﴾[3] قال: أما سمعت قول امرئ القيس:

ضـازت بنـو أسـد بحكمهـمُ اذ يعدلـون الرأس بـالـذنـب

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لم يَتَسَنَّهْ﴾[4] قال: لم تغيره السنون. أما سمعت قول الزبرقان:

طـاب منـه الطعـم والريـح معـا لـن تـراه متغيرا مـن أسـن

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿خَتَّارٍ﴾[5] قال: الغدار الظلوم الغشوم. أما سمعت قول لبيد:

لقد علمت واستيقنت ذاتُ نفسها بان لا تخاف الدهر صرمى ولا خترى

---

(١) سورة القمر الآية ١٣.
(٢) سورة القيامة الآية ٢٤.
(٣) سورة النجم الآية ٢٢.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٩.
(٥) سورة لقمان الآية ٣٢.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿جُدَدٌ﴾[1] قال: طرائق. أما سمعت قول عمرو بن كلثوم:

قد غادر النسع في صفحاتها جددا كأنها طرق لاحت على أكم

قال: أخبرني عن قوله تعالى ﴿أَغْنَى وأَقْنى﴾[2] قال: أغنى من الفقر وأقنى من الغنى. أما سمعت قول عنترة العبسي:

فاقْنَيْ حَياءَك لا أبا لك واعلمي اني امرؤٌ سأموت ان لم أقتل

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لا يَلِتْكُمْ﴾[3] قال: لا ينقصكم بلغة بني عبس. أما سمعت قول عنترة:

أبلغ سراة بني سعد مَغَلْغَلَة جهد الرسالة لا ألتا ولا كذبا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وأَبًّا﴾[4] قال: الأب: ما يعتلف منه الدواب. أما سمعت قول عمرو بن كلثوم:

ترى به الأب واليقطين مختلطا على الشريعة يجري تحتها الغرب

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فيه تُسِيمُونَ﴾[5] قال: تزرعون أما سمعت قول الأعشى:

ومشى القوم بالعماد إلى الدر حاء أعيي المسيم اين المساق

قال: أخبرني عن قوله: ﴿لا تَرْجُون للهِ وَقارًا﴾[6] قال: لا تخشون لله عظمة. أما سمعت قول أبي ذؤيب:

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٧.

(٢) سورة النجم الآية ٤٨.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٤) سورة عبس الآية ٣١.

(٥) سورة النحل الآية ١٠.

(٦) سورة نوح الآية ١٣.

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها　　وحالفها في بيت نوب عوامل

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ذا مَتْرَبَةٍ﴾[1] قال: ذا حاجة شديدة وجهد. أما سمعت قول الأعشى:

تربت يدٌ لك ثم قل نوالها　　وترفعت عنك السماء سِجالها

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾[2] قال: مذعنين خاضعين. أما سمعت قول تبع:

تعبدني نمر بن سعد وقد درى　　ونمر بن سعد لي مدين ومهطع

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿هل تعلمُ له سميًّا﴾[3] قال: ولدا أما سمعت قول الحطيئة:

أما السمي فأنت منه مكثر　　والمال فيه تفتدي وتروح

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لتنوء بالعصبة﴾[4] قال: لتثقل. أما سمعت قول امرئ القيس:

تمشي فتثقلها عجيزتها　　مشي الضعيف ينوء بالوسق

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾[5] قال: أطراف الأصابع. أما سمعت قول عنترة:

فنعم فوارس الهيجاء قومي　　إذا علق الأعنة بالبنان

---

(١) سورة البلد الآية ١٦.
(٢) سورة المعارج الآية ٣٦.
(٣) سورة مريم الآية ٦٥.
(٤) سورة القصص الآية ٧٦.
(٥) سورة الانفال الآية ١٢.

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إعصارٌ﴾[1] قال: الريح الشديدة. أما سمعت قول الشاعر:

فلـــه في آثـــارهـــن خـــوان   وحفيـــف كـــأنـــه إعصـــار

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مُراغَمًا﴾[2] قال منفسحا بلغة هذيل. أما سمعت قول عدي:

واتـرك ارض جهـرة ان عنـدي   رجـاء في المـراغـم والتعـادي

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿صَلْدًا﴾[3] قال: أملس. أما سمعت قول ابي طالب:

واني لقـرم وابـن قـرم لهاشم   لأباء صدق مجدهـم معقـل صلـد

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[4] قال: غير منقوص أما سمعت قول زهير:

فضل الجواد على الخيل البطاء فلا   يعطي بـذلـك ممنـونـا ولا تـرقـا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿جَابُوا الصَّخْرَ﴾[5] قال: نقبوا الحجارة في الجبال واتخذوها بيوتا. أما سمعت قول أمية:

وشـق أبصـارنـا كيما نعيش بها   وجـاء للسمـع أصماخـا وآذانـا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿حُبًّا جَمًّا﴾[6] قال: كثيرا. أما سمعت قول أمية:

---

(١) سورة البقرة ٢٦٦.
(٢) سورة النساء الآية ١٠٠.
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٤.
(٤) سورة القلم الآية ٣.
(٥) سورة الفجر الآية ٩.
(٦) سورة الفجر الآية ٢٠.

ان تغفـــر اللهـــم تغفـــر جـمـــا وأي عبـــد لـــــك لا الـمـــا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿غَاسِقٍ﴾[1] قال: الظلمة. أما سمعت قول زهير:

ظلت تجوب يـداهـا وهـي لاهيـة حتى إذا جنـح الأظلام والـغـسـق

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾[2] قال: النفاق. أما سمعت قول حسان:

أجامـل أقـوامـا حيـاء وقـد أرى صـدورهـم تغلي عليَّ مـراضهـا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾[3] قال: يلعبون ويترددون. أما سمعت قول الأعشى:

أراني قـد عمهـت وشـاب رأسي وهـــذا اللعـــب شين بـــالكبير

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾[4] قال: خالقكم. أما سمعت قول تبع:

شهـــدت عـــلى أحـــد أنـــه رســـول مـــن الله بـــاري النسم

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[5] قال: لا شك فيه. أما سمعت قول ابن الزبعري:

ليس في الحق يـا امـامــة ريــب انما الريــب مـا يقــول الكــذوب

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ﴾[6] قال طبع عليها

---

(١) سورة الفلق الآية ٣.
(٢) سورة البقرة الآية ١٠.
(٣) سورة البقرة الآية ١٥.
(٤) سورة البقرة الآية ٥٤.
(٥) سورة البقرة الآية ٢.
(٦) سورة البقرة الآية ٧.

أما سمعت قول الأعشى:

وصهباء طاف يهود بها فأبرزها وعليها ختم

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿صَفْوانٍ﴾[1] قال: الحجر الأملس. أما سمعت قول أوس بن حجر:

على ظهر صفوان كأن متونه علّلن بدهن يَزْلِقُ المُتَنَزِّلا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾[2] قال: برد. أما سمعت قول النابغة:

لا يبرمون إذا ما الأرض جللها صر الشتاء من الأمحال كالأدم

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿رِبِّيُّون﴾[3] قال: جموع كثيرة. أما سمعت قول حسان:

وإذا معشر تجافوا عن القصد حملنا عليهم ربيبا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَخْمَصَةٍ﴾[4] قال: مجاعة. أما سمعت قول الأعشى:

تبيتون في الشتاء ملأى بطونكم وجاراتكم سغب يبتن خمائصا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا ما هم فيه مُقْتَرِفُونَ﴾[5] قال: ليكسبوا ما هم مكتسبون. أما سمعت قول لبيد:

واني لآتٍ ما أتيت واني لما اقترفت نفسي عليَّ لراهب

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٧.

(٣) سورة آل عمران الاية ١٤٦.

(٤) سورة المائدة الآية ٣.

(٥) سورة الانعام الآية ١١٣.

الفصل الثالث

ابن عباس والحديث النبوي

حرص ابن عباس على التلقي من رسول الله ﷺ وحفظ له رواة الأحاديث الكثير منه.

والأحاديث التي رواها شملت أبوابا كثيرة منها:

الصلاة، والزكاة، والصدقات، والصيام، والحج، والطلاق، والنكاح، والمعاملات، والحدود، والأخلاق، والزهد، والجهاد... الخ.

وكان عكوفا على السنَّة محبا لها، وحاول أخذها من روافدها الطاهرة من أصحاب مدرسة الرسول القائد وزوجاته الطاهرات بل نسب إليه قوله: انما الناس أحاديث وان استطعت أن تكون أحسنهم حديثا فافعل.

ومن كمال خلقه وتواضعه وحبه للعلم والعلماء... أخذ مرة بركاب زيد بن ثابت فقال زيد: لا تفعل يا ابن عباس. فقال له: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقال له زيد: أين يداك؟... فأخرج يديه فقبلها وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وكان ابن عباس يجلس في مواسم الحج ينشر تفسيره، ويشرح أحاديث رسول الله ﷺ.

المعاني:

ان من معاني الحديث عامة صفات عديدة قل أن تجتمع في كلام سواه ومن هذه الصفات الغنى في الأفكار، والعمق والجدة والسمو في الأحكام والتسلسل والغوص في أغوار النفس الإنسانية، وملامسة أبعاد هذه النفس مما مكن لهذه المعاني أن تكون خالدة على وجه الدهر.

ومما يؤثر عن ابن عباس: (إن هذا الا وحي يوحى، ما تلي منه فهو القران وما لم يتل فهو السنة المطهرة).

وهذا أيضا كما كان رأي ابن عباس فهو رأي عبدالله بن عمر وأنس بن مالك وابن مسعود وغيرهم[1]

ونسوق في ايجاز تلك المعاني الرائعة:

١ ـ نرى في الحديث النبوي ثراء ضخما في الأفكار والمعاني، ومما يدل على ذلك ما نجده في استنباط العلماء للأفكار والأحكام العديدة من الحديث الواحد.

٢ ـ وأما عمق هذه الأفكار فذلك واضح من موازنة معاني الحديث بمعاني الشعر الجاهلي، ولا يدع الحديث جانبا من الفكرة مهما دقت دون أن يسلط عليها الأنوار المشعة، ولا عجب في ذلك لأنه قبس من نور الله.

وهكذا فان الحديث أدب عميق كلما أنعمت النظر فيه وقفت منه على جديد، وما أجمل كلمة الرافعي فيه: انه كلام كلما زدته فكرا زادك معنى[2].

٣ ـ الجدة: معظم ما في هذه الأحاديث من معان جديدة كل الجدة. فاجأت الدنيا كلها ولم تفاجئ العرب وحدهم، فالدعوة إلى المساواة دون تمييز

---

(١) أنظر وحي القلم ٣ ـ ٧.

(٢) أنظر وحي القلم ج ٣ ـ ٨.

معنى جديد، نأخذه من قوله - ﷺ - (أيها الناس كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى)[1]. انه معنى جديد بالنسبة إلى الحضارات الفكرية القديمة والحديثة.

٤ - الأحكام: يهزنا في معاني الحديث ما نلاحظه فيها من سمو الأحكام وجلالها. ونريد بالأحكام أن يكون المعنى صحيحا في نفسه مصيبا الحقيقة ذاتها، فيلازم المعنى المؤدى الحق مهما تغيرت الأحوال وتبدلت الظروف ويكون صادقا أبدا لا يتحقق في زمن لأوضاع معينة ومناسبات موقوتة ثم تفارقه صفة الصدق إذا جدت أوضاع ومناسبات أخرى.. ومما يتصل بالأحكام الدقة المتناهية والانسجام والتوافق والتسلسل، فكلامه ﷺ بريء من التنافر والاختلاف.

ولنقرأ هذا الحديث: (ان الصدق يهدي إلى البر، وان البر يهدى إلى الجنة، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدي إلى الفجور، وان الفجور يهدي إلى النار، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[2].

٥ - ومعاني الحديث تغوص في أغوار النفس الإنسانية، وتلامس أعماقها وأبعادها، وتؤثر فيها تأثيرا عميقا.

ان حديثا واحدا كان يكفي لتغيير حياة إنسان تغيير جذريا وكان يكفي ليصوغه من جديد، لأن معانيه كانت تهز وجدانه هزا عنيفا وتؤثر فيه.

ومصداق ذلك هذا الحديث: عن النواس بن سمعان قال: سألت النبي ﷺ عن البر والاثم، فقال: (البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس[3]. وعن وابصة بن معبد. قال: أتيت رسول الله

---

(١) أنظر رياض الصالحين ص ٤٣.

(٢) متفق عليه وانظر رياض الصالحين ص ٤٤.

(٣) رواه مسلم ج ٨ - ٧ وأحمد في المسند ج ٤ - ١٨٢.

ﷺ فقال: (جئت تسأل عن البر؟) قلت: نعم. قال: (استفت قلبك. البر ما أطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب[1]. والاثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وان أفتاك الناس وأفتوك).

لقد زخرت هذه المعاني بالمثل الإنسانية العليا من وحدانية خالصة، وعدالة مطلقة، ومساواة تامة، وخلق رفيع. ان هذه الخصائص المذكورة وغيرها التي توافرت لمعاني الحديث هي التي مكنت لكلام رسول الله من الخلود، وسيبقى خالدًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2].

الأسلوب

نجد في الحديث النبوي الجمال في السبك، والجزالة في الديباجة، والوضوح في الدلالة، والدقة في الوصف والابداع في التشبيه والتصوير، والموسيقى الرائعة في الألفاظ والإجادة في الحوار، والأصالة في العبارة فتوحي إلى النفس بالتأثر والانفعال.

نجد ذلك كله مبللا بندى العاطفة المرهقة، وذلك ما لا نجد له مثيلا في أساليب العرب في جاهليتهم أو صدر الإسلام أو حتى في عصرنا الحديث[3].

١ ـ الجزالة والوضوح

وأول خصائص أسلوب الحديث جمعه بين الجزالة في الأساليب والديباجة والوضوح في الدلالة.

كان ـ عليه السلام ـ يكره التقعر بالاغراب في الحديث كراهية شديدة، ويؤثر الوضوح والسهولةفي التعبير، حتى يكون كلامه مفهوما من السامعين،

---

(١) رواه أحمد في المسند ج ٢ـ ٢٢٧ والدارمي ج٢ ص ٢٤٦.

(٢) أنظر الحديث النبوي ـ محمد الصباغ.

(٣) أنظر الحديث النبوي ـ محمد الصباغ.

وكان من أجل ذلك يترك لهجته القرشية إذا جاءه وفد من القبائل الأخرى، ويكلمهم بالأسلوب المألوف لديهم الذي يستعملونه عادة في أحاديثهم. ويأتي بالمفردات واللهجة التي يتكلمون بها، مما أثار عجب الصحابة وبلغاء العرب.

وقد سمعه علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس وهو يخاطب وفد بني نهد بقوله: اللهم بارك لهم في محضها ومخضها[1] ومذقها وفرقها[2]، وابعث راعيها في الدثر[3] بيانع الثمر، وافجر لهم الثمد[4]، وبارك لهم في المال والولد. من أقام الصلاة كان مسلما، ومن آتى الزكاة كان محسنا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا. لكم يا بني نهد ودائع الشرك[5]، ووضائع الملك، لا تلطط[6] في الزكاة، ولا تلحد[7] في الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة.

والإمام ابن تيمية في أحاديث القصاص يضعف هذا الحديث.

٢ ـ تصوير في الحديث

ومن خصائص أسلوب الحديث القدرة الرائعة على التصوير ودقته وعلى التشبيه الموضح، مما يدل على بلاغة فذة، دانت لها الصور الجميلة ودنت منها فاقتطفت ما رق منها وراق، فأنت ـ في الحديث ـ أمام صور فنية رائعة، متسقة ساحرة، تعجز مواهب الدنيا أن تأتي بأروع منها وأبدع، يفيض هذه الصور والمشاهد خيال رفيع خصب.

وان وفرة الصور الجميلة لتدل على أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يؤثر

---

(١) المحض: الخالص، المخض: ما مخض من اللبن وأخذ زبده.

(٢) المذق: المزج والمراد هنا المخلوط والفرق: مكيال معين.

(٣) الدثر: المال والخصب والنبات.

(٤) الثمد: القليل. أفجر: أكثر.

(٥) الودائع: العهود والمواثيق.

(٦) الوضائع: وضيعة ما يوضع على الملك من ضرائب وزكاة. لا تلطط، أي لا تمنعها.

(٧) أي لا يكون منك ميل عن الحق ما دمت حيا.

التعبير عن المعنى المجرد بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين، لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده ويتأثروا به ولأن الصورة البيانية تزيد في قيمة الأثر الأدبي، وترفع من شأنه وتكسو المعاني أبهة، وتضاعف قواها في تحريك النفوس لها.

وقد ذكر الإمام عبد القاهر الجرجاني قيمة التشبيه وتأثيره في قوة المعنى فقرر أن المعنى يزداد به فخامة وتأثيرا في النفس، وان قائله يستطيع أن يحقق غرضه كاملا، ثم أورد طائفة من روائع الأمثلة وازن بينها وبين أمثالها من الجمل التي تؤدي المعنى نفسه دون صورة، ثم قال: (وان أردت اعتبار ذلك في الفن الذي هو أكرم وأشرف فقابل بين أن تقول: أن الذي يعظ ولا يتعظ يضر نفسه من حيث ينفع غيره وتقتصر عليه وبين أن تذكر المثل على ما جاء في الخير من أن النبي ﷺ، قال: مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه[1].

وفي الحديث طرائق متعددة في التصوير الموفق:

- منها مشاهد تصويرية تعتمد القصة السريعة تارة، والموقف تارة اخرى.
- ومنها التشخيص الحيّ الذي يبث الحياة والحركة في الكائنات الجامدة.
- ومنها التشبيه الذي يقرب الأمر ويوضح المضمون وهو كثير جدا.
- ومنها الكناية المهذبة اللطيفة أو المجاز البليغ الرشيق... الخ.

وبواسطة هذه الطرائق وغيرها مما نجده في الحديث، عمد الرسول ﷺ إلى تصوير المشاعر الداخلية، وتحليل الدوافع النفسية، وتجلية القضايا التجريدية بكل وضوح. وكثيرا ما تكون الصورة في دلالتها مغنية عن الكلام الطويل. ولنضرب بعض الأمثلة على بعض هذه الطرائق:

في صدر التعبير عن فرح الله الشديد بتوبة عبده يعرض لنا الرسول الكريم

(١) حديث صحيح رواه الطبراني من حديث أبي برزة وجندب.

ﷺ صورة عالية صيغت على شكل قصة سريعة. هذا رجل يمشي في الصحراء، فأدركه التعب والجهد فنزل بعد أن وضع على ناقته زاده وماءه، ثم تفاجأ بالرجل لا يجد ناقته، وتفلت منه، فيوقن الموت المحقق. ويأتي شجرة فيضطجع في ظلها... ثم نفاجأ مرة أخرى بالرجل يرفع رأسه فيرى ناقته فوق رأسه، فيفرح فرحا يعقد لسانه... إن فرح الله بتوبة عبده يفوق فرح هذا الرجل.

يقول المصطفى ﷺ: (الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك اذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح...)

وفي موضوع الرفق بالحيوان والشفقة عليه لعجزه نرى لوحة فنية رائعة وردت في إطار قصة سريعة أخرى ولنستمتع برواية المشهد الموحى يقول ﷺ:

بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب فشكر الله له فقفى له قالوا: يا رسول الله: انا لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: (في كل كبد رطبة أجر)[1].

وهناك أحاديث كثيرة وردت على شكل قصص من أشهرها حديث أصحاب الغار[2] وحديث الرجل الذي قتل مئة نفس[3]، وحديث الأبرص

---

(١) رواه البخاري ٣/٩٧، ومسلم ٧/٤٤ عن أبي هريرة.

(٢) انظر رياض الصالحين ص ١٦ باب الاخلاص.

(٣) انظر رياض الصالحين ص ٢٠ باب التوبة.

والأقرع والأعمى[1] وحديث الغلام والساحر والملك[2]... الخ.

أما الأمثلة على التشبيه فما أكثرها[3] وما أكثر ما نجد في الحديث من تشبيهات خالدة رائعة سنورد منها ما يأتي:

في موضوع تأثر مجموع الأمة بأفعال بعض الأفراد، وضرورة وضع حد لحرية الفرد، حتى لا يسيء إلى الآخرين ووجوب التناصح، والأمر بالمعروف. يقول المصطفى ﷺ:

(مثل القائم في حدود الله[4] والواقع فيها[5] كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا. فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا. وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[6].

صورة رائعة حواها هذا التشبيه المحكم الخالد واستطاعت أن تبين ما لا تستطيع الصفحات أن تبينه.

وفي موضوع المرأة وكونها تختلف عن الرجل، وأنه لن يستطيع أن يغير من طبيعتها، يقول ﷺ: (المرأة كالضلع إن اقمتها كسرتها وان استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج)[7]. وفي رواية لمسلم (... كسرتها وكسرها طلاقها...).

(١) انظر رياض الصالحين ص ٤٩ باب المراقبة.

(٢) انظر رياض الصالحين ص ٣٣ باب الصبر.

(٣) انظر كثيرا منها في كتاب (أقيسة النبي) للناصح الحنبلي ومعظمها مبنية على التشبيه حقق هذا الكتاب د. علي أحمد الخطيب وأحمد حسن جابر.

(٤) حدود الله: ما نهى عنه الله والقائم فيها: أي المنكر لها الذي يدفعها ويزيلها.

(٥) الواقع فيها: أي مرتكب المعصية.

(٦) رواه البخاري ٣/١٢١.

(٧) رواه البخاري ٣/١٢١.

يجسد الرسول العظيم ﷺ المعنى السابق بهذه الصورة الملموسة: ان الضلع أعوج... ولن يستقيم... فان قبل الرجل المرأة على ما هي عليه سعد واستمتع، وعاش عيش الهناءة والسرور، وان رام تغييرها عن طبيعتها استحالت الحياة المشتركة، وكان الفراق والطلاق. وفي موضوع حرص الرسول الكريم على دعوة الناس الى الحق وهم يتفلتون منه. يقول المصطفى: (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي)[1].

صورة بليغة رائعة تعتمد على مشهد يتكرر كثيرا في حياة القوم، ويرونه كل مساء، وهو في عمقه ودقته فاق حد التصور، فالمعاصي، والشرك ومخالفة أمر الله نار محرقة، والمقبلون عليها فراش لا عقول لهم وجنادب لا تعي، والرسول الكريم يدفع الناس وبشرهم عن الوقوع في الهلاك وهم ماضون في تقحم النار والوقوع فيها.

وفي موضوع تعيّن الرزق وتكفل الله به وضرورة التوكل على الله في ذلك يقول رسول الله ﷺ: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[2]..

مثل رائع يقرب المسألة بأمر ملموس يراه الناس جميعا، وذلك لأن موضوع الرزق كثيرا ما يحمل نفرا من الناس على الرضى بالهوان خشية أن يضيع عليهم شيء من الكسب.

يصور هذا الحديث أن الرزق آت والله متكفل به وليس على الإنسان أن يعطي هذا الموضوع من الأهمية أكثر مما يستحق بحيث يرضى بالذل من أجل ذلك، فالطير لا تعرف لها موردا معينا ومع ذلك فهي لا تعود في المساء إلا وقد امتلأت بطونها.

---

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة وانظر في رياض الصالحين ص ١٤٠.

(٢) رواه الترمذي عن عمر.

فعلام يرضى المسلم بالدنية ويقبل الهوان؟ وعلام يخالف أمر الله من أجل دريهمات معدودات يظن فيها زيادة رزقه؟ وفي الحديث النبوي صور جميلة وردت من طريقة التشخيص الحي الذي يبث الحياة، والحركة والتفكير في الكائنات.

والأمثلة على ذلك مستفيضة سأقتصر على ايراد بعضها دون اسراف في التحليل.

يقول المصطفى ﷺ: (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها فلم تدر شماله ما أنفقت يمينه)[1]. نحن هنا أمام يد ليست كالأيدي؛ إنها يد تدري وتعرف، وقد كان ذاك الرجل موفقا عندما استطاع اخفاء الصدقة عن تلك اليد. لقد نفخ هذا الحديث في اليد فأضحت شخصا. هذا وفي الجملة صورة بالغة الدلالة في الإخفاء... أجل لقد تمت الصدقة ولم يدر بها أحد، بل لم تدر اليد الشمال ما فعلت اليد اليمين.

يقول المصطفى عليه السلام: (ان قريشا قد نهكتهم الحرب)[2].

وهناك صور جميلة وردت من طريق الاستعارة الرائعة كما في قوله: (رفقا بالقوارير)[3].

وهناك صور جميلة وردت من طريق الكناية المهذبة اللطيفة. كما في قوله ﷺ: (من كشف قناع امرأة وجب لها المهر) يكني عن الدخول بها بكشف القناع، لأنه يكشف في تلك الحالة غالبا[4].

وهكذا فان خاصة التصوير من خصائص أسلوب الحديث. وقد بلغت

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد ٢/٤٣٩ ـ والبخاري ١/١١١، ومسلم ٣/٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في قصة صلح الحديبية ـ وأحمد ٤/٣٢٨.

(٣) أخرجه البخاري ٨/٣٢ ـ ومسلم ٧/٧٨.

(٤) الكنايات للجرجاني ص ٦.

مستوى من الجودة والإحكام لا نظير له في غير هذا اللون السامي من ألوان الأدب البشري.

٣ ـ دقة الوصف في الحديث

في الحديث النبوي صور وصفية نادرة في دقتها وإحاطتها وواقعيتها. والملاحظ أن الأوصاف في الحديث جاءت مقتضية وفق الخاصية الأصلية التي يصدر عنها الحديث في شتى الأغراض وهي خاصية الايجاز.

وان خلا الحديث من وصف الطبيعة والجهال فذلك لأن الوصف يعتمد في هذه الشؤون على الخيال، والخيال ـ كما هو معروف ـ دعامة من دعامات الشعر. وقد أطلق حسان الشعر على عبارة نثرية قالها ابنه عبد الرحمن لاعتمادها على الخيال، ذكر الرواة أن عبد الرحمن بن حسان لسعه زنبور يوما وهو صبي فجاء أباه يبكي.

فقال: ما لك؟

فقال: لسعني طائر ملتف في بردة حبرة[١].

قال حسان: قلت والله الشعر[٢].

ولقد صدق حسان اذ أن هذا الوصف كان بعين شاعر ذي خيال. وما كان ينبغي لرسول الله ﷺ أن يكون شاعرا، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[٣].

ومن هنا كان وجود الخيال في الحديث النبوي أمرًا غير متوقع إلا عندما

---

(١) حبرة: كعنبة، ضرب من ثياب اليمن ذو حمرة تضرب الى سواد.

(٢) أنظر مقدمة ديوان حسان للبرقوقي.

(٣) سورة يس الآية ٦٩.

يكون مصدرا للتشبيه والتمثيل والتصوير. ومن هنا لم نجد وصف الطبيعة والجمال في الحديث.

يقول الاستاذ الرافعي:

(إن الكلام في وصف الطبيعة والجمال والحب على طريقة الأساليب البيانية انما هو باب من الأحلام، اذ لا بد فيه من عيني شاعر أو نظرة عاشق، وهنا نبي يوحى إليه، فلا موضع للخيال في أمره الا ما كان تمثيلا).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان بلاغة رسول الله - ﷺ - انما سخرت للدعوة وظهرت في مجالاتها، ولم تكن صناعة فنية يمارسها المصطفى ﷺ في كل الأغراض والموضوعات كما يمارسها كل بليغ، بل لقد ترفع الرسول ﷺ عن كل ما لا يليق بمكانة النبوة السابقة من الموضوعات والأساليب.

وقد اتخذ الحديث وسائل عديدة للوصف، من أهمها اعتماده التشبيه والتصوير، فلقد كان الرسول العظيم ﷺ يؤثر أن يستخدم التشبيه المحكم وسيلة فعلية للوصف الدقيق الذي يستجمع شرائط الجودة كلها. ولنضرب بعض الأمثلة ففيها البيان فمن ذلك وصف البخيل والكريم.

عن أبي هريرة قال: ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، قد اضطرت أيديهما ثدييهما وتراقيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله، وتعفو أثره. وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة مكانها. قال: فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعه في جيبه، فلقد رأيته بوسعها ولا توسع[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري ٩٨/٢، ومسلم ٨٨/٣.

جاء في (شرح مسلم) للنووي:

وهو تمثيل لنماء المال بالصدقة والإنفاق. والبخيل يظن ذلك. وقيل: هو تمثيل لكثرة الجود والبخل، وان المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء، وتعود ذلك. وإذا أمسك صار ذلك عادة له. وقيل... الصواب الأول والحديث جاء على التمثيل لا على الخبر عن كائن، وقيل: ضرب المثل بهما لأن المنفق يستره الله تعالى بنفقته ويستر عوراته في الدنيا والآخرة كستر هذه الجبه لابسها. والبخيل كمن لبس جبة الى ثدييه فيبقى مكشوفا بادي العورة مفتضحا في الدنيا والآخرة[1].

وقال الأديب المصري الرافعي في شرح هذا الحديث: (فأنت ترى ظاهر الحديث ولكن فنه العجيب في هذا الجديد الذي يراد به طبيعة الخير والرحمة في الإنسان. فهي من أشد الطبائع جمودا وصلابة واستعصاء متى اعترضتها خطوط النفس الحريصة وأهواؤها، ومع ذلك فان السخاء بالمال يبسط فيها، وينتهي في الطبع الى أن يجعلها لينة فلا تزال تمتد وتسبغ حتى يكون كمال طبع السخاء هو كمال طبع في النفس الكريمة فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضة عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد ومعاناة القوة في الصراع ونحوه.

أما الشيخ فلا يناقض تلك الطبيعة ولكنه يدعها جامدة مستعصية، لا تلين ولا تستجيب ولا تتيسر. وقد جعل الجبة من الثدي الى التراقي، وهذا من أبدع ما في الحديث لأن كل إنسان منفق على ضروراته، يستوي في ذلك الكريم والبخليل، فهما على قدر سواء من هذه الناحية، وانما التفاوت فيما زاد، فهاهنا يبسط الكريم بسطه الإنساني، أما البخيل فهو (يريد) لأنه إنسان والإرادة عمل عقلي لا أكثر، فإذا هو حاول تحقيق هذه الإرادة وقع من طبيعة نفسه الكزة فيما يعاتبه من يوسع جبة من الحديد لزقت كل حلقة من

---

(١) شرح مسلم ١٠٩/٧ أقول: وليس يبعد عندي أن تكون هذه المعاني كلها مراده.

حلقاتها في مكانها فهي مستعصية متماسكة، فهو يوسعها فلا تتسع.

ألا ترى كيف تتوجه الحجة، وكيف تدق الفلسفة وهي في أظهر البيان وأوضحه؟ وهل تحسب طبيعة البخيل في دقائقها النفسية لو هي نطقت بالغة من وصف نفسها هذا المبلغ من جمال الفن وابداعه؟

وهو - بعد - وصف لو نقل إلى كل لغات الأرض لزانها جميعا، ولكان في جميعها كالإنسان نفسه لا يختلف تركيبه فلن يكون بثلاثة أعين لا في بلاد شكسبير ولا في بلاد الزنوج[1].

ومن ذلك وصف موقف الناس من الدعوة:

عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب[2] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى انما هي قيعان[3]. لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[4].

جاء في (فتح الباري)[5]: (ضرب النبي ﷺ لما جاء به من الدين مثلا بالغيب العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه. وكذا كان حال الناس قبل مبعثه، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت. ثم شبه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العامل

---

(١) وحي القلم ٣/١٤.

(٢) الاجادب جمع جدب وهو الارض الصلبة التي لا ينضب منها الماء.

(٣) قيعان جمع قاع وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت.

(٤) متفق عليه - راجع رياض الصالحين - ص ٩١.

(٥) فتح الباري ١/ ١٧١.

المعلم فهو بمنزلة الأرض الطيبة، شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها. ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله، أو لم يتفقه فيما جمع لكنه أداه لغيره فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينتفع الناس به وهو المشار إليه بقوله: (نضر الله امرأً سمع مقالتي فأداها كما سمعها). ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء.

وهذه الصورة المنتزعة من حياة العرب الذين يهتمون بالمياه استطاعت أن تصف موقف الناس من الدعوة الموقف الدقيق الرائع الموجز.

٤ ـ موسيقى الاسلوب في الحديث النبوي

وهذه خاصة أخرى من خصائص أسلوب الحديث النبوي، تواجه أصحاب مدرسة الرسول الكريم وفي مسجده الشريف وهم يستمعون إليه وكأن على رؤوسهم الطير.

ان الموسيقى الحانية سمة أساسية من سمات الجود تقي الأسلوب فهي مرتبطة بالموهبة، والأذن المرهفة، والذوق الرفيع، والمشاعر الصافية والقلب النبيل الذي يوائم بين الكلمة الهادفة وذوق المستمع الحساس.

وموسيقى الكلام بلغت حد الكمال الباهر المعجز في قرآن ربّنا وقد رسم له صورة باهرة سامقة الأستاذ المرحوم سيد قطب في كتابة القيم (التصوير الفني في القرآن). فكشف عن بلاغة أسلوبه الرفيع وعباراته الذهبية ومأثوراته التي بلغت حد الإعجاز فيما رويت عنه في كتب التفسير، ومصطلح الحديث، وتفسير القرآن بالقرآن.

ان هناك موسيقى عذبة رائعة تناسب في مجرى كلمات الأحاديث النبوية الباهرة، وفي الجملة السامقة. بل في كل كلمات النبوة.

إذن فموسيقى الحديث النبوي تسير عبر قنوات من:

١ ـ حروف الكلمة الواحدة، التي تشكل الموسيقى الداخلية للكلمة.

٢ ـ ومن مجموع كلمات تشعر بالموسيقى الهادرة في الجمل المنسقة.

وسأحاول إعطاء صورة واقعية لذلك:

١ ـ من خلال التركيب الاجتماعي، في ظلال اليتم والقهر والقبلية المغيبة والظلم القاهر، ومخالفة الأعراف السليمة، وكل ما على الأرض من جاهلية تفجر غضب الحليم تحولت البؤرة الشفافة في قلب ابن عبدالله إلى قدرة قادرة على اختيار الكلمات من ذوب قلبه الصافي، وحسه السامي من كلمات ذات ايقاع موسيقي خلاب، بحيث يتوافر لكل كلمة منها أمران اثنان لها أهمية كبرى في تلبيس الكلمة ذات الجرس الرائع، وموسيقى منغمة فيها من التعاطف بين المعنى واللفظ والانسجام في الإيقاع ما يثير انتباه السامع كاملا.

٢ ـ التعاطف بين المعنى واللفظ واضح في الكلمة الحديثية، وهو يُضْفي على الكلمة موسيقى معينة، حتى أصبحت هذه الموسيقى تخدم المعنى وتقود إليه وتدل عليه.

ومن ذلك كلمة (يُغَرغِر) التي تحكي صوت من يعالج الموت في حنجرته والتي وردت في قوله ﷺ (ان الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١].

فموسيقى هذه الكلمة ساعدت على تصوير المعنى وتقريبه بشكل تمثيلي.

٣ ـ الانسجام في أصوات الحروف وايقاعها: لو ذهبنا نبحث عن كلمة تتنافر حروفها في الحديث لما استطعنا أن نجد شيئا منها أبدا. بل ان كلمات الحديث تتمتع بجرس موسيقي رائع، تنساب حروفها على اللسان انسيابا، وترتاح الأذن لسماعها، ولنقرأ هذا الحديث على سبيل المثال:

---

(١) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ وهو حديث حسن.

(حفت النار بالشهوات، وحفَّت الجنة بالمكاره[1]، فانا نرى كل كلمة من كلماته منسجمة الأصوات، سهلة النطق، مأنوسة الوقع على السمع.

٤ ـ أما الجملة فان موسيقاها الجيدة تبدو لك من ترديد حديث واحد أكثر من مرة فقد تكون الكلمةمقبولة في ذاتها، ولكنها عندما تجتمع مع كلمات أخر يحصل تنافر بينها وتنبو عنها الأذن ويستثقل النطق بها اللسان.

ان الكلمات الحديثية عندما تضم الواحدة منها إلى أخواتها يحلو جرسها، وتزيد عذوبتها، ويحسن ايقاعها.

واقرأ إن شئت قوله ـ عليه السلام ـ: (يا فلان إذا أويت الى فراشك فقل: اللهم اني أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت. فانك ان مت من ليلتك مت على الفطرة، وان أصبحت أصبت خيرا)[2].

ولعل سبب هذه الموسيقى الساحرة في الجملة هنا يعود إلى الانسجام في ايقاع الكلمات وإلى هذا التآلف الرائع بين مخارج حروف الكلمات، فأنت لا ترى ازدحاما بحرف ثقيل في الحديث، ولا انتقالا مفاجئا من ايقاع الى ايقاع... انها تتناسب وجو النوم الهادئ الذي يهيِّئ الجو المأنوس المأمون الذي يشعر صاحبه بالطمأنينة، لأنه يسلم نفسه إلى الله ولأنه يتوجه ويلجأ إليه. ما أشبه هذا الحديث باللحن الحلو الذي يريح الأعصاب، ويمهد للنوم... أضف إلى ذلك ترديد كلمة (اليك) التي هي بمثابة فصل ينهي الجملة، وكذلك فان الدعاء ختم بمخاطبة الله سبحانه بصيغة المفرد، وبأفعال تنتهي بالتاء المهموسة التي تلائم جو الاسترسال في النوم.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة وانظر في رياض الصالحين ص ٦٧.

(٢) متفق عليه عن البراء بن عازب ـ وانظر في رياض الصالحين ص ٥٧.

أما الكلام بجمله المتعددة فان مما يعطيه لحنا جميلا الأمور الآتية:

أ ـ الموسيقى الداخلية للألفاظ والجمل.

ب ـ الموازنة والتقابل.

ج ـ السجع.

وقد عرضنا الموسيقى للألفاظ والجمل.

ولنوجز القول في الموازنة فيما يأتي:

ان أثر الموازنة والتقابل في الجمل له دلالة واضحة في موسيقى الكلام وذلك أن الكلام يكون مقسما يتيح للقارئ أن يجعل صوته موزعا بين جزأين فتكون فقرات الجملة المتقابلة مؤدية لحنا معينا يعطي الكلام الموسيقى الجميلة.

وفي الأمثلة بيان شاف:

(إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)[1].

ان المقابلة والموازنة بين طرفي الكلام جلية في هذا الحديث، ففي الطرف الأول بسط اليد في الليل ليتوب مسيء النهار، وفي الطرف الثاني بسط اليد في النهار ليتوب مسيء الليل.

(عجبا لأمر المؤمن: إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن: ان أصابته سراء شكر، فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[2]. فلا تزيد الجملة الثانية حرفا من ناحية العدد على الجملة الاولى، وكل ما في الأمر وضع كلمتي (ضراء) و(صبر) مكان (سراء) و(شكر).

وعن ابن عباس (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ: (يا غلام اني

---

(١) رواه مسلم عن أبي موسى الاشعري، وانظره في رياض الصالحين ص ١٩.

(٢) رواه مسلم عن صهيب.

أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله. واذا استعنت فاستعن بالله، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الاقلام وجفت الصحف، وأعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا)[1].

ففي الشرط وجوابه (احفظ الله يحفظك، اذا سألت فاسأل الله تعرف الى الله في الرخاء يعرفك...) موازنه تضفي على الاسلوب ايقاعا موسيقيا رائعا... وفي نهاية الحديث موازنة وتقابل بين جملتين: احداهما تقرر سعي الناس في أمر وتقرر الاخرى قضاء الله وقدره المحتوم.

أما السجع فأنه يأخذ سمته في ألوان الموسيقى ولنقرأ في هذا الحديث (يا أيها الناس: افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام وصَلُّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)[2].

ولنقرأ الحديث الآتي لنجد فيه السجع والمقابلة والموسيقى الداخلية للألفاظ: (بسم الله، توكلت على الله، اللهم أعوذ بك أن أَضل أو أُضل، أو أَزل، أو أُزل، أو أَظلم أو أُظلم، أو أَجهل أو يُجهل عليّ)[3]. ولنردد هذا الحديث لنرى التساوق في ايقاع الكلمات، والسحر في لحن الموسيقى بشكل قل نظيره في أي كلام: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة بالحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)[4].

---

(١) رواه الترمذي ٢٠٣/٧، وفي رياض الصالحين ص ٤٨ وزواه أحمد في مسنده رقم ٢٦٦٩.

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن سلام.

(٣) رواه الترمذي، وأبو داود عن أم سلمة.

(٤) رواه الترمذي عن أبي ذر وانظره في رياض الصالحين ص ٤٧.

وأخيرا فاني أود أن أشير إلى أن موسيقى الحديث النبوي ذات ألوان تختلف باختلاف الغرض.

ففي مجال الوعظ والترهيب نجد القوة والفخامة. وفي مجال الدعوة والترغيب نجد الرقة والليونة. وفي الدعاء قبل النوم نجد اللحن الهادئ الخفيف. وفي الدعاء عند الحرب نجد اللحن الحماسي العنيف. وهكذا بهذه اللمحة ـ وهي غيض من فيض ـ يتضح لنا أن أسلوب الحديث يمتاز بالموسيقى الرائعة التي تعد من خصائص الأسلوب المبين.

٥ ـ الحوار في الحديث

أسلوب الحوار محبب إلى النفس، يضفي الحيوية على النص الأدبي الجميل، ويدفع الملل والشرور، ويشد انتباه السامع، ويجعل الاقبال على متابعة النص أشد، والذهن أكثر تفتحا وتجاوبا مع البليغ.

وذكروا في وصف الحوار الجيد أنه يجب أن يحتوي على صفتين أساسيتين: التركيز والإيجاز، وقرروا أن الطول في العبارة الحوارية يميت الحيوية. وشأن الحوار الجليل ملموس في حياتنا العملية في مجالس الناس، وكان للرسول الكريم طرق في إثارة الحوار أمام أصحابه وسامعيه. فمن هذه الطرق:

أ ـ أن يأتي بجملة تبدو غريبة لأول وهلة، وقد تكون معارضة لما تعلم الصحابة من أحكام هذا الدين الجديد، فتستثير أسئلتهم... انهم جيل مثالي ربوا تربية اسلامية فاضلة فهم لا يسكتون على أمر يرونه غريبا أو متعارضا مع ما فهموا من أحكام دينهم.

ولنضرب على ذلك مثلا من الأحاديث التالية:

(عن أبي ذر أن ناسا قالوا: يا رسول الله ذهب أهل الدثور[1] بالأجور

---

(١) أي الاموال. جمع دثر.

يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم قال: (أوليس الله قد جعل لكم ما تصدقون به؟ ان كل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميد صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة).

قالوا: يا رسول الله أتأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)[1].

ففي قوله - ﷺ -: (وفي بضع أحدكم صدقة) غرابة تثير حوارا، وهذا ما حدث إذا أن الصحابة لم يستطيعوا السكوت عليها، لأن الذي وقر في أذهانهم أن الأجر انما يكون على الواجبات التي يتحمل المسلم في أدائها المشقة، أما الشهوات التي يمارس الإنسان فيها غريزته فكيف يكون له فيها أجر إن أتاها؟ فقالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

ثم يبين لهم ﷺ أن تصريف الشهوات في السبيل الذي شرعه الإسلام عمل طيب يثاب عليه فاعله، لأنه ان وضع هذه الشهوة في الحرام كان مؤاخذا مذنباً. وكذلك فان من يحمل نفسه على التزام أحكام الشرع ولا يتعدى حدود الله مثاب مأجور. فإتيانه ﷺ بهذه الجملة أثار حوارا مركزا حرّك السامعين وجعلهم أكثر تجاوبا.

قال رسول الله ﷺ: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما). فقال رجل يا رسول الله: أنصره إذا كان مظلوما، أرأيت ان كان ظالما كيف أنصره؟. قال: (تحجزه - أو تمنعه - من الظلم فان ذلك نصره)[2] وهذا مثل آخر على استثارة الحوار (انصر أخاك ظالما) جملة غريبة أشد الغرابة، لا يمكن للفرد

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري عن أنس وفي رياض الصالحين ص ١٢٥.

المسلم الذي ربي في مدرسة النبوة المحمدية أن يقر مثل ذلك، لأنه يراها متعارضة مع ما فهمه من أحكام هذا الدين الذي يحارب الظلم ويأباه، فلا بد من أن يثور في نفوسهم استغراب واستيضاح، فينطلق صوت رجل سائلا بأدب وبجرأة أيضا: أرأيت ان كان ظالما كيف أنصره؟

وهنا يأتي التوضيح والبيان فيستقر الجواب في النفس أتم استقرار. قال رسول الله - ﷺ - (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار).

قلت[1]: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: (انه كان حريصا على قتل صاحبه)[2].

تقريره ﷺ أن المقتول في النار يثير الاستغراب لأول وهلة عند سامع الحديث فيحمله ذلك على السؤال.. ويأتيه الجواب ويتولد من ذلك كله حوار جميل.

قال رسول الله - ﷺ - (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟

قال: (من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)[3].

سؤال وجيه: من يأبى دخول الجنة؟

أثار هذا السؤال استثناؤه - ﷺ -: إلا من أبى، ويأتي الجواب، ويكون من ذلك هذا الحوار المركز الجميل.

هذه أحاديث سقتها مثلا وشاهدا إذ نرى فيها أنه ﷺ كان يحملهم على أن يسألوه، وفي ذلك من بعث الحوار في الكلام القصير ما يأسر اللب ويستحوذ على الإعجاب.

---

(١) القائل هو نفيع بن الحارث الثقفي راوي الحديث.

(٢) متفق عليه رواه البخاري ١/١٢.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة ٩/٦٧.

ب ـ ومن هذه الطرق أن يورد السؤال بشكل مشوق يرغبهم في أن يعرفوا الجواب. وذلك كأن يذكر لهم أمرا عظيما، ومقصدا هاما، وغرضا مرجوا، يسعى إليه كان مسلم، ثم بعد ذلك يورد السؤال: ألا أدلكم عليه؟ ومن الطبيعي أن يكون الجواب من الصحابة (بلى). ومن ذلك الحديثان الآتيان:

الحديث الأول قوله - ﷺ -: ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟. قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا الى المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط)[1].

انه ما يكون سببا لمحو الخطايا، ورفع الدرجات، مطمح يسعى إليه كل مسلم ويترقب السامعون الدلالة عليه، ويصغون إليه، ويعقدون العزم على فعله، مشرقة نفوسهم، مبتهجة قلوبهم.

الحديث الثاني قوله ﷺ: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟) ثلاثا. قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين) وكان متكئا. فجلس، فقال: (ألا وقول الزور، وشهادة الزور) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[2]. هنا أمر مكروه تأباه النفوس المؤمنة، والقلوب التي تخشى الله سبحانه... أكبر الكبائر... إنه شيء مخيف... ويكرر ﷺ السؤال ثلاث مرات ويتوجس خيفة: بلى يا رسول الله. وعندئذٍ يأتيهم الجواب.

وهكذا فان الحوار في مثل هذه النماذج كان نتيجة لسؤال معهم يطرحه الرسول الكريم، فيهيّئ الأذهان للسماع حتى لا يكون التقرير المجرد، ويأتي الجواب بعد ذلك.

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ١/١٥١.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة ١/١٥١.

وقد نجد أحيانا أحاديث من هذا القبيل وكلها ليس فيها جواب السامعين بل فيها السؤال والجواب كما في الحديث الآتي:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)[1].

ج - ومن هذه الطرق أن يوجه - ﷺ - الى الصحابة سؤالا ويستمع الى أجوبتهم، ثم يناقشهم في هذه الأجوبة، ويبين لهم الصواب، وقد يعتذرون عن الإجابة ويقولون الله ورسوله أعلم فيدلي بالجواب. ولننظر في الأمثلة:

قال رسول الله ﷺ: (أتدرون من المفلس؟). قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: (ان المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[2].

ثم ألقى ﷺ على الصحابة تعريف المفلس دون إثارة هذا الحوار، لكن من الممكن أن يمر على آذان السامعين مرورا مؤقتا سرعان ما ينسون مضمونه، ولكن تبين لهم بعد هذا الحوار أن المفلس غير ما كانوا يعهدون... ومن أجل ذلك فانهم لا ينسونه أبدا.

ومثله حديث جبريل الطويل حيث سأل الرسول ﷺ بعد انطلاقه: (أتدري من السائل يا عمر؟) قال عمر: قلت: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: (فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[3].

---

(١) رواه مسلم ١/٥٣.

(٢) رواه مسلم ٨/١٨٣.

(٣) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب ١/٢٩.

ومثله حديث ابن مسعود عن الرسول الكريم قال: (فما تعدون الصرعة فيكم؟) قلنا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: (ليس ذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب)[1].

د - وهناك حوار نجده في الحديث ليس مما تقدم... بل هو حوار عادي لم ينعمده الرسول ﷺ ولكنها الوقائع أملته.. فوصل الينا على شكل حوار، غير أني أقدر أن الرسول - ﷺ - كان يرحب بمثل هذه المحاورات أشد الترحيب لأنها مما كان يحرص عليه كما رأينا.

فهذا أبو ذر يتوجه من تلقاء نفسه بسؤال بل بسلسلة من الأسئلة ويطرحها على الرسول ﷺ فيتولى صلوات الله وسلامه عليه اجابته على أسئلته ولنستمع إلى أبي ذر:

قلت: يا رسول الله أي الاعمال أفضل؟

قال: (الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله).

قلت: أي الرقاب أفضل.

قال: (أنَفسُها عند أهلها وأكثرها ثمنا).

قلت: فان لم أفعل.

قال: (تعينَ صانعا أو تصنع لأخرق)[2].

قلت: يا رسول الله أرأيت ان ضعفت عن بعض العمل؟

قال: (تكف شرك عن الناس، فانها صدقة منك على نفسك)[3]. والأمثلة كثيرة ولأن الصحابة كانوا من الحرص على معرفة أحكام دينهم ومن أجل ذلك فما نجد أكثر ما نجد الأحاديث التي بنيت على أسئلة. ومن ذلك أن رجلا سأل الرسول الكريم: أي الإسلام خير؟ فقال المصطفى: (تطعم الطعام

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ٨/ ٣٠ - وقد روي برواية أخرى.

(٢) الأخرق: الذي لا يتقن ما يحاول فعله.

(٣) متفق عليه من رواية أبي ذر.

وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف).

هـ ـ وهناك أحاديث صيغت على شكل قصص قصيرة، قصها الرسول ﷺ على المسلمين للعبرة والدعوة، ولا يخلو حديث منها في الحوار الرائع المعبر وهذا طبيعي ما دامت قد وردت على شكل أقاصيص، فالحوار دعامة القصة وأساس أصيل فيها. والأمثلة على ذلك كثيرة، ولكن طولها يحول دون الاستشهاد بها.

فمن ذلك حديث الأعمى والأقرع والأبرص[1]. وحديث القاتل والراهب والعالم، وحديث الملك والساحر والغلام وحديث جريج وغيرها[2].

٦ ـ الإيجاز

ومن خصائص اسلوب الحديث النبوي الإيجاز: والإيجاز ـ عند البلاغيين ـ هو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وهو قسيم المساواة والإطناب عندهم. ويقوم ـ في العصر الحاضر ـ جدل حول الإيجاز وموقف علماء البلاغة منه، ومن الذين أثاروا هذا الحوار، العلامة الفاضل الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله تعالى بما ينم عن أصالة وحسن تذوق في كتابه القيم: (النبأ العظيم). وهو يرى أن الإيجاز هو المقدار الذي يؤدى به المعنى بأكمله بأصله وحيلته على حسب ما يدعو إليه المقام من اجمال وتفصيل بغير اجحاف ولا اسراف، ويعتبر أن كل من نقص عن هذا القدر أو زاد حائد عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد.

فالكلام الطويل ان حوى كل جزء فيه فائدة تمس الحاجة إليها ولا يسهل أداء تلك الفائدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب، وان أمكن أداء الأغراض فيه كاملة بحذف شيء أو بابداله بعبارة أخصر منه كان حشوا أو

---

(١) انظر في باب المراقبة من رياض الصالحين ص ٤٩.

(٢) انظر في باب فصل صفة المسلمين من رياض الصالحين ص ١٣٤.

تطويلا معيبا. والكلام القصير ان وفى بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة لمقتضى الحال كان هو التوسط المطلوب. والا كان بترا أو تقصيرا معيبا[1].

وهذا الرأي سديد فيما أرى على أن ننبه إلى أن الإيجاز مراتب، فمنه ما يبلغ حد الإعجاز وهو القرآن الكريم، ومنه ما يبلغ الكمال في البيان البشري وهو ما نجده في جوامع كلام المصطفى ومنه ما دون ذلك.

ومهما يكن من أمر هذا الجدل فان اجماع النقاد قديما وحديثا منعقد على الثناء على الايجاز وتقديمه واحلاله المرتبة السامية في الكلام العربي المبين، وعلى أنه أشد تأثيرا في السامعين... وقرروا أنه لا يقوى عليه الا الفصحاء، ولهم في ذلك أقوال عديدة تبين منزلته ومزاياه كقولهم: البلاغة والإيجاز

والإيجاز قوة في التعبير أو امتلاك لناصية اللغة، وهو أصلح للحفظ وللرواية والتمثيل، ولا بد في الإيجاز البليغ من الوضوح التام، فان لم يكن الكلام وافيا بالغرض دالا على المراد فهو الاخلال، وهو عيب في الكلام كالتطويل. ولا يؤتى الإيجاز الا من رزق حدّة في الذهن، وارهافا في الإحساس البياني، ومعرفة تامة بدلالة المفردات، وإدراكا واعيا لأحوال المخاطبين وقد اجتمع ذلك كله في الرسول ﷺ على أكمل وجه. وانعكس في لسان أصحابه وبلاغة كلامهم، وسمو أفكارهم وملكاتهم.

والإيجاز هو السمة البارزة التي تميز الحديث النبوي، وبذلك وصفه البلاغيون والقادة.

قال ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣هـ. بعد أن أورد عدة أحاديث أمثلة على الإيجاز: (ومثل هذا كثير في كلامه (عليه السلام) ومن أولى منه بالفصاحة، وأحق بالإيجاز وقد قال: (أعطيت جوامع الكلم)[2].

---

(١) النبأ العظيم ـ للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٤٣.

(٢) العمدة ـ لابن رشيق ج ١ ص ٢٢٤.

وقال أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ. بعد أن أورد روائع من كلامه ﷺ: (فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظه، وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها وابنها بناء آخر فانك تجدها في أضعاف هذه الألفاظ)[١].

وكذلك صنع ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧هـ. عندما علق[٢] على نماذج أوردها من كلامه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ قائلا: (وكلام النبي ﷺ، كله هكذا كما قال: (أوتيت جوامع الكلم). وقد أكثروا من الاستشهاد بكلامه عليه الصلاة والسلام على الإيجاز. وكان يغلب على البيان النبوي الرفيع القِصَر، فقلما كان يطيل عليه السلام، إذا تكلم إلا ما يروى عنه في بعض الحالات إذا اقتضت المصلحة ذلك.

فقد روى أبو سعيد الخدري انه ﷺ خطب بعد العصر ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حمرة على أطراف السعف[٣]. وليس معنى هذا أن كلامه ﷺ في هذه الخطب الطويلة قد جانب الإيجاز، فاننا عندما ننظر في هذه الخطب الطوال التي رويت نجد سمة الإيجاز ملازمة لجملها واقرؤوا ان شئتم ـ ما نقل أبو سعيد الخدري من هذه الخطبة قال: قال رسول الله ﷺ: (ان الدنيا حلوة خضرة، وان الله مستخلفكم فيها، فلينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة اسرائيل كانت من النساء)[٤].

والرائع في ايجاز الحديث انه بعيد عن التكلف، وأنه كان سجية للنبي ﷺ يصدر عنها في حديثه كله، طويلة وقصيرة وكان عليه الصلاة والسلام يأمر به أصحابه فقد روي عنه ﷺ أنه قال لجرير بن عبدالله البجلي: (يا

---

(١) الصناعتين ـ لابي هلال العسكري ص ١٧٨.

(٢) المثل السائر ـ لابن الاثير ج ٢ ص ١١٦.

(٣) انظر اعجاز القرآن للباقلاني ص ١٣٣ وفي الرسالة ٣/١١٥.

(٤) رواه مسلم وانظر في رياض الصالحين ص ٥٢.

جرير اذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف)[1].

كما كان النبي ﷺ يكره الثرثرة والثرثارين فقد قال: (إن أبغضكم من مجالس يوم القيامة أسوؤكم أخلاقا والثرثارون المستشرقون المتفيقهون)[2].

وروي أن اعرابيا تكلم عند رسول الله ﷺ وطول فقال الرسول: (كم دون لسانك من حجاب)؟ قال: شفتاي وأسناني. قال: (فان الله - عز وجل - يكره الانبعاق في الكلام، فنضر الله وجه امرئ أوجز في كلامه فاقتصر على حاجته)[3]. وقد جمع الإيجاز النبوي الى احتوائه على المعاني الكثيرة الخصائص الاسلوبية التي سبق أن تحدثنا عنها.

وبعد فان تاريخ القول عرف نماذج من الايجاز في الجاهلية وصدر الإسلام وفي العصور التي تلته ولكنها قلما كانت تخلو من التكلف، ومن اجل ذلك فقد تجردت من القوة في السبك، والجمال في التعبير، والصدق في البيان وهذا ما يجعل الإيجاز في كلام النبي ﷺ فذا قليل النظير في كلام البشر ولنورد بعض الأمثلة:

عن سفيان بن عبدالله قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك. قال (قل آمنت بالله ثم استقم)[4].

كلمتان اثنتان جمعتا كل خير، وأحاطتا بجوانب الإسلام كلها، حتى قال النووي فيه: هذا أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام. لقد أشار هذا الحديث إلى ركني الحياة السامية: تلك الحياة التي حرص الإسلام على أن ينعم

---

(١) نقل هذا الحديث المبرد في - الكامل - ١/٥١ - والدكتور دراز في النبأ العظيم ص١٤٣.

(٢) المستشرق: المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحا - والمتفيهق: أصله من الفهق وهو في الامتلاء. وهو الذي يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ويغرب به تكبرا.

(٣) انظر الحديث في كتاب (أدب الدنيا والدين) ص ٢٥٢ تحقيق مصطفى السقا. والانبعاق: الانصباب في الكلام بشدة.

(٤) رواه مسلم وأحمد والدارمي وابن حبان في صحيحه.

بها كل إنسان، هذان الركنان هما: العقيدة السامية والسلوك المستقيم.

فالإيمان بالله يمثل العقيدة الصالحة الحقة، وليس هناك عقيدة تقوى على منافسة الإيمان بالله أبدا، وهو يصوغ للمسلم التصور الصحيح للكون والحياة، ويحل له المشكلات الفكرية التي يحار الفكر البشري فيها ويحرره من كل عبودية، ويحله في المنزلة الرفيعة التي لا يليق غيرها بالإنسان... ويهبه من القوة ما يذلل له كل عقبة، ويحقق له كل أمل ويجعله قادرا على أن يأتي بالأعمال الجسيمة، ويطمح إلى معالي الأمور.

والاستقامة على ما يقتضيه هذا الإيمان تمثل السلوك الذي يثبت إيمان صاحبه وصدقه في ذلك.

فما أسهل الدعوى ان بقيت في حيز القول، غير ان العمل الصالح والسلوك النظيف، والمعاملة الطيبة كل أولئك يكون ترجمة حية وعملية لإيمان المؤمن وهل هناك شيء من الخير لا يدخل في مفهوم هاتين الكلمتين: الإيمان بالله - والعمل بمقتضى الإيمان؟

أجل لقد جمع هذا الحديث مبادئ الإسلام، وخيري الدنيا والآخرة: **﴿ان الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون★ أولئك أصحابُ الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يَعمَلون﴾**[1].

عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني)[2].

في الشطر الأول من الحديث تحديد الكياسة التي يحرص الناس جميعا على أن يتحلوا بها، فالرسول العظيم - ﷺ - يبين لنا صفات الكيس بإيجاز ليس

(١) سورة الاحقاف، الآيتان ١٣ و١٤.

(٢) رواه الترمذي والحاكم وابن ماجه - وانظر في رياض الصالحين ص ٥١.

يسمو فوقه ايجاز فيقرر أن من مستلزمات الكياسة أن يحاسب المسلم نفسه قبل أن يحاسب، ويعمل للدار الآخرة، فالمحاسبة وسيلة رائعة من وسائل تقويم النفس وترويضها وحملها على الجادة السوية.

وفي الشطر الثاني من الحديث تحديد للعجز الذي يأبى الناس جميعا الاتصاف به ويكرهون أن يعرفوا به. ويذكر رسول الله ﷺ أن العجز الحقيقي انما هو في هزيمة المرء أمام نفسه وفي انهيار ارادته إزاء شهوته، وفي أن يتمنى الأماني الكبيرة وعلى الله تحقيقها. أما اتباع النفس الهوى فهو الآفة التي يئن منها المجتمع، والتي يسقط بسببها عدد ممن يظنون أنهم رجال... ان الأزمة التي يعانيها المسلمون في كل زمان هي ضعف الإرادة، وانهزامها أمام الشهوات والأهواء. فالعاجز هو الذي يتبع الشهوات، لا تعرض له شهوة تلوح بحسنها وتغريه بلذاتها حتى يسعى تهافتا وراءها... والشهوات كثيرة.. وقد برع زبانية الشر وأنصار الشيطان في تزيين الشهوات. ومن هنا كان الذي يتمرد على سلطان الهوى هو المبرأ من العجز.

ويقرر الحديث أمرا آخر يلازم هذا العاجز الأحمق وهو أن يتمنى على الله الأماني وهو على حالته من تتبع الشهوات والانغماس في المخالفات، كأن المكاسب الكبيرة تنال بالأماني فقط.

فيا لعجزه... ويا لحمقه... وأنانيته... وسأكتفي بإيراد أمثلة اخرى سجلها ابن عباس (رضي الله عنه).

● عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ)[1]. وقال: قال المصطفى: (حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره)[2].

---

(١) رواه البخاري وانظر في رياض الصالحين ص ٦٦ ومعنى الغبن: الخسران في المعاملة.

(٢) رواه البخاري ومسلم وفي مبارق الازهار ٢/ ٢٣١.

وقال ﷺ (اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم: حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[١]. وقال: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت)[٢]. وقال: (ان من البيان لسحرا)[٣]. وقال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك)[٤]. وقال: (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى)[٥].

وعامة أحاديث المصطفى - ﷺ - تتسم بالإيجاز كونها من جوامع الكلم[٦].

٧ ـ الأصالة:

وهناك خاصة أخرى من خصائص أسلوب الحديث: الأصالة.

قال الاستاذ أحمد حسن الزيات: الاصالة أن يكون أسلوب الرجل خاصا به، لا ينهج فيه نهج غيره، وأن تكون في عباراته طرافة وجدة مع حلاوة ملموسة، تحمل من يأتي بعده أن يحرصوا على اقتباسها واستعمالها ويراد بالأصالة في الاسلوب بناؤه على ركنين أساسيين: خصوصية اللفظ، وطرافة العبارة، وتلك هي الصفة الجوهرية للاسلوب البليغ.

وملاك الأصالة أن لا تكتب كما يكتب الناس، وأن تكون أصيلا في نظراتك وحكمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك، فلا تستعمل لفظا عاما، ولا تعبيرا محفوظا، ولا استعارة مشاعة[٧].

---

(١) رواه مسلم ١٨/٨.

(٢) رواه البخاري وانظر جامع الاصول لابن الاثير ١/٢٣.

(٣) رواه البخاري وأبو داود وانظر في الصناعتين ص ١٧٨.

(٤) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن عمر.

(٥) رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن عمر وأنظر جامع الاصول ١١٨/٢.

(٦) ومن المفيد أن نشير الى أن الحافظ أبا نعيم ألف كتابا عنوانه (الايجاز وجوامع الكلم) ذكره الحافظ العراقي في (المغني عن الاسفار ١/٢١٥).

(٧) انظر دفاع عن البلاغة للاستاذ الزيات من ص ٨١ ـ ٨٩.

أما خصوصية اللفظ ففي دلالته التامة على المعنى المراد، ووقوعه الموفق في الموقع المناسب، وآية مطابقته لمعناه ومبناه أنك لا تستطيع أن تبدله ولا أن تنقله.

والخصوصية في اللفظ أصل الدقة في التعبير، والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة، لأن الكلمة اذا تمكنت في موضعها الأصيل دلت على المعنى كله، فإذا حشرت فيه حشرا، أو قسرت عليه قسرا دلت على بعض المعنى أو أبانت عن غيره.

وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى ابداع لان الكلمة ميتة ما دامت في المعجم فإذا وصلها الكاتب أو الأديب أو الشاعر بأخواتها في التركيب ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة دبت فيها الحياة وسرت فيها الحرارة، وظهر عليها اللون[1].

والكلمة في الجملة، كالقطعة في الآلة اذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة والا ظلت جامدة. أما طرافة العبارة فأساسها الابتكار في حكاية الخبر، وتصوير الفكر، وتقويم الموضوع، وهيهات أن تجد الكلمة المبتكرة التي تثير الاعجاب، وتحدث الأثر، وتحرك الفتنة الا اذا وجدت الكلمة الخاصة التي تحدد الفروق وتجدد العلاقة وتبعث الحركة. وبخصوصيةالكلمة، وجدة العبارة، يتحقق الطبع في الاسلوب[2].

وقد اتصف الحديث النبوي الشريف بالأصالة في الكلمة، والتركيب والطبع. وتتضح فيه الأصالة في الكلمات الحديثة كما تتضح الأصالة في العبارات الحلوة والتراكيب الجميلة التي ارتجلها الرسول ﷺ لأول مرة قال الخطابي: (ومن فصاحته أن تكلم بألفاظ اقتضبها، لم تسمع من العرب قبله،

---

(١) انظر دفاع عن البلاغة للاستاذ الزيات من ص ٨١ ـ ٨٩.

(٢) الحديث النبوي بقلم محمد الصباغ ـ المكتب الاسلامي.

ولم توجد في متقدم كلامها كقوله: (مات حتف أنفه)، (وحمي الوطيس). و(لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)[1].

عدد الأحاديث التي رواها:

لقد كان ابن عباس مع مرضه من الستة المكثرين في الحديث، والخمسة الباقون هم: أبو هريرة وجابر بن عبدالله الأنصاري، وعبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، وعائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهم -.

ولقد بلغ مجموع ما رواه ابن عباس (١٦٦٠) ستون وستمائة وألف حديث اتفق البخاري ومسلم على خمسة وتسعين حديثا وانفرد البخاري بمائة وعشرين حديثا، وانفرد مسلم بتسعة وأربعين حديثا[2] وبقية الأحاديث في كتب الحديث الأخرى.

وفي الرياض المستطابة ليحيى بن أبي بكر العامري: روى عبدالله بن عباس عن رسول الله ﷺ وأكثر فأخرج له الشيخان مائتين وأربعة وثلاثين حديثا، اتفقا على خمسة وسبعين وانفرد البخاري بمائة وعشرة، ومسلم بتسعة وأربعين وخرج عنه أصحاب الاسانيد والسنن كلهم[3].

من أين له كل هذا الحديث؟

لقد مر بنا أن ابن عباس هاجر عام الفتح، وقد كانت غزوة الفتح عام ثمانية، فلم يصحب رسول الله - ﷺ - الا حوالي ثلاثين شهرا، وهنا يتساءل المرء من أين أتى بكل هذه الأحاديث؟

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣١٣/٣.

(٢) شرح رياض الصالحين لابن علان: ٧٣/١.

(٣) الرياض المستطابة في جلة من روى في الصحيحين من الصحابة ص١٩٩.

ان المحقق في الأحاديث التي رواها ابن عباس ليرى أنها تنقسم إلى أربعة أقسام:

أحدها: أحاديث سمعها من رسول الله بنفسه وقد صرح بأنه قد سمعها منه.

ثانيها: أحاديث يقطع الباحث أنه لم يسمعها من رسول الله ﷺ الا أن ابن عباس يذكر من رواها عنه من الصحابة رضوان الله عليهم.

ثالثها: أحاديث يقطع الباحث أنه لم يسمعها من الرسول الكريم ولكن ابن عباس يسندها إلى النبي ﷺ ولا يذكر الصحابي المروى عنه.

رابعها: أحاديث يرويها ابن عباس، ومن المحتمل أن يكون قد سمعها من الرسول الكريم، ومن المحتمل أيضا أنه لم يسمعها، ولم يبين ابن عباس شيئا من ذلك.

عدد الأحاديث التي رواها مباشرة:

وبد، فكم هو عدد الأحاديث التي نقل عن ابن عباس أنه سمعها مباشرة من رسول الله ﷺ؟ لقد اختلفت أقوال العلماء في ذلك، ونحن هنا ننقل لك ما ذكر في الرياض المستطابة نقلا عن ابن حجر قال: فائدة: روي أن ابن عباس لم يسلع من النبي ﷺ الا تسعة أحاديث، وعن يحي القطان عشرة، وقال الغزالي في المستصفى: أربعة، وفيه نظر، ففي الصحيحن عن ابن عباس مما صرح فيه بسماعه من النبي ﷺ أكثر من عشرة، وفيها مما يشهد فعله نحو من ذلك، وفيها مما له حكم الصريح نحو ذلك فضلا عما ليس في الصحيحين[1].

ومما لا شك فيه أن بعض الأحاديث التي رواها ابن عباس رضي الله عنه

(١) الرياض المستطابة ص ٢٠٠ - وانظر فتح الباري - باب الحشر.

كان قد سمعها أو شاهدها قبل سن البلوغ، اذ قد علمت أن سنه ـ رضي الله عنه ـ كانت عند وفاة الرسول الكريم حوالى ثلاث عشرة سنة، وهنا يتساءل المرء هل يقبل من الراوي بعد البلوغ ما تحمله أو رآه قبل البلوغ حين لم يكن آنذاك في سن التكليف؟

لقد قسم علماء مصطلح الحديث الأهلية إلى قسمين: أهلية أداء وأهلية تحمل.

أما أهلية الأداء فاشترطوا فيها أن يكون الراوي بالغا عاقلا مسلما عدلا ضابطا[1].

أما أهلية التحمل فالذي عليه جمهور المحدثين أنه لا يشترط فيه البلوغ والإسلام والعدالة.

وهناك أحاديث يقطع الباحث أنه لم يسمعهامن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، إلا أن ابن عباس يذكر من رواها عنه من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ومن خلال هذه الأحاديث تدرك شيوخه في الحديث الذين كان يروي عنهم.

١ ـ عن ابن عباس قال: سمعت أبا طلحة يقول: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة تماثيل)[2].

٢ ـ عن ابن عباس عن الصعب بن جثامة ـ رضي الله عنهم ـ قال: (مر بي النبي ﷺ بالابواء أو بودان، وسئل عن أهل الدار يبيتون من المشركين، فيصاب من نسائهم وذراريهم؟ قال: هم منهم وسمعته يقول: لا حمى الا لله

---

(١) انظر تقريب النووي وشرحه تدريب الراوي ص ١٢٠.

(٢) البخاري: ٨٢/٤.

ورسوله - ﷺ)[1].

٣ - عن ابن عباس قال: سمعت عمر - رضي الله عنه - يقول: قاتل الله فلانا ألم يعلم أن النبي ﷺ قال: (لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها)[2].

٤ - عن ابن عباس قال: سمعت غير واحد من أصحاب رسول الله ﷺ منهم عمر بن الخطاب - وكان أحبهم إلي - أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب)[3].

٥ - عن ابن عباس عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (من أدرك من العصر ركعة قبل ان تغرب الشمس فقد أدرك، ومن أدرك من الفجر ركعة قبل ان تطلع الشمس فقد أدرك)[4].

٦ - عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: (لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد، حتى مروا على رجل فقالوا فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: كلا اني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ: يا ابن الخطاب، اذهب فناد في الناس: ان لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

قال: فخرجت فناديت: (ألا إنه لا يدخل الجنة الا المؤمنون)[5].

وهناك أحاديث يقطع الباحث أنه لم يسمعها من الرسول عليه السلام ولكن

---

(١) البخاري: ٤/٢٠ الابواء: قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا - ودان: بالفتح موضع بين مكة والمدينة - يبيتون: يغار عليهم بالليل.

(٢) البخاري: ٤/١٤٥ - قاتل الله فلانا: هو سمرة بن جندب باع خمرا أخذه من أهل الكتاب عن قيمة الجزية فباعه منهم؟ انظر البقية في فتح الباري: ٤/١٨٢، جملوها: أذابوها.

(٣) مسلم: ٢/٢٠٧.

(٤) مسلم: ٣/١٠٣.

(٥) مسلم: ١/٧٥ - غلها: اخذها خيانة من المغنم قبل أن يقسم.

ابن عباس يسندها إلى النبي ﷺ ولا يذكر الصحابي المروى عنه:

١ - عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال ببطون قريش: (لما نزلت ﴿وأنذِرْ عشيرتَك الأقربين﴾[١] جعل النبي ﷺ ينادي: (يا بني فهر، يا بني عدي)[٢]، ومعلوم أن هذه الحادثة كانت في بدء الدعوة في مكة، وابن عباس لم يكن قد ولد آنذاك. ولكنه لا بد أن يكون قد سمعها من غيره من الصحابة فرواها.

٢ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن رسول الله ﷺ قال - وهو في قبة يوم بدر[٣] -: (اللهم اني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم ان تشأ لا تعبد بعد اليوم. فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سيُهزم الجمعُ ويُوَلُّون الدُّبُر﴾[٤].

٣ - عن ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذٍ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه اذ سمع ضربة بالسوط فوقه. وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فأخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: (صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذٍ سبعين وأسروا سبعين)[٥].

ومعلوم أن حادثة بدر لم يكن فيها ابن عباس قطعا، ولقد كان عمره آنذاك حوالي خمس سنوات، ولم يكن قد هاجر بعد.

٤ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: مشى معهم - أي محمد بن

---

(١) سورة الشعراء، آية ٢١٤.

(٢) البخاري: ١٦١/٤.

(٣) البخاري: ٥٤/٦.

(٤) سورة القمر، آية ٤٥.

(٥) مسلم: ١٥٧/٥.

مسلمة وأربعة من قومه - إلى بقيع الغرقد حين وجههم لقتل كعب بن الأشرف اليهودي ثم قال: (انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)[1].

ومعلوم أن قتل كعب بن الاشرف كان في السنة الثالثة للهجرة من بعد غزوة بدر.

٥ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن رجلا من المشركين قتل يوم الأحزاب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أبعث إلينا بجسده، ونعطيهم اثني عشر ألفا، فقال رسول الله ﷺ: (لا خير في جسده ولا في ثمنه)[2].

ومعلوم أن غزوة الأحزاب كانت في السنة الخامسة أو الرابعة ولم يكن ابن عباس قد هاجر بعد. وهذا النوع من الأحاديث يسمى بمرسل الصحابي.

وهناك أحاديث يرويها ابن عباس، ومن المحتمل أن يكون قد سمعها من الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن المحتمل ايضا أن لا يكون قد سمعها منه، ولم يبين ابن عباس شيئا من ذلك.

١ - عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم)[3] فهنا لم يصرح ابن عباس بأنه سمع ذلك من النبي ﷺ، كما لم يصرح بخلاف ذلك.

٢ - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ، قال: (يرحم الله أم اسماعيل لولا أنها عجلت لكان زمزم عينا معينا)[4] وهنا أيضا لم يصرح ابن عباس بالسماع.

٣ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ اذا عاد

---

(١) حياة الصحابة وابن الاثير والطبري: ٢/٦٥.

(٢) الطبري: ٢/٤٥٦.

(٣) حياة الصحابة: ٤/١٥١ وقال أخرجه الشيخان.

(٤) البخاري: ٤/١١٣.

المريض جلس عند رأسه ثم قال سبع مرات: (أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك) فان كان في أجله تأخير عوفي من وجعه[1].

ثم نختم كلامنا بدعاء حفظ القرآن الكريم:

عن عبدالله بن العباس رضي الله عنهما أنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ اذ جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: بأبي أنت وأمي تفلت هذا القرآن من صدري فما أجدني أقدر عليه: فقال له رسول الله ﷺ « يا أبا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وتنفع بهن من علمته ويثبت ما تعلمت في صدرك؟ فقال: أجل يا رسول الله فعلمني، قال: اذا كانت ليلة الجمعة فان استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فانها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقال أخي يعقوب لبنيه ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾ يقول حتى تأتي ليلة الجمعة فان لم تستطع فقم في وسطها فان لم تستطع فقم في أولها فصل أربع ركعات تقرأ في الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وتبارك الفصل فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء على الله وصلِّ عليَّ وأحسن وصلِّ على سائر النبيين واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولأخوانك الذين سبقوك بالإيمان ثم قل في آخر ذلك، اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني وأرحمني أن أتكلف ما لا يعنيني وأرزقني حسن النظر فيما يرضيك عني اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والاكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصري وأن تطلق به لساني وأن تفرج به عن قلبي وأن تشرح به صدري وأن تستعمل به بدني فانه لا يعينني على الخير غيرك ولا يؤتيه إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

---

(١) حياة الصحابة: ٣/٩٢.

العظيم، يا أبا الحسن تفعل ذلك ثلاث جمع أو خمسا أو سبعا تجاب باذن الله والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمنا قط»...

قال ابن عباس رضي الله عنه: فوالله ما لبث علي الا خمسا او سبعا حتى جاء رسول الله ﷺ في ذلك المجلس فقال يا رسول الله والله اني كنت فيما خلا لا آخذ الا أربع آيات أو نحوهن فإذا قرأتهن على نفسي تفلتن وأنا أتعلم اليوم أربعين آية أو نحوها فإذا قرأتها على نفسي فكأنما كتاب الله بين عيني ولقد كنت أسمع الحديث فإذا رددته تفلت وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفا فقال له رسول الله ﷺ عند ذلك (مؤمن ورب الكعبة أبا الحسن) ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب.

ابن عباس... والمعراج المنسوب إليه؟

في الأسواق كتيب يتداوله العوام ويقرؤونه ليلة السابع والعشرين من شهر رجب ليلة ذكرى معراج رسول السلام؛ هذا الكتاب يسمى (معراج ابن عباس) يرى الجهلة أنه من تأليف ابن عباس يصور فيه كيف عرج بالنبي ﷺ. ان حادثة معراج النبي ﷺ هي حادثة واقعية ثبت وقوعها في كتب السنة الصحيحة، فقد عرج بالنبي ﷺ الى السموات العلا بجسده وروحه وعلى هذا اجماع من يحتج بإجماعه من المسلمين.

ولكن هل هذا المسمى بمعراج ابن عباس هو صحيح النسبة إليه، وهل ما وجد في هذا المعراج من وصف لمعراج النبي ﷺ صحيح ايضا.

لكي نجيب على ذلك لا بد من الرجوع إلى المنهج العلمي في الاسلام، ذلك المنهج الذي يتعرف به إلى ما هو صحيح وثابت في الدين وما ليس كذلك.

يقول هذا المنهج: لكي نثبت نصا مرعيا من السنة لا بد من التحقق من أمرين احدهما صحة السند وثانيهما صحة المتن. والسند هو سلسلة الأشخاص

الذين ينقلون هذا النص ويصلون به إلى من روي عنه، ولا تتحقق صحة السند الا بأن يوجد فيه أمور، هي أن ينقله العدل الضابط عن مثله حتى يصل إلى من روي عنه من غير شذوذ ولا علة فإذا لم يكن لهذا الكلام المنقول سند كان هذا الكلام ساقطا لا يمكن حسبانه نصا شرعيا، وإذا كان أحد رواته غير عدل بل هو متهم في دينه وسلوكه لم يعبأ بهذا الكلام الذي نقله، وإذا كان أحد رواته سيّئ الحفظ أو ضعيفه فلا يعد هذا الكلام حجة في الدين، وإذا حدث انقطاع بين رجال السند بأن لم يكن أحدهم قد سمع الخبر ممن فوقه سقط ايضا هذا النص وأصبح نصا لا يعتد به، وإذا خالف الراوي من هو أوثق منه سقط ايضا كلامه وأخذ بكلام الأوثق وهكذا.

وأما المتن فهو نفس الكلام المنقول عن الرسول ﷺ وليكون هذا الكلام المنقول صحيحا يشترط فيه أن لا يكون مخالفا للمنطق السليم، وألا يكون مخالفا لحقائق العلم، والا يكون في هذا الكلام ركاكة في اللفظ أو المعنى، وان لا يكون مخالفا للقرآن الكريم.

من هذا المنهج العلمي نستطيع أن ننطلق للتعرف على حقيقة هذا الكتاب الذي يدعى (معراج ابن عباس) فماذا نرى يا ترى؟

ان من يتصفح هذا المسمى بمعراج ابن عباس لا بد من أن يلاحظ الأمور التالية:

١ ـ ان المعراج الذي وقع للرسول عليه الصلاة والسلام ـ كان في مكة قبل الهجرة، وابن عباس كان لا يزال صبيا في مهده، فلا بد أن يكون قد رواه عن غيره من الصحابة الذين عايشوه أو سمعوه من النبي ﷺ فلا بد أن يكون بعض من الصحابة قد رووا شيئا مما يوجد في هذا المعراج، وما وجد في الحقيقة لم نر أحدا من الصحابة قد رواه، وربما يمكن التغاضي عن هذه النقطة لو سلم لنا غيرها من النقاط.

٢ ـ لقد روى حديث المعراج جمهور من الصحابة كما نرى ذلك في

كتب السنة الصحيحة وما ذكر في هذا الكتاب مخالف لما رووه.

٣ ـ لم يقل لنا في كتب الحديث ولا التاريخ أن لابن عباس كتابا في المعراج، ولو كان لاشتهر على ألسنة المحدثين وكتبهم التي تعني بما هو أقل من ذلك.

٤ ـ لو فرض أن هذا المعراج من وضع ابن غباس ـ وحاشاه من ذلك ـ فمن الذي رواه عن ابن عباس، وأين هو السند الذي وصل إلينا به هذا المعراج.

٥ ـ ان كثيرا مما وجد في هذا المعراج يأباه التفكير السليم والعقل الصحيح، من ذلك ما حكاه عن السموات من أن بعضها من حديد وبعضها من ذهب وهكذا..

وما ذكر من ان الرسول رأى في السماء الأولى ملكا نصفه من ثلج ونصفه من نار، فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج، له ألف رأس وفي كل رأس ألف ألف وجه وفي كل وجه ألف ألف لسان يسبح الله بألف ألف لغة ومن ذلك ماذكره عن ملك الموت وما ذكره في وصف جهنم.

٦ ـ ان كثيرا مما فيه هو من الخرافات والأساطير والاسرائيليات ومن المؤكد أن قلماً ينفث الحقد والكراهية ضد الإسلام قد صاغ هذا المعراج ولكي يكسب ثقة القارئين نسبه إلى ابن عباس.

وأغلب الظن أن هذه اليد هي يد يهودية فما برحوا يكيدون لرسول الإسلام منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا بشتى الوسائل والاتجاهات...

الباب الثاني

ابن عباس والأدب

تمهيد

كان ابن عباس - رضي الله عنه - أديبا من أبلغ الأدباء.. وفصيحا من أكبر الفصحاء، ورث الأدب والبلاغة والبيان والسمو عن بيئته وقومه ومجتمعه.. ثم هو قد عاش في تلك البيئة النبوية التي أوتي صاحبها ﷺ جوامع الكلم - وأوتي القرآن وتمثله معه - فأخذ ذلك من مصادره الأصيلة ومنابعه الفياضة.. والمرء ابن بيئته - فلا غرو أن يروي الشعر ويعتز به ويستشهد بمأثوره.. ومن يقرأ الشعر الجاهلي يجد آثارًا من عقل يبحث ويجرب، فحكم زهير بن أبي سلمى، ونظرات النابغة الذبياني تدلان على فهم وتجربة ولكن ذلك كله وليد الفطرة الهادية، وليس وليد ثقافة واطلاع لأن العرب كانوا أميين لا يقرأون كتابا، وقد قاله الله تعالى ﴿**هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لفِي ضَلاَلٍ مُبينٍ**﴾[1].

ولكن هذه الأمية لم تحل بينهم وبين العقل الذكي والتجربة الحصيفة بل لم تحل بينهم وبين وجود حضارة لهم في الجاهلية شوهدت آثارها في سدود اليمن، وقصور صنعاء وبساتين الحيرة بالعراق، ومنازل الغساسنة بالشام مما يدل على إلمام بشئون العمارة والري والطب والحساب، وهو المام يوجد في الحواضر لا البوادي..

(١) سورة الجمعة الآية ٢.

كان البدوي ذكيا بفطرته، وهو في صحرائه المجدبة قد استطاع أن يعرف معلومات كثيرة عن الرياح والأمطار والسحب والرمال وجميع مظاهر الطبيعة التي تحيط به، كما دفعته الحاجة.. إلى معرفة شيء عن الطب الأول وخصائص بعض الأعشاب البرية،.. أما ذكاء العربي فيتجلى في «الفراسة» التي اشتهر بها، اذ كان يستدل على نفسية الإنسان برؤية ملامحه الظاهرية، كما أنه برع في «القيافة» وهي معرفة الآثار في الرمال.. اذ يستدل بهذه الانطباعات على من تركوها فيحدد اتجاههم، وتلك مقدرة فائقة..

ومن يتصفح كتاب «الحيوان» للجاحظ يدهش لمعرفة العربي الواسعة بالحيوان الذي يتعهده من حصان وفرس وجمل وكلب وطير، وغيرها، اذ استطاع الشعر الجاهلي أن يقدم عن الحيوان خصائص صادقة، تقع موقع الإعجاب من علماء (الأحياء) في عصرنا الحديث، أما حديثهم في الشعر عن النجوم، وتحديد أوقات مطالعها ومقاربها فمما ينبع من قوة الملاحظة، ويقظة التأمل وهم بعد أميون.. وان كانت علومهم قليلة فحسبهم البراعة في الخطابة والقدرة الرائعة على نظم الشعر وارتجاله..

وكان لا بد لابن عباس أن يروي ما يسمع من شعر العرب ومفاخرها وبلاغاتها ومحاوراتها وخطبها ومناظراتها، وأن يكون له من ذلك زاد ثقافي وفكري كبير..

والنشأة والبيئة والموهبة جعلت من ابن عباس بليغا متمكنا، وأديبا محلقا، وخطيبا مصقعا مفوها، ومناظرا ومحاورًا لا يغلب..

وجعلت منه ملما بكل بلاغات العرب ومأثوراتها في الشعر والنثر..

وكان القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ له خير زاد، وأكبر معين، وأعظم مورد، لذلك كله لا يكون من الإسراف في شيء أن نقول: ان عبدالله بن عباس كان بليغا مجيدا، ومتكلما فصيحا، مبينا منطقيا، وكان بحق من أعلام الأدب والبلاغة في عصره وبعد عصره..

الفصل الأول
ابن عباس والشعر

تمهيد
الإسلام والشعر

وإذا وصلنا في الحديث إلى الشعر.. فقد كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تدانيها منزلة، فهو ديوان مآثرهم، وسجل مفاخرهم، واللسان الناطق بما لهم من فضل وما هم عليه من مجد أثيل، وعز تالد...

وما من حرب كانت تنشب بين القبائل إلا وكان الشعر هو الذي يوقد نارها، ويشعل لظاها، ويؤجج سعيرها، كما كان الشعراء يذكون لهيب المعارك ببيانهم الملتهب، وشعرهم القوي..

ولا تفتح مغاليق الأنفس، أو تلين قساوة القلوب، أو تنال العطايا والهبات في عهدهم، الا بالقول الفاتن، والشعر الساحر.. الذي يصل به الشاعر إلى ما يريد من رغبة، أو يهدف إليه من غرض ولا تعمر مجالس السمر ومحافل العلية، الا بما ينشد فيها من طرائف الشعر، وروائع القصيد..

فقد كان أغلب الشعراء الجاهليين يصفون المرأة وصفا عضويا، يهتكون فيه الحرمات ويخرمون الحجب والأستار، فيثيرون العصبية، ويوقدون الحمية، ويحرضون الناس على الاقتتال والتناحر، على التقاطع والتدابر والتنافر، فكان الشعر بهذا السمت.. وبهذه الروح الجاهلية من أقسى معاول الهدم، وأسباب

الدمار، التي منيت بها الحياة العربية[1]، ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة.. بل من أعجب ما صنع القرآن في هؤلاء الجاهليين أنه لم يكتف بإعلان الحرب على الجاهلية الحمقاء.. وبطي بساطها الفاجر ووضع قيم جديدة رفيعة مكان القيم البائدة.. بل طبع القوم بطابع العقيدة التي صاغت ضمائرهم، وكونت مشاعرهم، وصنعت وجودهم وجعلت منهم نماذج فريدة، وهو فوق هذا أبى إلا أن يصوغ أذواقهم وأن يجعل من هذه الأذواق العالية قرآنا يتلى - لتظل البشرية مشدودة إلى هذه الصفوة الكريمة التي تألفت زمنا ثم غابت عن الوجود.. وان هذا العطر ليسطع فينعش الصدور الحرجة - ويحيي الآمال المهيضة - ويمنح القدوة الفاضلة..

وهذه المثل الرفيعة ربما غاب عن بعض الناس أنها قرآن يتلى - وسنة تدرس - وتجربة حضارية عاشتها البشرية.. تمثلت أولا في البعث الجديد.. بعث سيد البشرية - محمد صلوات ربنا وسلامه عليه - للحياة، ثم تحققت بمنهجة وسرت في مجتمعه - ثم ما لبثت أن ذاعت في كل أفق - وانتقلت الى كل قطر ومصر - وحملها الإسلام على جناحه القوي أينما غدا أو راح.. وزاد من عمق هذه التجربة.. أنها لم تؤخذ عن نظرية مدونة، وانما سرت بالقدوة والسلوك في مجتمع النبوة وعندما تتحول المثل الجمالية الأدبية إلى نبض حي يسري في عصب الأمة، ويتمثل في معاملاتها وأقوالها وأفعالها، فان الفضل يرجع إلى الدستور الخالد الذي قذف بالنور في وجدانهم فأضعف من غرورهم، وأبعدهم عن كل مأثم، وعلمهم الحب الذي قضى على التقاطع والتدابر، وإذا بتلك الأفكار الجاهلية تتحول إلى نور يسري في جنباتهم.. فتصدر عنهم أرق المشاعر، وألطف المعاني، كل ذلك في أجمل صورة وأبهى زينة.. وهذه الجماليات لا تقتصر على الجانب الروحي وحده ولا على الجانب

---

(١) أنظر الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الاسلام. د. خفاجي ص ٢٩٢ وما بعدها..

المادي وحده - وانما تجمع بينهما - فهي حضارة تستكمل صور الجمال والذوق المادي والمعنوي معا..

اذا لقد استطاع الإسلام أن ينشئ مجتمعا جديدا ويروي عاطفة ظمأى.. وماذا تصنع كل مظاهر الجمال الخالب إذا ذهب الإيمان؟! وهو مصدر السعادة في هذه الحياة..!!

وجاء هذا الفجر الباهر.. فجر الإسلام الزاهر.. بدعوة الحب والسلام[1] يدعو إلى العفة في القول والفعل، ويشجع على الأدب العالي الذي يليق بمسلم، فحرم على الناس الفواحش، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سوء الظن وخداعه وغروره، ودعا أولياءه وأتباعه.. إلى أن يمحقوا كل رذيلة، وأن يجانبوا كل موبقة، وأن يكفوا عن الهمز واللمز، والقول والفعل، إذا كان ذلك يؤذي مشاعر المسلم، أو يخالف خلق القرآن وسلوك نبي الإسلام وقد أمات الإسلام فيهم روح العصبية، وأخمد في نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يأتوا في كلامهم بما يثير النفوس أو يذكر بالخصومات، أو يحرك كامن الأحقاد، ومستور الضغائن[2] ولقد تحول الشعراء بالطبع عن معاني شعرهم وأغراضه إلى هذا الاتجاه الجديد، وعبروا عن المعاني الجديدة، التي نادى بها الإسلام بعد أن عاشوا في جاهليتهم تجار حروب، وأرباب فجور وفسوق.. حقا لقد مستهم نفحة عامرة من روح النبوة، فانبعثت انسانيتهم الضائعة وردت خصائصهم المغمورة تحت ركام الجهل.. فإذا هي تدأب وتسعى بقدر الله!!

لقد استطاع محمد - عليه صلوات الله وسلامه - أن ينفذ بمنهج الوحي الى قلوبهم وضمائرهم.. وأن يبعث مواتهم الأدبي وأن يعيد بناء شخصيتهم التي عبث بها الشيطان.. وأن يرتب عناصرها وينظم كيانها.. كما استطاع كذلك

---

(١) قيم حضارية في القرآن الكريم ص ٢٥٤ - بقلم توفيق محمد سبع.

(٢) انظر: الحياة الأدبية د. خفاجي ص ٢٩٥.

أن يصلح الفاسد من أوضاع المجتمع.. وأن يرد إلى المواهب الإنسانية كيانها.. تلك المواهب المهملة الضائعة.. وأن يضع معها وبها عالما نظيفا.. قد وضع فيه كل شيء في مكانه الطبيعي..

وقد قام محمد بن عبدالله ـ صلوات ربنا وسلامه عليه ـ بتلك الدعوة التي لم تجنح إلى الاقليمية أو العصبية.. ولم يتجه بها قائدها إلى جنسه.. وانما أطلقها عالمية تسوي بين البشر جميعا في الحقوق والواجبات، وتخرج الناس من جور الأديان إلى سماحة الإسلام ومن تقديس العباد إلى عبادة الله وحده.. ولقد رأى صلوات الله عليه في مجتمع الجاهلية صورة للعالم الذي لعب به الهوى وأوبقه الشيطان.. ـ أي الإنسان وقد هانت عليه انسانيته فسجد للصنم والوثن وعبد الشجر والحجر... ورأى عقولا ضالة تؤمن بالسحر والخرافة والهامة، وتفنى في عصبيات ضيقة ما أنزل الله بها من سلطان. رأى المواهب البشرية خامات مبعثرة تنتظر الصائغ الذي يسكبها ويوجهها الوجهة الطيبة في الحياة.. رأى الشعراء يرتعون فوق الأشلاء، ويثيرون العداوة والبغضاء، ويوقعون على قيثارة الثأر والحرب والفتك والضراوة..

وقد تحول الشعراء عن تلك المعاني الهابطة إلى اتجاه جديد، ونبذوا تلك القيم الذميمة، التي لم يعد لها مكان بين سماحة الإسلام، وحسن مبادئه[1]..

بل ان بعض الشعراء ترك قول الشعر، وانصرف إلى القرآن يتدارسه ويتدبر معانيه، فها هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي كان في الجاهلية فحلا من فحولها يأخذ القرآن بلبه فينصرف عن الشعر حتى أنه لم يؤثر عنه في الإسلام سوى بيت واحد من الشعر هو قوله:

الحمد لله اذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ولقد بعث إليه ابن الخطاب يسأله ـ ماذا أحدثت من الشعر في الإسلام

(١) أنظر تاريخ الأدب في العصر الاسلامي د/شوقي ضيف ص ٥٩.

فقال: أبدلني الله بالشعر.. سورة البقرة وآل عمران.. والواقع أن تحول الشعر من روحه الجاهلية إلى روح جديدة ومعان جديدة، قد عاد على بعض الشعراء بشيء من الانقباض وضيق الأفق.. حيث التزم الشعراء بالتعبير عن المعاني والأغراض الإسلامية، وحرمت عليهم معاني الشعر الجاهلي، التي تتعارض مع مثل الإسلام وتغاير قيمه وان ظل قليل من الشعراء على طبعهم الجاهلي، لم تهذب نفوسهم أو يعدلوا من سلوكهم، وذلك كما كان من الشاعر ـ الحطيئة ـ الذي بقي شعره في الإسلام كما كان عليه في الجاهلية.. من خبث القول، والإسراف في الهجاء المقذع..

على أنه ينبغي أن نعلم أن الإسلام لم يحارب الشعر أو يقف حائلا بين الشعراء ـ كما يظن ـ، وانما شجع منه ما يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويمجد المثل العليا، ويقف في وجه المشركين، ويرد عدوانهم، بل وحث عليه وشجعه، أما الشعر الذي خرج عن تعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه، فلقد حرمه الإسلام ونهى عنه ـ ندرك ذلك في قوله تعالى: **﴿والشعراءُ يتَّبعُهُمُ الغَاوُون★ أَلَمْ تَرَ أنَّهم في كل وادٍ يَهِيمُون★ وَأَنَّهم يقولون ما لا يَفْعَلُون★ إلا الذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَروا اللهَ كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسَيَعْلَمُ الذِين ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقَلِبُونَ﴾**[1].

ولقد استمع النبي ـ صلوات ربنا وسلامه عليه ـ إليه واستحسنه وحث الشعراء على الرد على خصوم الإسلام من شعراء المشركين، كما كان من موقفه من حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك بل وأثاب عليه، وعفا عمن توعده كموقفه الكريم من كعب بن زهير الذي عفا عنه بعد أن أباح دمه، واستمع إلى شعره واستحسنه[2].

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

(٢) القصة مفصلة في الأغاني وكتب الأدب والنقد..

وفي حديث البراء الذي ذكره البخاري دليل على طلب الرسول ﷺ قول الشعر من حسان، فقد روى عنه ـ صلوات ربنا وسلامه عليه ـ قوله لحسان ابن ثابت: «أهجهم وجبريل معك»[1]..

وجاء في البخاري ومسلم من حديث أبي بن كعب قول الرسول الكريم «إن من الشعر لحكمة» وهذا حكم نقدي كان له أثره في النهوض بالشعر... وروى الترمذي وأبن أبي شيبة من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه ـ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون الشعر وحديث الجاهلية، فلا ينهاهم، وربما تبسم[2] مما كان له أثره في إذكاء جذوة الشعر من جديد، ولقد أثنى الرسول الكريم على ابن رواحة.. من حديث أبي هريرة في رواية البخاري، الذي يقول فيه صلوات الله وسلامه عليه ـ «إن أخا لكم لا يقول الرفث»، يعني بذلك ابن رواحة ـ قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به ... موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجع[3]

فهذا الثناء توجيه نقدي حتى يسمو الشعر عن الأغراض الجاهلية ولذلك رأينا رسول الله ﷺ ينفر منه إذا كان مقذعا.. فقد وردت رواية ذكرها العيني.. «قيل لعائشة: ان أبا هريرة يقول: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا، خير له من أن يمتلئ شعرا»

فقالت عائشة: يرحم الله أبا هريرة، حفظ أول حديث، ولم يحفظ آخره، ان المشركين كانوا يهاجون رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا من مهاجاة رسول الله ﷺ. وفي

(١) سيرة أبن هشام ج ٢ ص ٢٦١.
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٦٩.
(٣) عمدة القارىء ج ٢ ص ١٧٨.

موقف آخر نرى الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعجب بالشعر الذي يعبر عن الروح الإسلامية، بأسلوب يتضح منه الرضا والإعجاب فهو يمنح (بردته)، وذلك لما جاء كعب بن زهير تائبا مادحا مستغفرا، وأنشده قصيدته المشهورة والتي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول[1]...

وتشجيع الرسول لكعب وعفوه عنه ومكافأته اياه، دليل على تشجيعه الشعر الذي يدعو إلى الأخلاق الكريمة..

أما تنزيه الرسول عن كونه شاعرا في قوله تعالى ﴿**وما علّمناه الشعرَ وما ينبغي له، إنْ هو إلاّ ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبينٌ**﴾[2]، فلأن طبيعة الرسالة تأبى الشعر، اذ لو كان الرسول شاعرا لنسب العرب بلاغته وسحره إلى تأثير الشعر لا إلى فضل الرسالة، ولا يكون الكلام الذي يلقى إليه وحيا من عند الله. بل إلهاما من شيطان الشعر، ولأمر ما كانت الحكمة في أن الرسول ـ صلوات ربنا وسلامه عليه ـ ما روى بيت شعر كاملا صحيح الوزن[3] وإذا وردت بعض الأبيات ـ إذا صحت روايتها ـ صحيحة، فهي إلى النثر أقرب منها الى الشعر[4]..

ولقد نهج الشعراء الإسلاميون ـ هذا المنهج السديد ـ الذي يوائم طبيعة الرسالة الإسلامية، والتزموا بتلك التوجيهات الرشيدة فسهلت عبارتهم، ووضح منهجهم، حتى وجه إليهم بعض النقد واتهموا باللين والضعف..

ومن ذلك قول الأصمعي في شعر حسان بن ثابت: ان شعر حسان قد

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ١٥٤.

(٢) سورة يس، آية ٦٩.

(٣) الاغاني ج ١ ص ٥٢ ـ العمدة ج ١ ص ٣٢.

(٤) العقد الفريد ج ٥ ص ٨٢، ج ٦ ص ١١٥.

لان في الإسلام، لأن الشعر نكد لا يقوى الا في الشر، فإذا دخل في باب الخير ضعف ولان..

وقول الثعالبي[1] كان حسان يقول الشعر في الجاهلية، فيجيد ويغير في نواصي الفحول، ويدعي أن له شيطانا يقول الشعر على لسانه ـ كعادة الشعراء ـ ويقول مثل قوله في بني جفنة ملوك غسان:

أولاد جفنـــة حـــول قبر أبيهـــم	قبر ابـن ماريـة الكـريم المفضـــل
بيـض الوجـوه كـريمة أحســابهم	شم الأنـوف مـــن الطـــراز الأول

فلما أدرك الإسلام، وتبدل الشيطان ملكا تراجع شعره، وكاد يرق في قوله، ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك..

ولكن كثيرا من أهل العلم والنقد من المتقدمين والمتأخرين يرون أن بعض ما يستضعف من شعر شعراء مكة والمدينة أهل الحجاز مدسوس عليهم[2]

وبهذا يمكننا أن نقول: ان الإسلام قد نهض بالشعر ووجهه وجهة جديدة بدت في أغراضه ومعانيه، وصيره وسيلة لخدمة الدعوة الإسلامية وأهدافها النبيلة، وأن شعراء الإسلام قد وقفوا في وجه شعراء المشركين الذين أقذعوا في هجاء الرسول وأصحابه والنيل من دعوته ورسالته[3] كما بدأ أثر الإسلام قويا وواضحا في ألفاظ الشعر وتعابيره وصوره وأنماطه الفنية..

---

(١) خاص الخاص للثعالب ص ٣٨.

(٢) انظر العصر الاسلامي عند الحديث عن شعر حسان وطبقات الشعراء لابن سلام الجمحي في أماكن متفرقة..

(٣) أنظر نماذج من هذا الشعر في السيرة النبوية لابن هشام ج ١، ج ٢.

ابن عباس في المسجد الحرام

بينا ابن عباس في المسجد الحرام، وعنده نافع بن الأزرق من الخوارج يسألونه، اذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين[1] حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس، فقال: أنشدنا فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها، فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: الله يا ابن عباس؟

انا نضرب إليك أبعاد الابل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشي فيخسر[2]

فقال: ليس هكذا: قال: فكيف قال؟ فقال: قال:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر[3]

فقال: ما أراك إلا وقد حفظت البيت! قال: أجل!... وان شئت أن أنشدك القصيدة إياها.

قال: فاني أشاء، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها.

وفي غير رواية عمر بن شبة: أن ابن عباس أنشدها من أولها إلى آخرها، ثم أنشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة، وما سمعها قط الا تلك المرة صفحا –

---

(١) الثياب الممصرة التي فيها شيء من صفرة ليست بالكثرة.

(٢) الأغاني للأصفهاني ج ١ ص ١٠.

(٣) يضحى: بظهر للشمس. وعارضت: قابلت. والضمير فيه محذوف أي عارضته. ويخصر: يبرد.

أي مرورا ـ قال: وهذه غاية الذكاء. فقال له بعضهم: ما رأيت أذكى منك قط. فقال: لكنني ما رأيت قط أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان ابن عباس يقول: ما سمعت شيئا قط الا رويته، واني لأسمع صوت النائحة فأسد أذني كراهة أن أحفظ ما تقول.

ولامه بعض أصحابه في حفظ هذه القصيدة (أمن آل نعم)، فقال: إنا نستجيدها. وقال الزبير في خبره عن عمه: فكان ابن عباس بعد ذلك كثيرا ما يقول: هل أحدث هذا المغيري شيئا بعدنا؟!..

قال: وحدثني عبدالله بن نافع بن ثابت قال:

كان عبدالله بن الزبير اذا سمع قول عمر بن أبي ربيعة: فيضحى وأما بالعشى فيخصر: قال لا بل: فيخزى وأما بالعشي فيخسر.

وكان ابن عباس إذا سمع قصيدة زهير بن أبي سلمى:

فهرم أبوهم سنان حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
محسدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله عنهم ما له حسدوا

قالوا: لما سمع ذلك ابن عباس، قال: ما كان أحب إليّ لو كان هذا المدح في بيت محمد ﷺ[1].

وفي كتاب الأغاني: «أن عيينة بن مرداس الشاعر، أتى عبدالله بن العباس وهو عامل لعلي بن أبي طالب على البصرة، وتحته يومئذٍ شميلة بنت جنادة بن أبي أزيهر[2] الزهرانية، وكانت قبله تحت مجاشع بن مسعود السلمي.. فاستأذن عليه فأذن له.. وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون

---

(١) كتاب السحر والشعر لابن الخطيب (مخطوط).
وكتاب السيراء لابن الأبار ج ١ ص ٢، ٢١.

(٢) في الاغاني ١٩/١٤٣: شميلة بنت جنادة بن بنت أبي أزهر الزهرانية.

لسانه. فلما دخل على ابن عباس قال له: «ما جاء بك إلي»؟! فقال له: «وهل دونك مقصد[1] ود أو وراءك معدي؟!.. جئتك لتعينني على مروءتي وتصل قرابتي» فقال له ابن عباس: «وما مروءة من يعصي الرحمن، ويقول البهتان، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل؟ والله لئن أعطيتك لأعيننك على الكفر والعصيان!. انطلق فأنا أقسم بالله لئن بلغني أنك هجوت أحدا من العرب لأقطعن لسانك. فأراد الكلام فمنعه من حضر. وحبسه يومه ذلك. ثم أخرجه عن البصرة، فوفد إلى المدينة المنورة بعد مقتل علي ـ رحمه الله ـ فلقي الحسن بن علي وعبدالله بن جعفر ـ عليهما الرحمة ـ فسألاه عن خبره مع ابن عباس فأخبرهما. فاشتريا عرضه بما أرضاه، فقال يمدحهما، ويلوم ابن عباس:

لقيت ابن عباس فلم يقضِ حاجتي ... ولم يرج معروفي ولم يحسن منكري[2]

فلو كنت من زهران لم ينس حاجتي ... ولكنني مولى جميل بن معمر

فليت قلوصي أغريت أو رحلتها[3] ... إلى حسن في داره وابن جعفر

إلى ابن رسول الله يأمر بالتقى ... وللدين يدعو والكتاب المطهر

إلى معشر لا يخصفون نعالهم ... ولا يلبسون السبت ما لم يخصر

فلما عرفت اليأس منه وقد بدت ... أيادي سبا الحاجات للمتذكر

فلا تدعني أزمار حلت اليكم ... بني هاشم أن تصدروني بمصدر

قال أبو الفرج: كان عيينة هذا شاعرا خبيث اللسان مخوف المعرّة في جاهليته واسلامه، وكان يقدم على أمراء العراق وأشراف الناس فيصيب منهم بشعره: قال وكان حليفا لجميل بن معمر القرشي.

---

(١) في الاغاني ١٤٣/١٩: وهل عنك مقصدا.

(٢) هذه الابيات واردة في الاغاني ١٤٤/١٩. ولم يوردها ابن الأبار على تواليها، وانما اختار منها.

(٣) عند أبي الفرج الأصبهاني: «فليت قلوصي عريت أو رحلتها».

وبهذا نستطيع أن نقول: ان ابن عباس كان مرهف الحس، رقيق الشعور، يتذوق الشعر ويرويه، ويبدي فيه رأيا صائبا، بيد أنه لم يكن شاعرا كما يرى بعضهم.

وان كان هناك من يقول انه كان شاعرا، ولكن ذلك مما لا يسلم به النقاد والشعراء المنصفون، لأنه عاش في قومه أديبا نابها، وخطيبا بليغا، ومفسرا قديرا، ومناظرا ليس له ضريب أو قرين، لا يستتر منهم في شيء وكانت ندواته ومحاوراته ومساجلاته تجمعه وغيره من الناس.

ولو كان لابن عباس شعر لرواه الرواة وأذاعه المذيعون ووصل إلى كل سمع، ووعاه كل قلب، ولم يكن ذلك يقلل من مكانته الأدبية والعلمية فهو الذي كان يظل الليل ساهرا بجانب الفاروق عمر، كما يروي ابن قتيبة:

قال عمر لابن عباس: أنشدني لشاعر الشعراء الذي لم يعاظل بين القوافي، ولم يتبع وحشي الكلام[1].

قال: من هو يا أمير المؤمنين؟! قال: زهير. فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح.

على أن الأبيات التي نسبت إلى ابن عباس، وان كانت تدل على شاعرية خصبة، وبيان رائع، ليس فيها ضرب من النظم المتكلف، ولكنها على أية حال لا تسلك بابن عباس ـ البحر الزاخر ـ الذي ما كان يرضى أن تكون له الريادة في كل مجالات العلم والفقه والأدب، ثم تنسب إليه أبيات لا يكون صاحبها في عداد الشعراء المفلقين.

وهذه طائفة من الأبيات المنسوبة لابن عباس:

اذا طارقات السهم ضاجعـت الفتى   وأعمل فكر الليل، والليل عاكـر[2]

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ ص ٨١.

(٢) الحلة السيراء ج ١ ص ٢١، ٢٢، ٢٣. والعمدة لابن رشيق ج ١ ص ٣٦.

وباكرني في حاجة لم يجد بها سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بما لي همه من مقامه وزايله هم طروق مسامر
وكان له فضل عليَّ بظنه بي الخير إني للذي ظن شاكر

ونسب إليه أيضا وقد عمي في آخر عمره، وروي عنه من وجده: قاله أبو عمر بن عبد البر وغيره:

أن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

وهذا من أحسن ما قيل في هذا المعنى، وهو داخل في باب تحسين ما يقبح. ومن ذلك قول بشار بن برد:

عميت جنينا والذكاء من العمى فجئت مصيب الظن للعلم موئلا
وغاض صفاء العين للعقل رافدا بقلب اذا ما ضيع الناس حصلا
وشعر كنور الروض لامست نظمه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا[1]

وقال آخر: ويروى لأبي العلاء والصحيح أنه لأبي الحسن الحصري (ـ ٤٨٨هـ):

وقالوا: عميت، فقلت: كلا واني اليوم أبصر من بصير
سواد العين زار سواد قلبي ليجتمعا على فهم الأمور

وقال عبدالله بن سليمان القرطبي النحوي وكان أعمى[2]:

تقول: من العمى بالحسن؟ قلت لها: كفى عين الله في تصديقه الخبر
القلب يدرك ما لا عين تدركه والحسن ما استحسنته النفس لا البصر
ما العيون التي تعمى إذا نظرت بل القلوب التي يعمى بها النظر

---

(١) الحلة السيراء في شعر الأمراء لابن الأبار ج ١ ص ٢٢، ٢٣ وابن رشيق ج ١ ص ٣٧.
(٢) ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس، والزبيدي في طبقات اللغويين ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم عام ١٩٥٥.

ومن جيده أيضا - قول الآخر:

قـالـوا: العمـى منظـر قبيـح ... قلـت: بفقـدي لهـم يهـون
تـالله مـا في الأنـام شيء ... تأسى عـلى فـقـده العيـون

كأنه أخذه من قول سعيد بن المسيب، وقد نزل الماء في عينيه، فقيل له: «لو فتحتها»، فقال «وعلى من أفتحها؟».

ومثل هذا قول المعري:

أبـا العـلاء بـن سليمانـا ... إن العمـى أولاك إحسـانـا
لـو أبصرت عينـاك هـذا الورى ... لم يـر انسـانـك إنسـانـا[1]

وكان والده العباس شاعرا مفلقا: من ذلك قوله - رحمه الله - يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله ﷺ:

ألا هل أتى عرسي مكري وموقفي ... بـوادي حنين والأسِنّـة تشرع
وقولي اذا ما النفس جاشت لها قدي ... وهام تدهـدي والسـواعـد تقطـع
وكيف رددت الخيـل وهـي مغيرة ... بـزوراء تعطـي بـاليـديـن وتمنـع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة[2] ... وقد فر من قد فر عنه فـأقشعـوا

سئل الحطيئة عن أشعر الناس فقال: أبو دؤاد حيث يقول:

لا أعـد الإقتـار عُـدْمـا، ولكـن ... فقـد مـن قـد رزئتـه الاعـدام

وهو إن كان فحلا قديما، وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ويروي شعره فلم يقل فيه أحد من النقاد مقالة الحطيئة. وسأله ابن عباس مرة اخرى، فقال الذي يقول[3]:

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبار جـ ١ ص ٢٣.

(٢) الذين بقوا مع رسول الله يوم حنين: أبو بكر، عمر، علي، العباس، الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث، ومعتب بن أبي لهب.

(٣) قائل البيت الأول زهير ابن أبي سلمى، وقائل الثاني هو النابغة الذبياني.

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِرْهُ، ومن لا يتق الشتم يشتم

وليس الذي يقول:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذب؟

ولكن الضراعة أفسدته، كما أفسدت جرولا، والله لولا الجشع لكنت أشعر الماضين، وأما الباقون فلا شك أني اشعرهم.. قال ابن عباس: كذلك أنت يا ابا مليكة[1].

وواضح أن معرفة ابن عباس بالشعر - جاهليه واسلاميه كانت أمرًا طبيعيا عنده، مما ينبئ عن حافظة مستوعبة لمخزونها، مصنفة له، اذ كان على طرف لسانه منه ما يناسب وقائع يومه في بديهة حاضرة، وحافظة سريعة، وقد حفظ من الشعر ما يجعله شبه راوية لكثير من الشعراء وكان يردد ما كتبه الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أبي موسى الأشعري: مر من قبلك نتعلم الشعر، فانه يدل على معالي الاخلاق، وصواب الرأي ومعرفة الأنساب[2].

ورووا أن أعرابيا وقف على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك.. فان أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وان لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال له علي: خط حاجتك في الأرض.. فاني أرى الضر عليك، فكتب الاعرابي على الارض «اني فقير» فقال علي: يا قنبر، ادفع إليه حلتي الفلانية فلما أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف اكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به فكل عبد سيجزى بالذي فعلا

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٩٧.
(٢) انظر مجالس ثعلب ج ١ ص ١١٤.

فقال علي: يا قنبر، أعطه خمسين دينارا، أما الحلة فلمسألتك وأما الدنانير فلأدبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انزلوا الناس منازلهم»[1].

وقيل لسعيد بن المسيب: ان قوما بالعراق يكرهون الشعر. فقال: نسكوا نسكا أعجميا[2].

ولمكانة الشعر ومنزلته العالية يروي نوح بن أحمد عن أبيه عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال:[3] جاء النابغة الجعدي الى رسول الله - ﷺ - فقال: «هل معك من الشعر ما عفا الله عنه؟» قال: نعم قال: أنشدني منه، فأنشد:

وانا لقوم ما تعود خيلنا	اذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وتنكر يوم الروع الوان خيلنا	من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردها	صحاحا ولا مستنكرا أن تعفرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا	وانا لنبغي فوق ذلك مظهرا[4]

فقال له رسول الله ﷺ إلى أين يا أبا ليلى؟! فقال: إلى الجنة، فقال رسول الله ﷺ «إلى الجنة إن شاء الله».

إلى أن قال النابغة:

ولا خير في جهل اذا لم يكن له	حلم اذا ما أورد الأمر أصدرا
ولا خير في حلم اذا لم تكن له	بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

فقال رسول الله ﷺ: «لا فض الله فاك» قال: فأتت عليه عشرون ومائة

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٨، ٢٩.
(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٨، ٢٩.
(٣) انظر الرسالة الثالثة عشرة من رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣٦٣.
(٤) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدي في جهرة أشعار العرب ص ١٤٥ - ١٤٨.

سنة، ما سقطت له سن لدعوة رسول الله ﷺ[1].

وهنا أحب أن أعود إلى ما وجهه الخوارج على لسان زعيم من زعمائهم نافع ابن الأزرق من نقد إلى ابن عباس لسماعه شعر ابن أبي ربيعة ونستمع إلى كلمة الجاحظ في رسالته الثالثة عشرة: يقول: ان لكل نوع من العلم أهلا يقصدونه ويؤثرونه، وأصناف العلم لا تحصى، منها الجزل ومنها السخيف.

ومن كان صاحب علم ممرنا موقحا الف تفكير وتنقيب ودراسة، لم يغره النظر في كل فن من الجد والهزل.. ليخرج بذلك من شكل الى شكل، فان الأسماع قد تمل الأصوات المطربة والأوتار الفصيحة، والأغاني الحسنة اذا طال ذلك عليها، وقد روى عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أنه قال: اني لأستجم نفسي ببعض الباطل مخافة أن أحمل عليها من الحق ما يملها».

وقد روي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال: «العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا من كل شيء أحسنه».

وروي عن الشعبي أنه قال: «إن القلوب تمل كما تمل الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة».

ويعلق الجاحظ تعليقا لاذعا على الأدباء الذين يتناولون بالذم ما يسمى بالأدب المكشوف..؟! ويقول: ان بعض من يظهر النسك والتقشف إذا ذكر الحر والأير!! تقزز وانقبض. وأكثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس له من المعرفة والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا التصنع؟؟.

ويستشهد بقول ابن عباس وهو في المسجد الحرام[2].

وهن يمشين بنا هميسا ان تصدق الطير نَبِل لميسا

فقيل له: ان هذا من الرفث! فقال: انما الرفث كان عند النساء!! وأيضا

(١) انظر كتاب مفاخرة الجواري والغلمان للجاحظ ج ١ ص ٣٦٣.

(٢) انظر حواشي الحيوان للجاحظ في هذا الموضع.

قول علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ وقد دخل على بعض أهل البصرة، فسألهم: من في هذه البيوت؟!

فقالوا: عقائل من عقائل العرب. فقال: «من يطل أير أبيه ينتطق به (ومعناه من كثر اخوته اشتد ظهره وعزه بهم)[1] «فعلى علي في التنزه يعول».

وقول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لبديل من ورقاء يوم الحديبية وقد تهدد رسول الله ﷺ «عضضت ببظر اللات، أنحن نخذله؟!».

وقول سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب: «وأنت يا ابن مقطعة البظور ممن يكثر علينا!».

إنما وضعت هذه الألفاظ ليستعملها أهل اللغة، ولو كان الرأي ألا يلفظ بها ما كان وُضع لها معنى، ولكان في التحريم والصون للغة العرب أن ترفع هذه الاسماء والألفاظ منها، وقد أصاب كل الصواب من قال: «لكل مقام مقال». ويقول الجاحظ أيضا: وإنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها[2].

وفي هذا الجو، جو الإيمان العميق المشحون بعاطفة الإسلام والتواد بين الناس جميعا، والحب المدعوم بالذوق الراقي المهذب كان ابن عباس يفسح في مجالسه لكثير من الشعراء يسمع لهم ويوجههم ويدعوهم إلى البعد عن الثقل والتطويل والحشو والتكلف، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها.. بل كان يعيش مع شعراء الغزل.. ويحاول أن يطبعهم بطابع الذوق المرهف، والإحساس الرفيع، ويشيع فيهم الثقافة المستمدة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

---

(١) انظر مجمع الامثال ج ٢ ص ٢٢٨.

(٢) انظر الحيوان ج ٦ ص ٢٤٧. والنقد الأدبي. د. حسن جاد ص ٦٧.

وابن عباس بذلك يعتبر ظاهرة فريدة حيث يضع بنقده وتوجيهه هذا الأساس لجمال الشعر، على ضوء المبادئ الإسلامية.

قال الاصمعي: أخبرني يونس بن حبيب قال:[1] أتى قوم إلى ابن عباس بفتى محمول ضعفا، فقالوا: استشف لهذا الغلام، فنظر إلى فتى حلو الوجه، عاري العظام، فقال له: ما بك؟ فقال:

بنا من جوى الغيد المبرح لوعة تكاد لها نفس الشفيق تذوب
ولكنما أبقى حشاشة[2] ما نرى على ما به عود هناك صليب

فقال ابن عباس: أرأيتم وجها أعتق، ولسانا أذلق، وعودا أصلب، وهوى أغلب، مما رأيتم اليوم؟! هذا قتيل الحب لا قود ولا دية!..

نحن الآن أمام عالم نفساني قبل أن يبتكر علم النفس بقرون.. ذي بصر نافذ للصراع داخل النفس البشرية، وصدق حسان:[3]

شفى وكفى ما في النفوس فلم يدع لذي لسن في القول جدا ولا هزلا

أما ابن عباس فقد كان يتمتع بذوق أدبي رفيع وملكة بيانية أصيلة، وبحس مرهف. ذوقه ذوق عالم مثقف، يلم بشتى ألوان الثقافة والمعرفة.

كان يعتمد على شفافية حسه، ورقة ذوقه في أحكامه الأدبية.

مرَّ بقوم ينالون من الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ويسبونه فقال لقائده:[4]

أدنِني منهم، فأدناه، فقال: أيكم الساب الله؟!..

---

(١) زهر الآداب وثمر الالباب ص ٩٥ ـ ٩٦. والاغاني ١٥٨/٢٠.
(٢) الحشاشة: بقية الروح في المريض.
(٣) ديوان حسان: ٣٥٩.
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٠.

قالوا: نعوذ بالله أن نسب الله، فقال: أيكم الساب رسول الله - ﷺ -؟!.. فقالوا: نعوذ بالله أن نسب رسول الله ﷺ فقال: أيكم الساب علي بن أبي طالب؟!...

قالوا: أما هذه فنعم، قال:

أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سبني فقد سب الله، ومن سب عليا فقد سبني». فأطرقوا، فلما ولى قال لقائده: كيف رأيتهم؟ فقال: نظروا إليك بأعين مزورة نظر التيوس إلى شفار الجازر[1] فقال: زدني - فداك أبي وأمي - فقال:

خزر العيون منكس أذقانهم ... نظر الذليل إلى العزيز القاهر[2]

قال: زدني - فداك أبي وأمي، قال: ما عندي مزيد، (قال): ولكن عندي:

أحياؤهم تخزي على أمواتهم ... والميتون فضيحة للغابر

وفي كلام موجه إلى أبي موسى الأشعري في قضية التحكيم يقول ابن عباس شعرا[3]:

أبا موسى، بليت وأنت شيخ ... قريب العفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يابن قيس ... فيا لله من شيخ يماني[4]
فأمسيت العشية ذا اعتذار ... ضعيف الركن منكوب الجنان
تعض الكف من ندم وماذا ... يرد عليك عضك للبنان

وقال بعض شعراء قريش:

---

(١) وفي رواية: بأعين محمرة.

(٢) وفي رواية: خزر العيون نواكس أبصارهم.

(٣) هذا الشعر لابن أعين في الشعر والشعراء.

(٤) وفي رواية: وما عمرو صفا بك.

والله ما كلم الأقوام من بشر — بعد الوصي علي كابن عباس
أوصي ابن قيس بأمر فيه عصمته — لو كان فيها أبو موسى من الناس
اني أخاف عليه مكر صاحبه — أرجو رجاء مخوفا شيب بالناس[1]

ولما بلغ عليا ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال:

اني كنت تقدمت إليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها، فأبيتم إلا عصياني فكيف رأيتم عاقبة أمركم اذ أبيتم علي؟!.. والله اني لأعرف من حملكم على خلافي، والترك لأمري، ولو أشاء أخذه لفعلت ولكن الله من ورائه، يريد بذلك الاشعث بن قيس، والله أعلم وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بني خثعم:

أمرتهم أمري بنعيج اللوى — فلم يستبينوا النصح[2] إلا ضحى الغد

كان ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ يتذوق الشعر ويسمعه ويرق لمعانيه، وذلك من وحي شفافيته به، وإحساسه الجمالي بقيمته وتأثيره المباشر وهو الذي يقول[3] فيما يحتاج إليه المرء من الدين والأدب.. «كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسعك جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثال (والمثل)» فهو كان يتعشق من الشعر ما يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويتأفف من ألوان الشعر الخبيث الذي يحمل في طياته وبين ثناياه روح الجاهلية.

ولمعاوية بن أبي سفيان يقول في ابن عباس وقد أعجزته بلاغته:

اذا قال لم يترك مقالا ولم يقف — لعي ولم يثن اللسان على هجر
يصرف بالقول اللسان اذا انتحى — وينظر في أعطافه نظر الصقر[4]

---

(١) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٠.
(٢) وفي رواية الرشد.
(٣) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٤٢٣، ٤٢٤.
(٤) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٠.

وكان عبدالله بن عباس.. وهو في طريقه من البصرة إلى مكة يحدو الابل ويقول:

أو لي إلى أهلــك يـــا ربـــاب   أولى فقـد هـان لـك الإيـــاب[1]

وعن سفيان الثوري عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال: انها لكلمة نبي. يعني قول الحطيئة[2]:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا   ويأتيـك بـالاخبـار مـن لم تـزود

وهذه صورة جمالية تعتمد على الفطرة والذوق، والشعور بالاستحسان أو الاستهجان، وان كانت بلا تفسير أو تعليل، ولكنها تخضع للمقاييس العقلية والمبادئ الإسلامية.

ولذلك نجد ابن عباس يردد قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «الشعر جزل من كلام العرب الخ..»، وهو يقول: الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه، وعليكم بشعر الحجاز[3]! وجاء في العقد الفريد. قال عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أنشدت النبي - ﷺ - أبياتا لأمية بن أبي الصلت يذكر فيها حملة العرش، وهي:

رجـل وثـور تحت رجـل يمينــه   والنسر للأخرى وليث مـرصــد[4]
والشمس تطلـع كـل آخـر ليلـة   فجـرا ويصبـح لـونها يتـوقـــد[5]

---

(١) انظر العقد الفريد ج ٥ ص ٢٨٧.

(٢) البيت لطرفة في المعلقة وليس للحطيئة!! كما جاء في العقد الفريد ج ٥ ص ٢٧٦.

(٣) انظر العقد الفريد ج ٥ ص ٢٨١.

(٤) قال الجاحظ في كتاب الحيوان - ج ٦ ص ٦٨: «وقد جاء في الخبر أن من الملائكة من هو في صورة الرجال، ومنهم من هو في صورة الثيران، ومنهم من هو في صورة النسور. ويدل على ذلك تصديق الرسول الكريم - لأمية ابن أبي الصلت ثم ذكر البيت. وفي بعض الأصول: «التيس»... ملبد «وانظر الاغاني ج ٤ ص ١٢٨ - طبعة دار الكتب المصرية».

(٥) رواية هذا العجز في الاغاني: حمراء مطلعها لونها متورد.

تبــدو فما تبــدو لهم في وقتهـــا الا معـــذبـــة والا تجلـــد

فتبسم النبي ﷺ كالمصدق له.

وأستطيع أن أقول أن تبسم النبي ﷺ ليس تصديقا لشعر ابن أبي الصلت لأن هذا يخالف العلم ونظرياته..

وأخيرا.. كنا نظن أن ابن عباس كان شاعرا، لأن الشعر لا يغض من سمو مكانته أو ينتقص من علمه أو يهون من أدبه وبلاغته وتذوقه للشعر.

لكن الواقع وحقيقة الأمر أنه لم يكن شاعرا وانما كانت تربطه بالشعر علاقات آسرة، وتأثر ذاتي، وانطباع فطري.. لأنه وقف على أدق أسراره وقيمه الشعورية والتعبيرية، وذلك تمشيا مع ذوقه المرهف، وشعوره الفياض، وملكاته ومواهبه وأصالة طبعه، وصفاء قريحته، فهو في أوج الثقافة وأعلى مراتب المعرفة، وقد تمرس بألوان الأساليب المتنوعة وفنون الصور المختلفة، وضروب البيان، فأصبح منارة تهدي الحيارى إلى بر الأمان.

وكما كان يقول الإمام علي - رضي الله عنه - في ابن عباس: «لقد كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

موقف ابن عباس من الشعر

ان الثقافة الإسلامية هي الثقافة التي أثرت في تكوين ابن عباس كما كانت قراءة الشعر وتذوقه هي هواية ابن عباس، وقد أتاحت له بيئته وظروف حياته بجانب ابن عمه رسول الإسلام، والشعراء يفدون من كل أنحاء البدو والحضر يلقون قصائدهم ومدائحهم أتاحت له أن يعاشرهم في سن مبكرة، وأن يتصل بهم اتصالا قويا يؤثر في مزاجه وخياله وعقله وقلبه.

وكان ابن عباس ذا ذوق شاعري رفيع، يتجلى في سبره أغوار البلاغة شعرا ونثرا، وفي نطقه بروائع البلاغات وبدائع الفصاحات، وكان يسخر بمن يكره الشعر.

وسئل: هل الشعر من رفث القول؟!.. فأنشد:

وهـــن يمشين بنـــا هميســـا ان تصـدق الطير تبُـل لميســـا[1]

وقال: إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة!!.

وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب الله - عز وجل - فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فان الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا وكان يروي عن النبي ﷺ قوله: «لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين».

وأيضا كان يذكر أن عائشة - رضي الله عنها - كانت كثيرة الرواية للشعر بل يقال: انها كانت تروي جميع شعر لبيد[2].

وقالت عائشة، الشعر فيه كلام حسن وقبيح، فخذ الحسن واترك القبيح: وهي حكمة نقدية للتفرقة بين الكلم الطيب وغير الطيب وكأنها كانت تردد معنى قول رسول السلام «إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه».

وقال عليه السلام «انما الشعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيب».

ويروى عن هشام بن عمرة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - ان النبي ﷺ بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبرا ينشد عليه الشعر[3] وقال عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه[4].

وكان ابن عباس - مع الشعر والشعراء - في كل موقف وكل حال فهو

---

(١) انظر ابن رشيق - العمدة للقيرواني ص ٣٠ وفي شرح القاموس للمرتضي والعقد الفريد بالكاف بدل اللام - أما في عيون الاخبار لابن قتيبة الدينوري باللام ص ١٢١.

(٢) ابن رشيق - العمدة للقيرواني ص ٣١ ج ١ في محاسن الشعر وآدابه ونقده.

(٣) ابن رشيق ص ٢٨ ج ١.

(٤) الحيوان ج ٥ ص ٥٩٠.

يقوم مناهج الشعراء، ويأخذ بأيديهم الى الفضائل والمثل، والأخلاق والآداب والقيم الإسلامية، كما ينأى بهم عن خبيث الشعر وقذع الهجاء.

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم!!..

وروى ابن عائشة برفعه قال: قال رسول الله - ﷺ - الشعر كلام من كلام العرب جزل، تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها.

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: مر الزبير بن العوام - رضي الله عنه - بمجلس لأصحاب النبي ﷺ وحسان ينشدهم، وهم غير أذنين لما يسمعون من شعره. فقال: ما لي أراكم غير أذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة.. لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه اذا أنشده[1].

ويروى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مر بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ﷺ ثم قال: أرغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان: دعني عنك يا عمر، فوالله انك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك، فقال عمر: صدقت!!..

نعم لقد صدقه عمر.. لأن علم ابن الخطاب ببلاغة الشعر وروعة القصيد، يرجع إلى محصوله الوافر منه، وحفظه الكثير من نماذجه، يقول الجاحظ: «ما أبرم عمر بن الخطاب أمرا قط، الا تمثل ببيت شعر»[2].

وقال معاوية - رحمه الله - يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب[3].

---

(١) ابن رشيق ص ٢٨ ج ١.

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٥٩٠.

(٣) ابن رشيق ج ١ ص ٢٩.

وقد أورد ابن سلام في طبقاته قول «عمر بن الخطاب»: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه». ثم عقب عليه بقوله: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير».

وهذا الكلام كان يحتاج إلى تعليق لأن فيه جزءًا من حق وفيه جزءًا من غير حق وآخر يحتاج إلى توضيح، فالحق قوله: «فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير» وأما غير الحق فهو هذا هو التعميم الواسع في قوله «فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب»!!.

والواقع أن تحول الشعر من روح الجاهلية إلى روح جديدة، ومعان جديدة قد عاد على بعض الشعراء بشيء من الانقباض وضيق الأفق، حيث التزم الشعراء بالتعبير عن المعاني والأغراض الإسلامية العالية، وحرمت عليهم معاني الشعر الجاهلي، والتي تتعارض مع قيم الإسلام الرفيعة، وتغاير مثله وأهدافه النبيلة.

ويقول «العقاد» في كتابه «ساعات بين الكتب»: ليس الشعر لغوا تهذي به القرائح فتلقاه العقول في ساعة كلالها وفتورها، فلو كان كذلك لما كان له هذا الشأن في حياة الناس.. لا بل الشعر حقيقة الحقائق، ولب اللباب والجوهر الصميم من كل ما له ظاهر في متناول الحواس والعقول، وهو ترجمان النفس والناقل الأمين عن لسانها، فان كانت النفس تكذب فيما تحس به، أو تداجي بينها وبين ضميرها فالشعر كاذب، وكل شيء في هذا الوجود كاذب، والدنيا كلها رياء، ولا موضع للحقيقة في شيء من الأشياء.

قد يخالف الشعر الحقيقة في صورته، ولكن الحر الأصيل منه لا يتعداها،

ولا يمكن أن يشذ عنها لأنه لا حقيقة إلا بما ثبت في النفس واحتوته الحواس. والشعر اذا عبر عن الوجدان لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلا وحي يوحى﴾[1].

ابن عباس
والانتحال في الشعر الجاهلي

هناك الكثير عن معرفة « عبدالله بن عباس » بكل ما يتصل بالشعر الجاهلي بطرقه وأساليبه وروايته اياه وتحبيب طلاب العلم في تعلمه ووضعه في إطار مضيء يشع المعرفة على فهم كتاب الله تعالى فهو كان دائما يلفت الأنظار ويوقد الأذهان ويطلب في الحاح صدوق بالرجوع إلى الشعر على اعتبار أنه ديوان العرب..

وقد أسهم في هذا الموضوع اسهاما طيبا د. ناصر الدين الأسد[2] وهنا أحب أن أعود إلى أول من شق طريق البحث في هذا الموضوع من أدباء العصر « مصطفى صادق الرافعي » في كتابه « تاريخ آداب العرب » وقد صدر في عام ١٩١١م.. وقد خص الرواية والرواة بباب كامل من الجزء الأول زادت صفحاته على مائة وخمسين[3] حشد فيه من الأفكار ما لم يقدمه كاتب أو أديب أو راو حتى أيامنا هذه، وقد لَمَّ فيه شتات هذا الموضوع بأسلوب جريء وحوار ممتع، وان كان يكتفي أحيانا بالرواية دون نقد للأخبار والروايات نقدا يميز زائفها من صحيحها ـ الا في بعض الأحايين ولكننا لا

---

(١) سورة النجم الآية ٤.
(٢) مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص ٣٧٧ ـ ٤٢٨.
(٣) تاريخ آداب العرب ص ٢٧٧ ـ ٤٣٤.

ننكر فضله وجهده في ما قدم وجمع واستقصى فيما قدم وذكر عن «وضع الشعر»..

ولن أطيل في ذلك وخاصة ما قدمه من (البواعث على وضع الشعر في الإسلام) فليس هذا البحث مجاله أو دائرة اختصاصه ولكني أرى أن الرافعي قد دار مع القدماء من مفكري العرب وسرد ما رووه من أخبار، وحصر المادة العلمية في ذات الدائرة التي عاش فيها القدماء فهو لم يحمل نصا اكثر مما يحتمل ولم يعتسف الطريق اعتسافا إلى الاستنتاج والاستنباط ولا إلى الظن والافتراض، ولم يجعل من الخبر الواحد قاعدة عامة، ولا من الحالات الفردية نظرية شاملة.

ثم نجد باحثا آخر هو الدكتور طه حسين أدلى بدلوه في هذا الموضوع الزاخر وساقه في أسلوب آخاذ يلف القارئ معه لفًا حتى يكاد أن ينسيه نفسه ويصرفه عن مناقشة رأيه. وقد أنكر آراءه في الانتحال كثير من أدباء عصرنا انكارا شديدا يتمثل في هذه الكتب التي ألفوها للرد عليه ونقض كتابه.. الذي جعل عنوانه:

أولا: الشعر الجاهلي ثم غيره وجعله..
ثانيا: في الأدب الجاهلي..

وقد استقى الدكتور طه حسين جل مادته - حيث يستشهد ويتمثل بالأخبار والروايات - من العرب القدماء، وسلك بها على طريقة مستشرق غربي هو «مرجليوث» في الاستنباط والاستنتاج، والتوسع في دلالات الروايات والأخبار، وتعميم الحكم الفردي الخاص واتخاذه قاعدة عامة، ثم صاغ تلك المادة في إطار من أسلوب فني وبيان أخّاذ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من «أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وانما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم

وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين»[1]..

و«ان هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن»[2] ثم يكاد يعتدل بعض الشيء فيقسم الشعر الجاهلي إلى ثلاث طوائف ويقول[3].

اننا نرفض شعر اليمن في الجاهلية، ونكاد نرفض شعر ربيعة ايضا.. وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضري الجاهلي، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار، وانما نقول موقف الشك والاحتياط..

وحديث الدكتور طه حسين، في هذا ينقسم ثلاثة أقسام: الأولَيْن منها عامّيْن، أولهما: الدوافع التي دفعته إلى الشك في هذا الشعر، وثانيهما: الأسباب التي يرى أنها أدت إلى نحل الشعر الجاهلي ووضعه، أما القسم الثالث فخاص يتحدث فيه عن شعراء بذاتهم.

ما الذي دفعه إلى الريب والشك؟!

بحث الدكتور في الشعر الجاهلي وقَدَّر فوجد فيه أشياء رَابَتْه فشك فيه، وانتهى إلى أن كثرته الكاثرة ليست جاهلية وإنما هي منحولة بعد ظهور الدين الجديد، ومن هذه الأمور:

١ ـ **الحياة الدينية:** فهذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية ـ المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية.. وإلا فأين تجد شيئا من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة؟ أو ليس عجيبا أن يعجز الشعر

---

(١) في الأدب الجاهلي: ٧١ ـ ٧٢.

(٢) في الأدب الجاهلي: ٧٣.

(٣) في الأدب الجاهلي: ٢٧١ ـ ٢٧٥.

الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين، وأما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال.. أفتظن أن قريشا كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم الوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحي في سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدين الا ما يمثله هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا..»[١].

ب - وينتقل إلى **الحياة العقلية والحضارية** فيقول[٢] «أفتظن قوما يجادلون في هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا! لم يكونوا جهالا ولا أغبياء، ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وانما كانوا أصحاب علم وذكاء، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة..».

ج - **الحياة السياسية**: ثم يرى أن العرب «كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، بل كانوا على اتصال قوي بمختلف الشعوب.. أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها إلى حزبين مختلفين: حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء، أليس في القرآن سورة تسمى «سورة الروم»؟ لم يكن العرب اذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين.. فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم. وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة: **﴿لإيلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾**[٣]. وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة والفرس»[٤]..

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٨٠.

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٨١.

(٣) سورة قريش، الآيتان ١ و٢.

(٤) في الأدب الجاهلي ص ٨٠.

والشعر الجاهلي لا يمثل شيئا من ذلك كله مما يمثله القرآن الكريم..

د ـ **الحياة الاقتصادية:** ثم يقول الدكتور طه[1]: فانت تستطيع أن تقرأ أمرأ القيس كله وغير امرئ القيس، وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الأدب الجاهلي كله دون أن تظفر بشيء ذي غناء يمثل لك حياة العرب الاقتصادية فيما بينهم وبين أنفسهم»..

ثم يتحدث عما في القرآن من إشارات إلى الحياة الاقتصادية لدى عرب الجاهلية فيقول[2]: «وأنت اذا قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب إلى فريقين آخرين: فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين في الربا، وفريق الفقراء والمعدمين أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم من أن يقاوموا هؤلاء المرابين أو يستغنوا عنهم، وقد وقف الإسلام في صراحة وحزم إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين وناضل وذاد خصومهم والمسرفين في ظلمهم.. أفتظن أن القرآن كان يعني هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة، وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب، بحيث تدعو إلى ذلك؟ فالتمس لي هذا أو شيئا كهذا في الشعر الجاهلي، وحدثني أين تجد في هذا الأدب: شعره ونثره، ما يصور لك نضالا ما بين الأغنياء والفقراء..».

ثم يتحدث عن ناحية أخرى فيقول[3]: «كنا ننتظر أن يمثلها الشعر لأنها خليقة به وتكاد تكون موقوفة عليه، نريد هذه الناحية النفسية الخالصة، هذه الناحية التي تظهر لنا الصلة بين العربي والمال.. فالشعر الجاهلي يمثل لنا العرب أجوادًا كراما مهينين للأموال مسرفين في ازدرائها، ولكن في القرآن الحاحا في ذم البخل والحاحا في ذم الطمع، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية.. فالعرب في الجاهلية لم يكونوا كما

(١) في الأدب الجاهلي ص ٨١.

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٨٤.

(٣) في الأدب الجاهلي ص ٨٤.

يمثلهم هذا الشعر أجوادًا متلفين للمال مهينين لكرامته، وانما كان منهم الجواد والبخيل، وكان منهم المتلاف والحريص، وكان منهم من يزدري المال ومنهم من يزدري الفضيلة والعاطفة في سبيل جمعه وتحصيله »..

ثم يتحدث عما في القرآن من تنظيم للصلة بين الدائن والمدين..

هـ ـ **الحياة الاجتماعية:** ثم ينتهي إلى الحديث عن حياة العرب الإجتماعية في الجاهلية فيقول[1]: « فهذا الشعر لا يعنى إلا بحياة الصحراء والبادية، وهو لا يعني بها الا من نواح لا تمثلها تمثيلا تاما. فإذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مسًّا رفيقا ولا يتغلغل في أعماقها، وما هكذا نعرف شعر الإسلام. ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل، أما القرآن فيمنّ على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر وبأن لهم في هذا البحر منافع كثيرة.. ».

و ـ **اختلاف اللغة:** ويروي الدكتور طه أن هذا الشعر « بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه »[2].. ثم يقول: « ان هناك خلافا قويا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة) » ويستند في ذلك إلى أمرين، الأول: ما قاله أبو عمرو بن العلاء، وهو ـ كما أورده الدكتور طه حسين ـ: ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا.. والثاني: أن البحث الحديث أثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد، ثم يشير إلى هذه النقوش الحميرية التي اكتشفت وإلى ما أورده (جويدي) في كتابه (المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة).. ثم ينتهي من كل ذلك إلى قوله: « واذن فما خطب هؤلاء الشعراء الجاهليين الذين ينسبون إلى قحطان، والذين كانت كثرتهم تنزل اليمن

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٨٧.

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٨٨.

وكانت قلتهم من قبائل يقال انها قحطانية قد هاجرت إلى الشمال!.. ما خطب هؤلاء الشعراء، وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع، وكلهم يتخذ لشعره ونثره اللغة العربية الفصحى كما نراها في القرآن؟ أما أن هؤلاء الناس كانوا يتكلمون لغتنا العربية الفصحى فغرض لا سبيل إلى الوقف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى، أو قل لغات أخرى»، ثم يعرض لما يقال من احتمال لاتخاذ أهل الجنوب اللغة العدنانية لغة أدبية، فينفيه لأن «السيادة السياسية والاقتصادية ـ التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب ـ قد كانت للقحطانيين دون العدنانيين»[1].

ز ـ **اختلاف اللهجات**: وبعد أن ينتهي من الشعر الذي يضاف إلى القحطانيين ينتقل إلى الشعر الذي يضاف إلى العدنانيين فيقول[2]: «فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيرا من تباين اللهجات، وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ولا سيما اذا صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفا وهي نظرية العزلة العربية.. فإذا صح هذا كله كان من المعقول جدا أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة ولكننا لا نرى شيئا من ذلك في الشعر العربي الجاهلي، فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح فسترى فيها مطولة لامرئ القيس وهو من «كِنْـدَة» أي من قحطان وأخرى لزهير، وأخرى لعنترة، وثالثة للبيد، وكلهم من قيس ثم قصيدة لطرفة، وقصيدة لعمرو بن

---

(١) في الأدب الجاهلي ص٩٨.

(٢) في الأدب الجاهلي ص١٠٣ ـ ١٠٤.

كلثوم، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة ـ وكلهم من ربيعة.. تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة، أو تباينا في مذهب الكلام: البحر العروضي هو هو، وقواعد القافية هي هي والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين، والمذهب الشعري هو هو.. فنحن بين اثنين:

أما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي، واما أن نعترف بان هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وانما حمل عليها بعد الإسلام حملا، ونحن الى الثانية أميل منا إلى الأولى فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان»..

ح ـ **الاستشهاد بالشعر الجاهلي على الفاظ القرآن والحديث:** قال الدكتور فيما قال[1]: «إنَّا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلي مادة للاستشهاد على الفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية، ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون في ذلك مشقة ولا عسرا، حتى أنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلي أنما قُدَّ على قدّ القرآن والحديث كما يقد الثوب على قدّ لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولا وسعة، اذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء، وأن هذه الدقة في الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلي لا ينبغي أن تحمل على الاطمئنان الا الذين رُزقوا حظًّا من السذاجة لم يُتح لنا. مثله لقد أنفق في هذا التكلف أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي؟».

ط ـ أما آخر الأمور التي لحظها الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي وبعثت في نفسه الشك والريبة، ودفعته الى أن يصمه بأنه منحول موضوع، فهو أنه لم يصلنا إلا عن **طريق الرواية الشفهية**، التي لا تغني من العلم شيئا،

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٤٠.

ولعل أصرح جملة عن هذا الأمر قوله[1]: «وحسبي أن شعر أمية بن أبي الصلت لم يصل إلينا الا من طريق الرواية والحفظ لأشك في صحته كما شككتُ في شعر امرئ القيس والأعشى وزهير...».

وبعد:

فقد ختم الدكتور طه حسين فصله الذي تحدث فيه عن دوافع شكه في الشعر الجاهلي بعبارة فيها جماع ما ذكر، وفيها تمهيد لما سيذكره وذلك قوله:

«ان من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل: أليس هذا الشعر الجاهلي الذي ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم، بل لا يمثل لغتهم - أليس هذا الشعر قد وضع وضعا وحُمل على أصحابه حَمْلاً بعد الإسلام؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن في هذا، ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية ان نتبين الأسباب المختلفة التي حملت الناس على وضع الشعر والنثر ونحلها بعد الإسلام»..

باب النحل:

★ ومن أجل ذلك تراه في «الكتاب الثالث» يبسط «أسباب نحل الشعر» بسطا أفرغ فيه كثيرا من الجهد حتى لقد وصل بنا إلى أن «كل شيء في حياة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى نحل الشعر وتلفيقه سواء في ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة، والحياة السيئة حياة الفسق وأصحاب المجون[2] «وهو يرى أن هذه الأسباب التي دعت إلى نحل الشعر ووضعه مَرَدُّها إلى خمسة أمور».

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٢٣.

(٢) في الأدب الجاهلي ص ١٩٣.

أولا: الجانب السياسي:

وهو لا يعني السياسة بمعناها الواسع الذي نفهمه منها الآن وانما يحصر مدلول السياسة في العصبية القبلية، وحتى العصبية لا يتحدث عنها حديثا شاملا، ولكنه يكتفي منها بمثالين:

أولا: العصبية «بين المهاجرين والأنصار، أو بعبارة أصح بين قريش والأنصار»[1]. ويورد لتأييد رأيه، روايتين، الأولى ما يروى من أن عمر بن الخطاب نهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي، ويرى الدكتور طه أن «هذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى وهي أن قريشا والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضا أيام النبي وكانوا حراصا على روايته، ويجدون في ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به الا صاحب العصبية القوية إذا وتر أو انتصر»[2] ويدعم رأيه هذا بما يروى أيضا عن عمر من قوله لأصحاب النبي: «قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن، فأما إذْ أبيتم فاكتبوه»..

ويعقب الدكتور طه على ذلك بقوله[3]:

وسواء أقال عمر هذا أم لم يقله، فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش على ألا يضيع»..

والثانية: ما ذكر من أن ابن سَلاّم قال: وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل في الجاهلية، فاستكثرت منه في الإسلام، وعقب عليه الدكتور بقوله[4]:

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٣٢.
(٢) في الأدب الجاهلي ص ١٣٣.
(٣) في الادب الجاهلي ص ١٣٤.
(٤) في الادب الجاهلي ص ١٣٤.

وليس من شك عندي في أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذي يهجَى به الأنصار.. .

٢ ـ وأما المثال الثاني فهو لا يورده في هذا الفصل الذي عقده عن العصبية القبلية، وانما ينثره في الكتاب الذي يليه حين يتحدث عن امرئ القيس وشعره فيقول[١]: «ونحْن نذهب هذا المذهب نفسه في تفسير هذه الأخبار والأشعار التي تمس تنقل أمرئ القيس في قبائل العرب، فهي محدثَة نُحلت حين تنافست القبائل العربية في الإسلام، وحين أرادت كل قبلية أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن»..

ثانيا: الدين:

وهو يدخل في باب الدين ما يلي من الأمثلة:

١ ـ «هذا النحل في بعض أطواره يقصد به إلى اثبات صحة النبوة وصدق النبي، وكان هذا النوع موجها إلى عامة الناس، وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهدا لبعثة النبي وكل ما يتصل بها من هذه الأخبار والأساطير التي نروي لتقتنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم، وأحبار اليهود ورهبان النصارى، كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو مكة، وفي سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع[٢]..

٢ ـ «وأنت تستطيع أن تحمل على هذا لونا آخر من الشعر المنحول لم يضف إلى الجاهليين من عرب الإنس، وانما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن[٣].. والغرض من هذا النحل ـ فيما نرجح ـ انما هو ارضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة في كل شيء، ولا يكرهون أن يقال لهم: ان من

---

(١) في الادب الجاهلي ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) في الأدب الجاهلي ص ١٤٧.

(٣) في الأدب الجاهلي ص ١٤٧، ١٤٨.

دلائل صدق النبي في رسالته أنه كان منتظرا قبل أن يجيء بدهر طويل، تحدثت بهذا الانتظار شياطين الجن وكهان الإنس[1].

٣ - «ونوع آخر من تأثير الدين في نحل الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش[2]»..

٤ - «نحو آخر من تأثير الدين في نحل الشعر، وهو هذا الذي يلجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوبا في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم، فالرواة يضيفون إليهم شعرا كثيرا، وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جدَّ في طبقات الشعراء في إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يُضاف إلى تُبَّع وحمير موضوع منحول وضعه ابن اسحاق ومن إليه من أصحاب القصص[3]».

٥ - «ونحو آخر من تأثير الدين في نحل الشعر، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة. فأرادوا هم أو الموالي أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درسا لغويا ويثبتوا صحة الفاظه ومعانيه، ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى اثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في الفاظه للغة العرب، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها[4]».

٦ - «وهنا نوع جديد من تأثير الدين في نحل الشعر، فهذه الخصومات بين العلماء كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته.. ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراصا على أن يظهروا دائما بمظهر المنتصرين..

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٤٩.
(٢) في الأدب الجاهلي ص ١٥٠.
(٣) في الشعر الجاهلي ص ١٥٣.
(٤) في الشعر الجاهلي ص ١٥٣.

وأي شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن.. وهم مجمعون على أن هؤلاء الجاهليين الذين قالوا في كل شيء كانوا جهلة غلاظًا فظاظًا.. أترى إلى هؤلاء الجهال الغلاظ يستشهد بجهلهم وغلظتهم على ما انتهت إليه الحضارة العباسية من علم ودقة فنية؟ فالمعتزلة يثبتون مذاهبهم بشعر العرب الجاهليين، وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة معتمدين على شعر الجاهليين. لأمر ما كان من البدع في العصر العباسي عند فريق من الناس أن يرد كل شيء إلى العرب حتى الأشياء التي استحدثت أو جاء بها المغلوبون من الفرس والروم وغيرهم[1]..

٧ - ويعرض لما يروَى من وجود أفراد قبل الإسلام كانوا يحتفظون بالحنيفية دين ابراهيم وكان في أحاديثهم ما يشبه الإسلام، فيقول[2]: «فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم بعد الإسلام لا لشيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قِدَمًا وسابقةً.. وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث شبه قوي أو ضعيف»..

٨ - ثم يتحدث عن المسيحية واليهودية فيقول[3]: «ليس من المعقول أن ينتشر هذان الدينان في البلاد العربية دون أن يكون لها أثر ظاهر في الشعر العربي قبل الإسلام. وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم في الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر، فالأمر كذلك في اليهود والنصارى: تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين، وأبوا إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد كما كان لغيرهم مجد وسؤدد، فنحلوا كما نحل غيرهم ونظموا

---

(١) في الشعر الجاهلي ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) في الشعر الجاهلي ص ١٥٧.

(٣) في الشعر الجاهلي ص ١٦٢ - ١٦٣.

شعرا أضافوه إلى السمؤال بن عادياء وإلى عدي بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى»...

ثالثا: القصص:

وقد عرض للقصاص والقصاصين غير مرة فبعد أن يتحدث عن نشأة القصص وقيام طائفة القصاص يقول[1]: «وأنت تعلم أن القصص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين واذن فقد كان القصاص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه. وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون، ولا أكاد أشك في أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم ولا بما يحتاجون إليه من الشعر في هذا القصص، وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها، وبآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها، ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض هذا الفرض، فقد حدثنا ابن سلاّم أن ابن اسحق كان يعتذر عما يروي من غُثاء الشعر فيقول: لا علم لي بالشعر إنما أُوتيَ به فأحمله، فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله، فمن هؤلاء القوم؟ أليس من الحق أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب، وإنما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النُظَّام والمُنسِّقين، حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس».

ثم يخص بالذكر ثلاثة ضروب من القصص: قصص لتفسير طائفة من الأمثال والأسماء والأمكنة[2]..

(١) في الشعر الجاهلي: ص ١٦٨، ١٦٩.

(٢) في الادب الجاهلي: ص ١٧٤.

وقصص المعمَّرين وأخبارهم[١]، وقصص أيام العرب وأخبارهم[٢].

رابعا: الشعوبية:

ويتحدث الدكتور طه حسين عن الخصومة بين العرب والموالي في الإسلام فيقول[٣]: «أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخبارا وأشعارا وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه».

ويقول[٤]: «كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم، وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم..».

ثم يعيد ما أشار إليه عند حديثه عن الدين، فيقول[٥]: «ونوع آخر من النحل دعت إليه الشعوبية، تجده بنوع خاص في كتاب الحيوان للجاحظ، وما يشبهه من كتب العلم التي ينحو بها أصحابها نحو الأدب، ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم إلى أن يزعموا أن الأدب العربي القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثة، فإذا عرضوا لشيء مما في هذه العلوم الأجنبية فلا بد من أن يثبتوا أن العرب قد عرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفونه ويلمون به»..

---

(١) في الادب الجاهلي: ص ١٧٥.
(٢) في الادب الجاهلي: ص ١٧٦.
(٣) في الادب الجاهلي: ص ١٧٨.
(٤) في الادب الجاهلي: ص ١٨٦.
(٥) في الادب الجاهلي: ص ١٨٧.

خامسا: الرواة:

والرواة في رأيه «بين اثنتين: إما أن يكونوا من العرب، فهم يتأثرون بما كان يتأثر به العرب، واما أن يكونوا من الموالي، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي من تلك الأسباب العامة وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هي التي أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة، ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبثت بالأدب العربي وجعلت حظه من الهزل عظيما: «مُجون الرواة واسرافهم في اللهو والعبث، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق[1].

ـ الشكوك التي راودته في بعض الشعراء.

في القسم الثالث من كتابه تحدث عن شكه في شعر شعراء بذواتهم، وسنعرض فيما يلي ما ذهب إليه عرضا موجزا..

أمرؤ القيس: شك في شعره لأسباب قدمها، **أولها:** تضارب الرواة في اسمه وكنيته ونسبه وحياته[2] **وثانيها:** أن قسما من شعره يدور على قصة حياته يفسرها ويؤيدها، وهو يرى أن هذا القسم موضوع نُحِلَ ليفسر هذه القصة[3].

وثالثها: أن القسم الآخر من شعره المستقل عن الأهواء السياسة والحزبية موضوع منحول كذلك لأن «الضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه بيِّن، والتكلف والإسفاف فيه يكادان يلمسان باليد..»[4] **ورابعها:** أنه يستثني من هذا القسم الأخير قصيدتين هما:

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل

---

(١) في الادب الجاهلي: ص ١٨٨.

(٢) في الادب الجاهلي: ص ٢١٦ ـ ٢١٨.

(٣) في الادب الجاهلي: ص ٢٢١.

(٤) في الادب الجاهلي: ص ٢٢٥.

و: ألا أنعم صباحا أيها الطلل البالي

ومع ذلك فهو يشكّ فيهما من ثلاثة وجوه: **الوجه الأول**: « أن أمرأ القيس إن صحت أحاديث الرواة - يمني، وشعره قرشي اللغة، فرق بينه وبين القرآن في لفظه واعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام.. ونحن نعلم أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز، بل في لغة قريش خاصة؟.. سيقولون: نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان، وكان أبوه ملكا على بني أسد، وكانت أمه من بني تغلب، وكان مهلهل خاله، فليس غريبا أن يصطنع لغة عدنان وعدل عن لغة اليمن، ولكننا نجهل هذا كله، ولا نستطيع أن نثبته إلا من طريق هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس، ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بأنه منحول»[1].

والوجه الثاني: أن امرأ القس لم يذكر قصة البسوس ولم يذكر شيئا عن خاليه مهلهل وكليب ابنيْ ربيعة[2]. **والوجه الثالث**: أن الرواة... « يختلفون اختلافا كثيرا في رواية القصيدة: في ألفاظها وفي ترتيبها، ويضعون لفظا مكان لفظ وبيتا مكان بيت.. »[3].

- **علقمة**: يشك الدكتور في علقمة الفحل لقلة ما يعرفه العلماء من أخباره « فلا يكاد الرواة يذكرون عنه شيئا إلا مفاخرته لامرئ القيس ومدحه ملكا من ملوك غسان.. وإلا أنه كاد يتردد على قريش وينشدها شعره، وإلا أنه مات بعد ظهور الإسلام اي في عصر متأخر جدا بالقياس إلى امرئ القيس[4].

- **عَبيد بن الأبرص**: وشكه في عَبيد من وجهين: لأن « الرواة لا يحدثوننا

(١) في الأدب الجاهلي: ص ٢٢٥.

(٢) في الأدب الجاهلي: ص ٢٢٦.

(٣) في الأدب الجاهلي: ص ٢٢٧.

(٤) في الأدب الجاهلي: ص ٢٣٢.

عن عبيد بشيء يقبل التصديق. انما عبيد عند الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات كان صديقا للجن والإنس معا، عُمِّرَ عمرا طويلا »[1].

وأما شعره « فليس أشد من شخصيته وضوحا.. فالرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع.. فأما شعره الآخر الذي عارض فيه أمرأ القيس وهجا فيه كندة فلا حظ له من الصحة فيما نعتقد، وذلك أن فيه إسفافا وضعفا وسهولة في اللفظ والأسلوب لا يمكن أن تضاف إلى شاعر قديم[2]..

- **عمرو بن قميئة**: ويشك في عمرو لسببين هما: غموض حياته فهو يرى « أن عمرو بن قميئة ضاع كما ضاع امرؤ القيس من الذاكرة، ولم يعرف من أمره شيء إلا اسمه هذا، كما لم يعرف من أمرئ القيس ولا من أمر عبيد الا اسمها، ووضعت له قصة كما وضع لكل من صاحبيه قصة، وحمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضا[3].. والثاني أن في شعره سهولة ولينا[4]..

- **مهلهل**: وهو يعيد في مهلهل، كما أعاد فيمن قبله وسيعيد فبمن بعده، الأسباب نفسها مع قليل من النقص أو الزيادة، فهو يشك في مهلهل للأسباب التالية: غموض شخصيته[5] واضطراب شعره واختلاطه[6]، وسهولة لفظه ولينه واسفافه[7].

- **عمرو بن كلثوم**: ويشك في عمرو بن كلثوم وشعره لثلاثة أسباب:

---

(١) في الأدب الجاهلي: ص ٢٣٢.
(٢) في الأدب الجاهلي: ص ٢٣٣.
(٣) في الأدب الجاهلي: ص ٢٣٥.
(٤) في الأدب الجاهلي: ص ٢٣٧.
(٥) في الأدب الجاهلي: ص ٢٣٩.
(٦) في الأدب الجاهلي: ص ٢٤٠.
(٧) في الادب الجاهلي: ص ٢٤١

كثرة الأساطير في حياته[1] ورقة لفظ شعره وسهولته وقرب فهمه[2]، واضطراب أبيات قصيدته (المعلقة) وتكرار بعضها[3].

ـ **الحارث بن حلزة:** حتى اذا ذكر الحارث بن حلزة لم يقدم لنا سببا لشكه غير أنه يورد أبياتا من معلقة عمرو بن كلثوم ويذكر أن قصيدة الحارث أمتن وأرصن، ثم يقول: ولسنا نتردد في أن نعيد ما قلناه من أن هاتين القصيدتين وما يشبههما مما يتصل بالخصومة بين بكر وتغلب انما هو من آثار التنافس بين القبيلتين في الإسلام لا في الجاهلية».

ـ **طرفة:** ويشك في شعر طرفة لسببين، الأول: شذوذه عن شعراء ربيعة في قوة متنه وشدة أسره واغرابه حتى صار شعره «أشبه بشعراء المضريين منه بشعر الربعيين»[4]، والثاني: اختفاء شخصيته في القصائد الأخرى غير المعلقة أو غير أبيات من المعلقة[5]، والغريب أنه يورد أبياتا من المعلقة ويقول: «في هذا الشعر شخصية بارزة قوية، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منحولة أو مستعارة»، ثم يقول: «ولست أدري أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر، وليس يعنيني أن يكون طرفة قائل هذا الشعر بل ليس يعنيني أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر، وانما الذي يعنيني هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل».

الأعشى: وهو يشك في الأعشى للسبب نفسه الذي دعاه إلى الشك في كثير غيره، وذلك لتناقض الأخبار عنه، فهو يقول[6]: «ولكن الرواة بعد

---

(١) في الأدب الجاهلي: ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٢) في الأدب الجاهلي: ص ٢٤٦.
(٣) في الأدب الجاهلي: ص ٢٤٥.
(٤) في الأدب الجاهلي: ص ٢٥٢.
(٥) في الأدب الجاهلي: ص ٢٥٤.
(٦) في الأدب الجاهلي: ص ٢٥٧.

هذا لا يعرفون من أمر الأعشى إلا طائفة من الأحاديث لا سبيل إلى الثقة بها أو الاطمئنان إليها.. بعض هذه الأحاديث فيه رائحة الأساطير، وبعضها ظاهر فيه الكذب والنحل، وبعضها يستنبط به القدماء أخبارهم من شعر لا يعرف من أين جاء».

وأخيرا يلخص رأيه في الأعشى بقوله[1]: «إنه شاعر عاش في آخر العصر الجاهلي، وتصرف في فنون من الشعر أظهرها الغزل والخمر والوصف، ومدح طائفة من أشراف العرب. ولكن العصبية استغلت هذا المدح، ولعله كان قد ضاع فأضافت إلى مكانه مدحا كثيرا لليمنيين ومدحا قليلا للمضريين، ولا شك في أن بين هذا الشعر الذي يضاف إلى الأعشى مقطوعات وأبياتا يمكن أن يكون الأعشى قد قالها حقا، ولكن تمييز هذه الأبيات والمقطوعات مما يحيط بها من المنحول المتكلف ليس بالشيء اليسير على أن المنحول الذي يضاف إلى الأعشى مختلف أشد الاختلاف ففيه الجيد المتقن وفيه الضعيف السخيف...».

ـ **الشعر المضري**: ويتلخص رأيه في الشعر المضري في قوله[2]: «نحن لا نقف من الشعر المضري الجاهلي موقف الرفض أو الإنكار لأن الصعوبة اللغوية التي اضطرتنا إلى أن نرفض شعر الربعيين واليمنيين لا تعترضنا بالقياس إلى المضريين. فقد بينا لك غير مرة أنّا نعتقد أن لغة القرشيين قد ظهرت في الحجاز ونَجْد قبل الإسلام، وأصبحت لغة أدبية في هذا القسم الشمالي من بلاد العرب، واذن فليس يبعد بوجه من الوجوه أن يكون الشعراء الذين نجموا في هذه الناحية قد قالوا الشعر في هذه اللغة القرشية الجديدة، بل نحن لا نشك في هذا ولا نتردد في القطع به.. لسنا نشك في أن قد كان لمضر شعر في الجاهلية، ولسنا

---

(١) في الأدب الجاهلي: ص ٢٦٧.

(٢) في الأدب الجاهلي: ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

نشك ايضا في أن هذا الشعر قديم العهد بعيد السابقة أقدم وأبعد مما يظن الرواة والمتقدمون من العلماء، ولكننا لا نشك أيضا في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته، ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جدا لا يكاد يمثل شيئا »..

مقياسه في الحكم على صحة الشعر الجاهلي:

ثم ينتقل بنا إلى الحديث عن المقياس الذي نعرف به صحة الشعر الجاهلي، فيرى أن نقد السند وحده لا يكفي « لتصحيح ما يصل إلينا عن طريقه، ان صح هذا التعبير، إلى نقد يتناول النص الشعري نفسه في لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته[1] ولكن سرعان ما يستدرك ويبين أن هذا الضرب من النقد « ليس يسيرا ولا منتجا الآن بالقياس إلى الشعر الجاهلي، فنحن لا نستطيع أن نقول في يقين أو ترجيح على أن هذا النص ملائم من الوجهة اللغوية للعصر الجاهلي أو غير ملائم لأن لغة هذا العصر الجاهلي لم تضبط ضبطا تاريخيا ولا علميا صحيحا، وكل ما صح لنا منها صحة قاطعة، ولكنها في حاجة إلى التدوين، انما هي لغة القرآن، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يزعم أن القرآن قد استعمل كل الألفاظ التي كانت شائعة مألوفة بين المضريين أيام النبي؟..

نقد منهج « طه حسين »

وكان لكتاب « في الشعر الجاهلي » دوي شديد فأشرع كثير من العلماء والأدباء أقلامهم وتناولوا الكتاب وما فيه بالنقد والنقض، وتفاوت نقدهم واختلفت طرائقهم: فاعتدل بعضهم والتزم حدود الموضوع، ومضوا ينقدون في أسلوب هادئ ولفظ عف، وغلا بعضهم فاشتد واشتط، وتجاوزوا الكتاب

---

(١) في الأدب الجاهلي: ص ٢٨٦.

الى صاحب الكتاب، ونشر أكثر ذلك في صحف ذلك العهد، ثم جمع بعضه في كتب هي:

كتاب «نقد كتاب في الشعر الجاهلي» للاستاذ محمد فريد وجدي.

وكتاب «الشهاب الراصد» للاستاذ محمد لطفي جمعة..

وكتاب «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لفضيلة الإمام محمد الخضر حسين..

وكتاب «محاضرات في بيان الأخطار العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي» للاستاذ محمد الخضري..

وكتاب «النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي» للاستاذ محمد أحمد الغمراوي، وله مقدمة مفصلة بقلم الأمير شكيب أرسلان، وفصول كثيرة في كتاب «تحت راية القرآن» للاستاذ مصطفى صادق الرافعي.

نقد الكتاب:

١ ـ أعلن طه حسين منهجه في وضوح حين قال[١]:

«أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث» فقام بعضهم ينكر عليه فهم هذا المنهج من أساسه، ويردّ عليه في صفحات طويلة[٢]، فذهب إلى أن منهج «ديكارت» لم يكن منهج شك للشك ذاته، وانما يتخذ الشك وسيلة لليقين، وأن خلاصة هذا المنهج ألا يقبل المرء أمرا على أنه حقيقة إلا إذا قامت الدلائل البينة على صحته وأن ديكارت مع ذلك كان يسلم بوجود أشياء لا يحاور فيها، فهو بذلك يكون منهجا ايجابيا لا سلبيا..

---

(١) في الأدب الجاهلي: ص ٧٤.

(٢) في الشهاب الراصد بقلم محمد لطفي جمعة: ص ١٠ ـ ٢٥.

٢ ـ ولكن آخرين ردوا عليه من وجه آخر فقالوا « انه لم يلتزم المنهج الذي أعلن أنه يريد أن يصطنعه، وهذا صاحب كتاب « في الشعر الجاهلي » على الرغم من قبضه على منهج ديكارت، ونفيه الاطمئنان الى ما يقوله القدماء، قد اطمأن في كثير من هذا النحو الجديد من البحث إلى ما يرويه صاحب الأغاني وغيره.. »[١]. ولكنه في تحري أسباب الاختلاق على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق، وبالعوامل التي حملت عليه، وبالمطامع التي دفعت إليه، ولم يسر في ذلك على ما يقضي به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على اصدار الأحكام جزافا..[٢] وكان من أثر ذلك أن الدكتور أورد في كتابه أخبارا وروايات كانت جديرة أن تنال منه بعض عنايته في الوقوف عندها ونقدها وتمحيصها وتبين زائفها ثم ردَّها، وقد أورَدَ ناقدوه أمثلة كثيرة على ذلك نكتفي بالإشارة إلى بعض أرقام الصفحات التي وردت فيها في كتبهم[٣]..

٣ ـ وذهب بعضهم إلى أن مؤلف الكتاب قد جافى الطريقة العلمية، ولم يؤيد نظريته بالتثبت أولا من الحقائق قبل أن يدخل في دور الفرض[٤]. وأنه يبدأ بالفرض، ثم يبني عليه فرضا آخر، ثم ينتهي بالقطع والجزم والثبوت.. وقدموا لذلك أمثلة كثيرة منها أنه يورد ثلاث جمل يبرهن على الأولى منها بقوله « فليس يبعد ! » وعلى الثانية بقوله « فليس ما يمنع ! » وعلى الثالثة بقوله « فما الذي يمنع ! ». ويبني على هذه الكلمات الثلاث قوله « أمر هذه القصة إذًا واضح »! ويعقب الناقد على ذلك بقوله[٥]: نعم قد اتضح بنفي البعد في

(١) محمد الخضر حسين، نقد كتاب في الشعر الجاهلي: ١١.

(٢) محمد فريد وجدي، نقد كتاب في الشعر الجاهلي: ٢.

(٣) أنظر مثلا: الخضر حسين: ١٩٩، ٢٠١، ٢٧١، ٢٧٦ والخضر ٣٨ – ٤١.

(٤) الغمراوي: ١٤١ – ١٤٦.

(٥) الخضري: ٨.

الأولى! وعدم المانع في الأخرى! وما علمنا بمنطق في العالم يكتفي في إقامة البرهان عل عدم صحة خبر من الأخبار بأنه لا يبعد ضده أو أنه لا مانع من ضده! «ومن ذلك أن الدكتور طه حسين يحتج في نفي الشعر المستشهد به على القرآن بقوله: اليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت في تكلف وتصنع؟». ثم قال: «بل أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت في سذاجة وسهولة ويسر، لا لشيء الا لهذا الغرض التعليمي اليسير!».

فأجابه الخضري[1] بقوله: بلى! هذا ممكن، كما يمكن أن يكون الخبر صحيحا.. كما يمكن أن يكون بعضه صحيحا وبعضه غير صحيح، كل ذلك ممكن، ولكن الذي يجب أن تجيب عنه هو: بِمَ ترجح عندك أن الخبر مكذوب كله؟ أهو غير معقول؟ أم هو مخالف لطبائع التعليم؟»..

ومن ذلك أيضًا أن الدكتور طه حسين قال: «وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث من شبه قوي أو ضعيف».

فعقب على هذا الكلام الشيخ محمد الخضر حسين بقوله[2]: «من شاء أن ينظر إلى قاعدة تمتد إلى غير نهاية، ولا تصل بما يمسكها أن تزول إلا إرادة هذا المؤلف، فلينظر إلى هذه الفقرة التي تمثل قلما يشتهي أن يكتب فينتكس ويرمي بالحديث في غير قياس، كل شعر أو خبر أوحديث يضاف إلى الجاهليين ويكون بينه وبين آية من القرآن شبه قوي أو ضعيف فهو مصنوع! أليس من الجائز أن ينطق العرب بحكمة فيأتي القرآن بهذه الحكمة على وجه أبلغ وأرقى؟ أمن الحق أن ننكر أن العرب قالوا مثلا: القتل أنفى للقتل

(١) الخضري: ٢٥.

(٢) الخضر حسين: ٢١٢.

لمجرد شبهه بقول القرآن ﴿ولَكُمْ في القِصَاصِ حياةٌ يا أولي الألْبابِ﴾[1] أو من الحق أن ننكر أن زهيرا قال:

ومن هاب أسباب المنايا يَنلْنَهُ ولو رام أسباب السماء بسلم

لأنه أدرك شبها قويا أو ضعيفا بقول القرآن ﴿أينما تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ الموتُ ولو كنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[2]..

ومما يتصل بهذا أنه ينص على النتائج من غير ذكر للمقدمات، فهو مثلا يعقد فصلا كاملا عن «الشعوبية ونحل الشعر» ولكنه «لم يأت برواية تدل على أن بعض الشعوبية نحل شعرا جاهليا»[3] و«قال المؤلف عن الشعوبية ما شاء أن يقول، واغترف من كتاب الأغاني قصصا عن أبي العباس الأعمى واسماعيل بن يسار، وقصارى ما تدل عليه هذه القصص أن الأول كان يهجو آل الزبير، وأن الثاني كان يبغض آل مروان، وله شعر يفخر فيه بالأعاجم، وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية في انتحال (نحل) الشعر، ولكنه لم يستطع أن يضرب لك مثلا يريك كيف انتحلت (نحلت) الشعوبية شعرا جاهليا، فضاق بمنهج ديكارت ذرعا[4].

٤ ـ ومن جملة ما أخذوه به التناقض الذي وقع فيه، فهو يقول: «وهذا البحث ينتهي بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذي يضاف لامرئ القيس ليس من امرئ القيس في شيء، وانما هو محمول عليه ومختلق عليه اختلاقا، فيعقب ناقده بقوله[5] «ذهب المؤلف في بعض الصحف من كتابة إلى أن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أنْ يكون له، ومقتضى تمسكه بأن امرأ القيس يمني مولدا ونشأة، وأن لغة قحطان نازلة

(١) سورة البقرة، آية ١٧٩.

(٢) سورة النساء، آية ٧٨.

(٣) الخضر حسين: ٢٤٧.

(٤) الخضر حسين: ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٥) الخضر حسين: ٣٠٦.

من لغة عدنان منزلة اللغات غير العربية، أن يكون جميع هذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس منحولا، فإنَّا لم نجد شيئا منه على غير اللغة التي ينظم فيها شعراء نجد والحجاز، ولكن المؤلف يقول في هـذه الصفحـة: «ان البحث ينتهي به إلى أن أكثر هذا الشعر ليس من امرئ القيس في شيء ومعنى هذا أن في الشعر المضاف إلى امرئ القيس شعرا هو منه في شيء، وأظن أن المؤلف سيجد كثيرا من المشقة والعناء ليحل هذه المشكلة».

وقال الدكتور طه حسين أيضا: «ولا سيما اذا صحت النظرية التي سبق أن قدمها وهي نظرية العزلة العربية، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين، و أنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجة»، فتعقبه الناقد بقوله[1]: «أتدري ما هي نظرية العزلة التي أشار إليها آنفا؟ هل تلك النظرية التي رماها على أكتاف «الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الإسلام» وشن عليها الغارة بنكير لا هوادة فيه... أنكر المؤلف نظرية العزلة العربية حين رآها تعترض ما أراده من أن للجاهليين اتصالا بالعالم الخارجي..

وأمر آخر يتصل بمجافاة الطريقة العلمية، وهو ايراد النصوص على وجه يختلف عما كانت عليه في حقيقتها، والاستدلال بها على ما لا تدل عليه في أصلها لو أوردت كاملة. ومن أمثلة ذلك أن الدكتور طه حسين يقول: «فأما خلف فكلام الناس في كذبه كثير، وابن سلام ينبئنا بأنه كان أفرس الناس ببيت شعر...» فالدكتور طه يريد أن يتخذ من كلام ابن سلام حجة على كذب خلف، ويريد أن يوجه قوله «أفرس الناس ببيت شعر» توجيها يوحي بأنه لتمكنه وقدرته ومهارته كان قادرا على نحل الشعر ووضعه، ولكن ابن سلام لم يرد إلى هذا بل أراد نقيضه! ونصه بكامله هو: «أجمع أصحابنا أنه

---

(١) الخضر حسين: ٩٩ ـ ١٠٠.
وأنظر أيضا الغمراوي: ١٩٤.

كان أفرس الناس ببيت شعر، وأصدقه لسانًا، كنا لا نبالي اذا أخذنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه». وأي توثيق لخلف أوثق من هذا؟[1] ومن ذلك أيضا أن الدكتور يذكر أن أبا عمرو بن العلاء قال: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا» ولكن نص ابن سلام هو «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا» فحذف الدكتور قوله «وأقاصي اليمن»، ثم غير قوله «ولا عربيتهم بعربيتنا» فجعله «ولا لغتهم بلغتنا» والفرق بين ما أورد الدكتور وبين النص الحقيقي فرق كبير له دلالته التي بينها ناقده[2].

ومما أخذه به ناقدوه أيضا أن الدكتور طه حسين «أغار على كتب عربية وأخرى غربية فالتقط منها آراء وأقوالا، ونظمها في خيط من الشك والتخيل»[3]..

وإن مؤلف في الشعر الجاهلي على الرغم من تعظيمه قدر بحثه بوصفه بالحداثة والطرافة والابتداع فانه لم يبرز فكرة جديدة لامعة بل لم يُعْنَ بالبحث عناية الذين ألموا به من القدماء والمحدثين بل أخذ بعض أفكارهم وابتكاراتهم ولم يعرها رونقا ولا جزالة وجَرّدَ من نظريتهم رسالته[4]، وقد سعى بعض ناقديه إلى الكشف عما أخذه الدكتور من «مرجليوث» خاصة، فوجدوه شيئا كثيرا[5]، حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن الدكتور طه حسين[6] «أغار على نظرية الشك في الشعر الجاهلي، ولم يفترق عن «مرجليوث» الا في تسليمه بأن هناك شعرا جاهليا، فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التي استند إليها «مرجليوث»، وجعل يقول لك: انني شككت في الشعر الجاهلي،

---

(١) أنظر لذلك الخضر حسين: ٢٧٢.

(٢) الغمراوي: ١٨٠.

(٣) الخضر حسين: ٣ ـ ٤.

(٤) محمد لطفي جمعة: ٢٦.

(٥) أنظر الخضر حسين: ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٤٧، ٧٠، ١٠٠.

(٦) الخضر حسين: ١٧، ١٨.

ويداعبك بقوله: الححت في الشك أو قل ألح عليَّ الشك، والحديث في صدق وأمانة خير من هذه المداعبة».

وقال ناقد آخر[1]: «لقد كتب صاحب الكتاب بحثه ليثبت دعوى جديدة ينسبها هو لنفسه وتنتسب في الحقيقة لمرجليوث»..

نقد الأدلة:

وبعد أن عرضنا، في إيجاز شديد، ما أخذ النقاد على منهج الدكتور وطريقته، نعرض أيضا في اختصار غير مخل لعله أشد من سابقه، ما نقدوا به أدلته وحججه..

١ - فقد ذكر الدكتور طه حسين، كما مر بنا، أن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا لا يمثل للحياة الدينية في الجاهلية، وأن القرآن وهو عنده مرآة الحياة الجاهلية، يمثل العرب في الجاهلية أمة متدينة قوية التدين، فرد عليه الشيخ محمد الخضر حسين، وبين أن «هذه الشبهة مما استلبه المؤلف من مقال مرجليوث»[2] ثم أورد ما جاء في مقال مرجليوث وما جاء في كتاب الدكتور طه حسين ليظهر ما بينهما من تشابه، وبعد أن عرض لرد ادورد براونلش على مرجليوث قال[3]: «وخلاصة الجواب أن معظم شعر العرب كان في الفخر والحماسة وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذي يمثل دينا غير الإسلام ولا سيما دين اللات والعزى، وعلى الرغم من هذا كله وصلت إلينا بقية من الشعر الذي يحمل شيئا من الروح الديني، تجده في كتاب «الأصنام لابن الكلبي وغيره». وأما الأستاذ محمد لطفي جمعة فقد وجد أن خير رد على الدكتور طه حسين أن يجمع بعض الشعر الجاهلي الذي يشير إلى

(١) الغمراوي: ١٠٠.
(٢) محمد الخضر حسين: ٤٧.
(٣) محمد الخضر حسين: ٤٨.

الحياة الدينية في الجاهلية، فجمع طرفا منه، لشعراء متعددين[1]، ثم قال[2]:

« من العجيب أن المؤلف يدعي أن الشعر الجاهلي كله عجز عن تصوير الحياة الدينية، وهو لم يتقدم إلينا بدليل ولم يستقرئ دواوين الشعر الجاهلي ».

وأما الأستاذ الغمراوي فينكر أن القرآن يصور العرب في الجاهلية أمة متدينة قوية التدين، ويرى أن هذا « لا ينطبق الا على أهل مكة والمدينة ومن حولها، ولا ينطبق على من حولها مثل ما ينطبق عليها ومكة والمدينة وما حولها ليست هي كل بلاد العرب، وأهل مكة والمدينة ومن جاورهم لم يكونوا جملة العرب ولا جمهرتهم، فمن الخطأ والواضح اذن أن يجعل الدكتور ما ينطبق عليهم ينطبق على جميع العرب، وأن يستند في ذلك على القرآن ».

٢ ـ وذكر الدكتور طه حسين ايضا أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة العقلية في الجاهلية، ومضى يصف هذه الحياة العقلية كما رآها في القرآن الكريم، فالقرآن الكريم « يمثل حياة عقلية قوية يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظا عظيما.. أفتظن قوما يجادلون في هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين »..

وقد رد عليه الشيخ محمد الخضر حسين بقوله[3]: « في الشعر الجاهلي معان سامية وحكمة صادقة، ومن يقرؤه خالي الذهن من كل ما قيل فيه يقضي العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم، واقصائهم النظر في تأليف المعاني والتصرف في فنون الكلام.. ».

وأما الأستاذ الغمراوي فينكر ايضا أن يكون القرآن يمثل العرب في

---

(١) الشهاب الراصد: ٨٥.

(٢) الشهاب الراصد: ٩٠.

(٣) الشهاب الراصد: ٥١.

الجاهلية أمة مستنيرة لها حياة عقلية قوية، وبعد أن يتحدث في ذلك يقـول[1]: « فأما الحظ الذي أنفقه القرآن في الجهاد بالحجة فعظيم، لكن عظمه لم يكن ناشئا عن عظم قدرة على الجدال كانت عند المجادلين، ولا عن حسن بصرهم بمواطن الحجة، بل كان ناشئا عن عظم رسوخ ما كان يجاهده القرآن فيهم من اعتقادات وعادات تأصلت فيهم على مر القرون، فالقرآن أنفق ذلك الحظ العظيم في جهاد العادة لا في جهاد مقدرة على المخاصمة.. وانك لو استقريت مواقف المحاجة التي وردت في القرآن لا تكاد تجد فيها موقفا قابل المجادلون الحجة فيه بالحجة وقارعوا الدليل بالدليل.. ويرى ايضا أن الدكتور طه حسين « استشهد على ما يريد بآيتين اثنتين ليس فيهما شاهد على ما يريد، وأنه قد ترك كثيرا من الآيات التي تنقض معناه الذي أراد.. »[2].

٣ ـ وذكر الدكتور طه حسين ايضا أن الشعر الجاهلي يمثل العرب أمة معتزلة تعيش في صحرائها، لا تعرف العالم الخارجي، ولا يعرفها العالم الخارجي، أما القرآن فيصف عناية العرب بسياسة الفرس والروم وصلاتهم بغيرهم من الأمم وقد رد عليه الشيخ محمد الخضر حسين بقوله[3]: « وهل يصدق أحد أن من يدرسون الشعر الجاهلي يتصورون العرب أمة معتزلة في صحراء... » ثم يورد شعرا جاهليا فيه دلالات على معرفة العرب بالأمم المجاورة وعلى صلاتهم بهم.

أما الأستاذ الغمراوي فقد ذكر أن الدكتور طه حسين « لم يستشهد على ذلك الا بآيتين اثنتين جرى في تأويلهما على ذلك النحو الذي رأيت.. »[4].. بل أنه يرى أنه ليس في إحدى الآيتين « المعنى الذي أراد ولا ظله » وقد عجب من أن الدكتور يذهب إلى « أن الأدب الجاهلي على ما هو عليه الآن

---

(١) الغمراوي: ص ١٥٢.

(٢) الشهاب الراصد: ص ٥٧.

(٣) الغمراوي: ص ١٥٢.

(٤) الغمراوي: ص ١٥٣.

لا يبين صلة العرب بالعالم الخارجي وأن القرآن وحده هو الذي يبينها[1]، مع أنه لم يستقرىء الأدب الجاهلي ولم يوازن بين ما فيه وما في القرآن.

٤ ـ وذكر الدكتور أيضا أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الاقتصادية الخارجية والداخلية لعرب الجاهلية، وأن في القرآن وصفًا لها يصورها فيه، وقد رد عليه الشيخ محمد الخضر حسين بأنه استشهد على الحياة الاقتصادية الخارجية بآية واحدة ليس فيها الا إشارة موجزة، وأن في الشعر الجاهلي تفصيلا لهذه الإشارة[2]..

وأورد الاستاذ محمد لطفي جمعة من الشعر الجاهلي ما يرى فيه تصويرا لحياة العرب الاقتصادية الداخلية في الجاهلية[3]..

أما الأستاذ الغمراوي فيرى أن «الحق أن الأدب الجاهلي لم يخل من هذا، والعجب أن يجهل استاذ الأدب العربي شيئا مثل هذا، فلو أنه قرأ القليل المكتوب عن ابن الزبعرى في طبقات ابن سلام لوجد فيه ما لا يقل في دلالته الاقتصادية عن آية ﴿لإيلاف قريش﴾[4].. هذا موضع واحد من الأدب الجاهلي، ولسنا نشك في وجود مواضع أخرى تدل على ما كان هناك في الجاهلية من اتصال تجاري محدود بين أطراف جزيرة العرب ووسطها[5].. وكما لم يُلمّ صاحب الكتاب بمواطن الأدب الجاهلي التي تدل على الحياة الاقتصادية الخارجية كما يجب أن يسميها، كذلك لم يُلم بمواطن الأدب الجاهلي التي تدل على ما يسميه الحياة الاقتصادية الداخلية..

وكما تكلف واستنتج الحياة الخارجية كلها من آية واحدة في القرآن، فقد

---

(١) الغمراوي: ص ١٥٣.
(٢) محمد الخضر حسين: ص ٦٢ ـ ٦٣.
(٣) سورة قريش، آية ١.
(٤) محمد لطفي جمعة: ص ٧٦.
(٥) الغمراوي: ص ١٥٥.

تكلف واستنتج الحياة الاقتصادية الداخلية من تحريم القرآن الربا وفرضه الصدقات..

أما عن زعمه أن الأدب الجاهلي كله لم يذكر الربا فنحن على ثقة من أنه هناك أيضا لم يستعرض الأدب الجاهلي كله فيحكم عليه من هذه الناحية حكما مبنيًا على الواقع. ومع ذلك فمثل هذه النواحي اذا ذكرت في الأدب لا تذكر إلا عرضا، لأن التجارة وما اتصل بها من ربا أو غيره ليست من الأمور التي تسمو حتى تصير في متناول الشعر والنثر الأدبي في عصرنا هذا فضلا عن العصر الجاهلي فإذا كان الأدب الجاهلي قد خلا حقا من ذكر الربا فلن يكون في ذلك دليل على أن الأدب الجاهلي موضوع[1].

٥ ـ الدليل اللغوي: وقد أفاض الناقدون في نقد هذا الدليل ونقضه، وذلك لأنه لو صح لكان أقوى الحجج التي ساقها المؤلف وأدلها على ما يريد أن يصل إليه.

فالعالم المعروف الشيخ محمد الخضر حسين يرى أن الدكتور طه حسين قد أخذ هذا الدليل من مرجوليوث، فأورد بعض كلام الدكتور وما يقابله من كلام مرجوليوث في مقالته التي بسطنا فيها القول، وليس من سبيل إلى ذكر جميع ما رد به هذا الإمام، فقد فصل القول في رده تفصيلا[2] ويكفي أن نوجز هذا الرد أو نشير إلى بعضه.. قال «أخذ المؤلف يذكر الشاهد الأقوى على اصطناع الشعر الجاهلي، وهو أن اللغة القحطانية غير اللغة العدنانية، والشعر المنسوب إلى بعض شعراء اليمن لا يختلف عن شعر العدنانية ـ وهذا مما استشهد به مرجوليوث قبله..: لا تنازع فيما دلت عليه الآثار المخطوطة من أن اللغة القحطانية كانت كلغة أجنبية عن العدنانية، كما أن مرجوليوث والمؤلف لا ينازعان في أن اللغتين اشتد الاتصال بينهما بعد ظهور الإسلام

(١) الغمراوي: ص ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨.

(٢) محمد الخضر حسين ـ انظر: ص ٧٠ ـ ٧٥، ٩٠، ٩١ ـ ٩٤، ١٠٠ ـ ٣٦٢.

وأصبحتا كلغة واحدة، والذي تراه قابلا لأن يكون موضع جدال بيننا وبين مرجوليوث والمؤلف هو حال الاختلاف بين اللغتين في عهد يتقدم ظهور الإسلام بعشرات من السنين، فنحن لا نرى ما يقف أمامنا اذا قلنا: إن الاختلاف بين اللغتين قد خف لذلك العهد وزال منه جانب من الفوارق ولم تبق القحطانية من العدنانية بمكان بعيد والذي جعل اعتقادنا يدنو من هذه النظرية.. أن قبول اللغة القحطانية لأن تتحد مع اللغة العدنانية بعد ظهور الإسلام لا يكون الا عن تقارب وتشابه هيأهما لأن يكونا لغة واحدة، فان انقلاب لغة إلى أخرى تخالفها في مفرداتها وقواعد نحوها وصرفها ليس بالأمر الميسور حتى يمكن حصوله في عشرات قليلة من السنين. ثم يرى أن العثور على نقوش باللغة الحميرية يرجع تاريخها الى المائة الخامسة والسادسة للميلاد لا ينقض هذا الرأي، وذلك لأن التقارب بين اللغتين لم تبدأ به القبائل القحطانية والعدنانية في وقت واحد «بل سبقت إليه القبائل المجاورة للعدنانية ثم أخذ يتدرج فيما وراءها من القبائل.. فالوقوف على أثر مخطوط قبل الإسلام بنحو مائة سنة أو ما دونها انما يدل على أن سكان الناحية التي انطوت على هذا الأثر لم يزالوا على لسان حمير القديم، وهذا لا ينفي أن يكون غيرها من القبائل القحطانية، قد ارتاضت ألسنتهم بلغة تشبه اللغة العدنانية ومن الممكن القريب ايضا أن يكون أهل المكان الذي عثر فيه على هذه المخطوطات الأثرية ينطقون باللغة القريبة من اللغة العدنانية ولكنهم استمروا في الكتابة على لغتهم التي كانت اللسان الرسمي لسياستهم أو ديانتهم، وقد حكى التاريخ لهذا الوجه نظائر..»[1]، وبعد أن يسرد هذه النظائر يستدل على تقارب اللغتين بما يروى في السيرة من خطب الوافدين من أهل اليمن على الرسول ﷺ، «ولو كانت اللغتان مختلفتين في المفردات وقواعد النحو والصرف لم يسهل على العدناني أو القحطاني فهم لغة الآخر إلا أن

---

(١) محمد الخضر حسين: ص ٧١ - ٧٢.

يأخذها بتعلم أو مخالطة غير قليلة[1]، ثم يتطرق إلى عبارة أبي عمرو بن العلاء التي أوردها الدكتور طه حسين، وأحلها « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »، فقال ان الدكتور مس هذه العبارة « بالتحريف مسا رفيقا » و« حول قوله: ولا عربيتهم بعربيتنا، إلى قوله: وما لغتهم بلغتنا، لقصد المبالغة في الفصل بين اللغتين ولصرف ذهن القارئ عن أن يفهم من قول أبي عمرو: « ولا عربيتهم بعربيتنا » أن تلك اللغة عربية وإنما تختلف عن العدنانية اختلافا يسوغ له أن يقول: وما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ومسّ المؤلف عبارة أبي عمرو بالتحريف مرة أخرى، فقد حذف قوله: وأقاصي اليمن، حتى لا يأخذ منها القراء أن لغة غير الأقاصي، وهي القبائل المجاورة للقبائل المضرية، ليس بين عربيتها وعربية مضر هذا الاختلاف »[2].. « هذا شأن الاختلاف بين اللغتين، أما تشابه الشعر القحطاني والعدناني فله سبيل غير هذا السبيل، والرأي الذي يوافق إجماع الروايات ويؤيده النظر ولا يعترضه البحث الحديث أن الشعراء في جنوب الجزيرة وشمالها أصبحوا من قبل الإسلام ينظمون الشعر بلهجة واحدة أو متقاربة »[3]، ثم يمضي في بيان رأيه هذا وتفصيله. ثم يرد على هذا الدليل من جانب آخر قال[4]: « ومما يتعذر قبوله ايضا أن يضع غير اليمانيين أشعارا في لهجة قرشية ويعزوها الى القدماء من شعراء اليمن دون أن يجدوا من اليمنيين أو ممن يعرف لهجة شعراء اليمنيين من ينكر صنيعهم، ويناضلهم بحجة أن هذا الشعر غير منطبق على لهجة أولئك الشعراء »..

ثم رد عليه حديثه عن أن لهجات القبائل العدنانية نفسها وهي مختلفة، غير

---

(١) محمد الخضر حسين: ص ٧٣.
(٢) محمد الخضر حسين: ص ٧٣ - ٧٤.
(٣) محمد الخضر حسين: ص ٩٢.
(٤) محمد الخضر حسين: ص ٩٤.

ظاهرة في هذا الشعر الجاهلي، فقال[1] : « هذه الشبهة علقت بذهن المؤلف فيما علق من مقال مرجوليوث، وهي مطرودة بنظرية وجود لغة أدبية يَحْتَذِيها الشعراء على اختلاف قبائلهم منذ عهد الجاهلية ».

وأما الأستاذ محمد لطفي جمعة فيقول: اعتمد المؤلف على أقوال الرواة ثم يؤكد لنا أن الرواة يضيفون شيئا كثيرا من الشعر الجاهلي إلى قوم ينتسبون إلى عرب اليمن. ويؤيد مخالفة اللغة القحطانية للغة العرب برواية أحد الرواة وهو أبو عمرو بن العلاء، فكأن الرواة الذين كانوا يعلمون اختلاف اللغتين من أقدم الأزمنة رووا على الرغم من علمهم هذا، شعرا كثيرا بالعربية العدنانية وحملوه على شعراء اليمن... وهذا الكلام ظاهر البطلان، والتلفيق فيه لا يحتاج إلى برهان لأن الراوية الذي يعرف اختلاف الأمتين واختلاف اللغتين اذا أراد الوضع والاختلاق لا يقع في مثل هذا الخطأ المفضوح سيما وأن المؤلف قال في ص١٢٠ عن حماد الراوية: «أما حماد فرجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال بقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره»..

أفيعقل أن راوية كحماد العالم باللغات والمعاني والمذاهب يخطئ مثل هذا الخطأ؟.

وأما الأستاذ الشيخ الخضري فبعد أن تحدث عن هذا الموضوع وأورد أدلة الدكتور وأشار إلى تحريفه في النص الذي ذكره أبو عمرو بن العلاء. قال[2] : « وأكثر الشعر اليماني انما هو لشعراء من سبأ كانوا بالشمال، أما بالمدينة واما بالعراق، واما بالصحراء الشمالية واما بالشام، أو لعرب عدنانيين.. »

وأما الأستاذ الغمراوي فيتحدث عن هذا الموضوع في صفحات متفرقة

---

(١) محمد لطفي جمعة: ص١٣٦ - ١٣٧.

(٢) الخضري: ص ١٠ - ١١.

من كتابه[1] وقد عرض لكثير ثم قال[2]: «ان الدكتور طه حسين قد «نبهه النقد منذ أكثر من عام إلى أن ثبوت اختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال، لو ثبت أنهما كانتا مختلفتين في العصر الجاهلي القريب، لا يصلح دليلا على أن أدب يمانية الشمال موضوع لأن قبائل اليمن في الشمال كانت هاجرت من الجنوب إلى الشمال منذ أمد بعيد فلم يكن هناك بد لمن نشأ في الشمال من ذرياتها أن ينشأ على لغة الشمال ويتخذها لغة أدب ولغة خطاب فجاء صاحب الكتاب هذا العام يجيب على هذا بلهجة المستوثق مما يقول، فهل تدري بماذا أجاب؟ أجاب بأن هجرة فريق من عرب اليمن الى الشمال غير ثابتة!.. وأن صحة يمانية من انتسب إلى اليمن من قبائل الشمال غير ثابتة!.. واذن يسقط ذلك الاعتراض!.

ان من المؤلم حقًا أن يلجّ الأستاذ في المماراة إلى هذا الحد، وينزل به اللجاج إلى هذا الدرك، فلا يدرك أن جوابه هذا مسقط كل ما قال، وأنه اذا أصح أن التاريخ القديم والتاريخ الحديث أجمعا على خطأ، فلم تكن هجرة ولم يكن في الشمال يمانيون، لم يكن أدنى شبهة لغوية يمكن ان يعترض بها على صحة كلام مثل امرئ القيس، إذْ يصير امرؤ القيس ومن معه بذلك مضريين، ويصير من السخف أن يقال بعد ذلك ان كلامهم وشعرهم منحول لأن لغته ليست لغة نقوش حميرية اكتشفت في الجنوب..».

نقد أسباب النحل:

وننتقل بعد ذلك إلى عرض آراء النقاد فيما ذكره الدكتور طه حسين من أسباب نحل الشعر الجاهلي، وقد جعلها الدكتور، خمسة: السياسة، والدين، والقصص، والشعوبية، والرواة..

---

(١) الغمراوي: ص ١٦٢ - ١٦٣، ١٦٦، ١٧٠ - ١٧١، ١٨٨.

(٢) الغمراوي: ص ١٨٨.

١ ـ **السياسة ونحل الشعر:** أجمع النقاد على أن الدكتور طه لم يورد شيئا من الشعر الجاهلي الذي دعت السياسة إلى نحله مع أن فصله معقود لهذا، ومع أنه أطنب في الحديث عن المقترحات الظنية والفروض المتخيلة، ولكنه لم ينته بها إلى النهاية التي يدل عليها عنوان الفصل..

قال الشيخ محمد الخضر حسين[1] «عقد المؤلف الفصل في نحو عشرين صحيفة قضاها في الحديث عن أمر كتب فيه القدماء والمحدثون، وهو شأن العصبية في صدر الإسلام وعهد الأمويين وما كان من التهاجي بين بعض شعراء الأنصار وآخرين من قريش.. ولم يستطع المؤلف أن يضرب في هذا الفصل الطويل مثلا بشعر جاهلي اخترعته نزعة سياسية... ومن أراد أن يقرر أن من الشعر الجاهلي ما افتعل لغرض سياسي ويضع لذلك عنوانا يكتبه بأحرف ممتازة، فليأت ولو بمثل أو مثلين واضحين ويريح القارئ من أقوال لا تقع في عين الموضوع فضلا عما فيها من صبغ بعض الوقائع بألوان لا تلائمها..» وقال الأستاذ محمد لطفي جمعة[2]: «وقد سود المؤلف تسع صفحات في هذه المسألة وحدها (يقصد المهاجاة بين الأنصار وقريش) وعنوان الفصل «السياسة وانتحال العشر» اسم فخم وعنوان ضخم، ولكن اللب منعدم والمقصد غامض... أين السياسة في بحثه.. وأين الشعر المنتحل ومن واضع الشعر المحمول؟» وقال أيضا: «إلى هنا ولا نجد في هذا الفصل الطويل الذي عنونه المؤلف «السياسة وانتحال الشعر» يقصد بذلك الشعر الجاهلي ـ شيئا خاصا بانتحال ذلك الشعر الجاهلي...» وقال الشيخ محمد الخضري ان الدكتور طه حسين قال: «يستطيع الكاتب في تاريخ الأدب أن يضع سفرا فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير في شعر الفريقين الذي قالوه في الإسلام وفي الشعر الذي انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية»..

---

(١) محمد الخضر حسين: ص ١٨٥.

(٢) محمد لطفي جمعة: ص ١٩٣.

ثم عقب عليه بقوله: «مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقا من الفريقين اختلق شعرا ونسبه إلى شعرائه في الجاهلية، وانما الأحاديث كلها في الشعراء الذين كانوا في أول العهد الإسلامي يتقارضون الشعر، وفي العهد الذي يلي ذلك». ويقول أيضا: «وبعد ذلك كله ألم يكن من واجب المؤلف، وهو أستاذ كبير، أن يذكر لقراء كتابه بعض الشعر الذي وضعته قريش في الإسلام ونسبته الى بعض شعرائهم في الجاهلية وكان الداعي الى وضعه السياسة؟ انه لم يذكر شيئا من ذلك، وكل كلامه حول الشعر الذي قيل في العهد الإسلامي، وليس لهذا وضع الشيخ كتابه»..

٢ ـ الدين ونحل الشعر: قال الشيخ محمد الخضر حسين[1]: «ينكر المؤلف كل ما يروى من الشعر والأخبار الممهّدة للبعثة النبوية، وانكارها على هذا الوجه انما تسمعه ممن ربط قلبه على نفي النبوة، اذ ليس من المحتمل عنده أن يقال فيها شعر أو يرد عنها خبر قبل أن يدعيها صاحبها. أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها، وشأنهم أن يفحصوا ما يرد في هذا الصدد ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة، وكذلك فعل علماء الإسلام فحكموا على جانب مما كان من هذا القبيل بالوضع، كالأخبار والأشعار المعزوة إلى قُسّ بن ساعدة». ثم يعرض لما ذكره الدكتور طه من أن النبي ـ ﷺ ـ نهى عن رواية شعر أمية، وأن هذا وحده كاف لأن يضيع هذا الشعر فرد عليه بأن في الحديث الصحيح أن النبي استنشد رجلا شعر أمية فظل ينشده حتى انشد مائة بيت، وقال انه لو صح ان النبي نهى عن شعره لكان هذا النهي مقصورا على قصيدة أمية التي رثى بها قتلى قريش في وقعة بدر «على أنا نجد هذه القصيدة التي يقولون ان النبي ﷺ نهى عن روايتها واردة في بعض كتب السير والمغازي وقد رواها ابن هشام في نحو ثلاثين بيتا..».

---

(١) محمد الخضر حسين: ص ١٨٨.

وقال الاستاذ محمد لطفي جمعة[1]: «يريد مؤلف كتاب الشعر الجاهلي أن يخدع القارئ ويوهمه أن كل ما ورد في الأدب العربي من نثر وشعر عن الجن ووجودها وأخبارها انما وضع بعد الإسلام وضعا لتبرير سورة «الجن» التي جاءت في الكتاب المنزل على أفصح العرب... وأن كل ما نسب إلى العرب في أدبهم من هذه الناحية انما اصطنع مجاراة للعقيدة التي اقتضتها هذه السورة القرآنية، والحقيقة أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون بالجن، ونظموا شعرا جاهليا كثيرا عن علاقة الجن بالشعر والشعراء.. ولم تكن أمة سامية أو آرية تخلو من الاعتقاد بالجن أو الأرواح الخيرة والشريرة».

٣ - **القصص ونحل الشعر**: وقد ذهب هؤلاء النقاد الى أن الدكتور طه لم يأت بشيء جديد لم يذكره القدماء، ولكنه زاد عليهم بأن عَمَّمَ وأطلق أحكاما كلية..

قال الشيخ محمد الخضر حسين[2] «كتب المؤلف في القصص ولم يأت بجديد، وانما مدَّ يده إلى ما تحدث به الكتّاب من قبله وسماه نظرية له، ثم انهال علينا بكليات عرضها ما بين اليمامة وحضرموت».

وقال الشيخ محمد الخضري[3]: قد ذكر المؤلف نفسه ما كان من نَقَدَة الآداب أمام هذا الشعر فقال: «وقد فطن العلماء إلى ما في هذا الشعر من تكلف حينا ومن سخف واسفاف حينا آخر، وفطنوا إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب إليهم». وهذا هو الذي يريد أن يقوله، وهو أن النقاد في العصور الماضية لم يقصروا في تمييز طيب الشعر من خبيثه، وقد عبروا الطريق لم يخلفهم حتى لا يزعجهم كذب كاذب، أو تلفيق ملفق، فيرفضون جميع ما روي من الشعر، كما فعل مؤلف الشعر

---

(١) محمد لطفي جمعة: ص ٢١٢.

(٢) الشيخ محمد الخضر حسين: ص ٥٣.

(٣) محمد الخضري: ص ٥٣.

الجاهلي، بل يتبعون سيرة أولئك الأسلاف في النقد الأدبي الذي أساسه الرواية والدراية..».

٤ ـ **الشعوبية ونحل الشعر**: ذكر الشيخ محمد الخضر حسين ان الدكتور طه حسين «عقد فصلا للشعوبية ونحل الشعر الجاهلي، ولكنه لم يقم دليلا على التلازم بينهما، بل لم يأتِ برواية تدل على أن بعض الشعوبية انتحل شعرا جاهليا..[١]». وقال ايضا بعد أن ذكر أن الدكتور أورد قصصا عن ابي العباس الأعمى واسماعيل ابن يسار «وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية في انتحال الشعر ولكنه لم يستطع ان يضرب مثلا يريك كيف انتحلت الشعوبية شعرا جاهليا»[٢]. وكذلك قال الاستاذ محمد لطفي جمعة[٣]: «لا نجد في هذا الفصل ما يدل على انتحال الشعر الجاهلي». وأما الشيخ محمد الخضري فذهب إلى أن حديث الدكتور في هذا الفصل عن الشعوبية ونحل الشعر الجاهلي قائم على الفرض والتخيل لا على الحقائق، وبعد أن رد عليه قال:[٤] «ومتى كان الأمر كذلك ضعف مقدار هذا التخيل وسقط الفرض من أساسه».

٥ ـ **الرواية ونحل الشعر**: أشار الشيخ محمد الخضر حسين إلى ما في حديث الدكتور في هذا الفصل ـ وفي غيره من الفصول ـ من تعميم ومبالغة وذلك حين قال الدكتور ان الرواة «بين اثنين: إما أن يكونوا من العرب، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب..» وعقب عليه الشيخ محمد الخضر حسين بقوله: «ويريد من التأثر ـ بطبيعة السياق ـ الوجه الذي يحمل على صنع الشعر وعزوه إلى الجاهلية ومعنى هذا نفي أن يكون لطائفة من الرواة خطة ثابتة وهي ألا يتأثروا

---

(١) محمد الخضر حسين: ص ٢٤٧.
(٢) محمد الخضر حسين: ص ٢٤٩.
(٣) محمد لطفي جمعة: ص ٢٤٨.
(٤) محمد الخضري: ص ٥٤.

بشيء من هذه الأسباب تأثرا يستهينون معه بموبقة الافتراء على الناس كذبا، وهذه المبالغة لا تأويل لها إلا أن المؤلف يحب أن يكون هذا الشعر الجاهلي منحولا ».

والحقيقة العلمية أن الحديث والتفسير، والسير والمغازي إسلامية في مادتها، وقد دلت بما لا يقبل الشك على أن تدوين تلك الموضوعات في كتب ـ بدأ مبكرا في عهد رسول الله ﷺ وأن هذه الموضوعات لم تُنقل بالرواية الشفهية قرنا أو يزيد حتى دُونت، كما ذكر ذلك جميع المحدثين وثبت كذلك أن المفسرين كانوا يعتمدون على الشعر الجاهلي وكلام العرب في تفسير ألفاظ القرآن الكريم وفهم معانيه وأسوق مثلا واحدا فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر[1] ما تقولون فيها؟ (يقصد في قوله تعالى ﴿أَوْ يَأْخُذَهُم على تَخَوُّف﴾[2]. فسكتوا فقام شيخ من هُزيل، فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدًا ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[3].

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فان فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم..

وأسوق رواية أخرى عن ابن عباس، فقد ذكر أبو بكر الأنباري قال: أتى أعرابي إلى ابن عباس فقال:

تخوفني مالي أخ لي ظالم ... فلا تخذلني اليوم يا خير من بقي

فقال ابن عباس: تخوفك أي تنقصك؟ قال: نعم. قال: الله أكبر!.. « أو

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية: ٩، ١٠١.

(٢) سورة النحل، آية ٤٧.

(٣) التامك: السنام. القرد: الكثير القردان أو السمين. السفن: حجر ينحت به.

يأخذهم على تخوف» أي تنقص من خيارهم.

وكان ابن عباس حريصا على الشعر الجاهلي يحث الناس على تعلمه وطلبه لتفسير القرآن، فمما ذكره السيوطي في المزهر عنه: «اذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فان الشعر ديوان العرب».

وقد ذكر ابن سعد أن عبدالله بن عباس كتب الأحاديث الشريفة. ويوضح موسى بن عقبة قال وضع عندنا كريب حمل بعير من كتب ابن عباس، فكان علي بن عبدالله بن عباس اذا أراد الكتاب كتب إليه ابعث الي بصحيفة كذا وكذا، فينسخها ويبعث بها.

وأيضا من الذين كانوا يكتبون عبدالله بن عمرو بن العاص كان يكتب أحاديث رسول الله ﷺ بعلمه وإذنه، ولقد سأل رسول الله ﷺ بعد أن أذن له بكتابة حديثه: هل يكتب كل ما يسمع؟ فقال - ﷺ - أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق[1].

وقد حاج ابن عباس عمرو بن العاص في مجلس معاوية في آية[2] فقال عمرو: تغرب في عين حامية، وقال ابن عباس حمئة. فلما خرج إذا رجل من الأزد قال له: بلغني ما بينكما ولو كنت عندك أفدتك بأبيات قالها تُبَّع:

فرأى مَغَارَ الشَّمس عند غرُوبها   في عين ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حرْمَدِ[3]

فقال ابن عباس: اكتبها يا غلام.

وقال عثمان بن أبي العاص الثقفي لبنيه: «يا بني اني قد أمجدتكم في أمهاتكم، وأحسنت مهنة أموالكم، وانّي ما جلستُ في ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه، والناكح مُغْترس، فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غَرْسه، والعرق

---

(١) مسند أحمد: حديث رقم ٦٥١٠ ورقم ٦٨٠٢.

(٢) الزمخشري: الفائق ١: ٢٩٧.

(٣) الخلب: الطين اللزج. الثأط: الحمأة. الحرمد: الأسود.

السوء قلما ينجب ولو بعد حين» فقال ابن عباس: يا غلام اكتب لنا هذا الحديث[1].

ويروى عن ابن عباس[2] أنه قال: كنت لا أدري ما الفَتّاح حتى سمعت ابنة ذي يَزَن تقول لخصم لها: هلم فاتِحْني، أي حاكِمْني، فعلمت أن الحاكم الفَتّاح، وكنت لا أدري ما ﴿فاطر السموات﴾ حتى سمعت أعرابيا ينازع في بئر فقال: أنا فطرتها، يريد أنشأتها.

والأخبار عن معرفة ابن عباس بالشعر الجاهلي، وروايته اياه وحضه على طلبه وتعلمه وتفسير كتاب الله تعالى به، أخبار كثيرة[3] حتى أنه كان يقول[4] اذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه الى الشعر فانه ديوان العرب وكان يسأل عن القرآن فينشد الشعر.

قال الشعبي[5]: كنا عند ابن عباس وهو في ضفة زمزم يفتي الناس، اذ قال أعرابي: أفتيت الناس فافتنا قال: هات. قال: أرأيت قول الشاعر المتلمس:

لِذِي الحِلْمِ قبل اليوم ما تُقْرَعَ العَصَا وما عُلِّمَ الإنسانُ إلاّ لِيَعْلَمَا

قال ابن عباس: ذاك عمرو بن حُمَمَة الدَّوْسي، قضى على العرب ثلاثمائة سنة، فكبر فألزموه السابع من ولده. فكان معه، فكان الشيخ اذا غفل كانت بينه وبينه أن تقرع العصا حتى يعاوده عقله، وذلك قول المتلمس اليشكري من بكر بن وائل:

لذي الحِلم قبل اليوم ما تُقْرع العصا

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٢ : ٦٧.

(٢) الفائق ٢ : ٢٨٣، والفاضل للمبرد ١٦٦.

(٣) انظر ذلك مفصلا في الاتقان للسيوطي ١ : ١٤٨ - ١٦٤.

(٤) المبرد - الفاضل: ١٠.

(٥) السجستاني، المعمرين: ٤٥، والفاضل للمبرد: ١٢.
وانظر الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٦٣، ١٦٤.

قال ذو الاصبع العدواني بعد ذلك بدهر:

عَــذيــرَ الحيِّ مــن عَــدْوا ن كــانــوا حيَّــة الأرضِ
ومنهــم حَكَــمٌ يَقضــي . فلا يُنقَــضُ مــا يَقْضِــي

يعني: عامر بن الظَّرِب.

وأخيرا نستطيع أن نقول ان الدكتور لم يلتزم المنهج العلمي الذي أعلن أنه يريد أن يصطنعه وهو يحتج في نفي الشعر المستشهد به على كتاب ربنا ـ جل وعلا ـ بقوله: «أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت في سذاجة وسهولة ويسر، لا لشيء إلا لهذا الغرض التعليمي اليسير؟».

ونحن نكتفي بما ذكره الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن»[١] «كلما نظرنا في كتاب «الشعر الجاهلي» لم نَزدد الا يقينا بأن هذا الأستاذ الذي يسبح بمذهب ديكارت هو أشد الناس خروجا في كتابه على هذا المذهب فانه لا يكتب ولا يفكر إلا لغرض واحد يبتغي له وسائله وأسبابه بكل ما استطاع، وهو توهين أمر الإسلام وصدعه من مفاصله، وتفكيك العُقَد المحكمة التي يتماسك بها في تاريخه وناهيك به دائبا يَجْمعُ من هنا وهناك من أثينا إلى مكة..!»

واستشهد الرافعي بعبارة ناطقة برأي قائلها، حتى كأنه يقول: إن القرآن لا ينقصه الا أن يكتب عليه «تأليف فلان» ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره.

وذكر عنه أيضا أنه جاء في صفحة ١٨ من كتابه هذا وفي بيان أن القرآن ليس في حاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيه عند العرب «نخالفهم أشد الخلاف، لأن أحدا لم ينكر عربية النبي فيما نعرف..» يعني اذا لم يُنكر أحد عربيته لم ينكر صحة كلامه، ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره.

---

(١) انظر تحت راية القرآن ص٢٠٧.

ثم يقول في صفحة ٧٦ عن علماء الموالي وعلماء العرب: «وأرادوا هم ـ علماء العرب ـ أو الموالي، أو أولئك وهؤلاء، أن يدرسوا القرآن درسا لغويا ويثبتوا صحة الفاظه ومعانيه ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى اثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها».

والدكتور يكرر هذا المعنى ويطيل فيه، ولا يفهم أن الاستشهاد بالشعر لا يراد منه اثبات عربية القرآن ولا مطابقة ألفاظه لألفاظ العرب ولا هو من شك في العربية.. وانما يراد به اتخاذ القرآن سببا في جمع مادة اللغة وشواهدها، كما كان هو السبب في وضع العلوم العربية كلها.. أفترى وضع النحو كان لاثبات أن القرآن ليس فيه لحن.. أم كان لإقامة الألسنة الزائفة حتى يسهل عليها الأداء والقراءة؟. ثم يراد من تقييد تلك الشواهد وجمعها وتدوينها تفسير كلمات القرآن ليفهمها من يجيئون بعد العرب كما فهمها العرب أنفسهم.

ولعمري لولا المعاني التي أضافها ابن عباس في جمع هذه الشواهد ووقوفه مع الشعر الجاهلي وروايته له واستشهاده به يؤكد صحته، وينفي الانتحال فيه لقام ألف زنديق يضيفون إلى مطاعنهم في القرآن أن فيه خطأ في اللغة، وقد يجر ذلك إلى أشياء كثيرة.

الفصل الثاني
النقد في صدر الإسلام

ابن عباس والنقد

- ١ -

تمهيد:

كان النقد العربي عند الجاهليين والاسلاميين، نقدا يعتمد أساسا على الذوق.. والفطرة كطبيعة البدوي تنداح أمامه السهول والوديان وتعلو الجبال في بساطة ويسر وطبيعة الحياة رخية هنية تعطي للفكر انسياحا بعيد المدى.. يقوم على الحس الفني، والإدراك العام، والانفعال النفسي، تمشيّا مع الفطرة الحلوة، وانقيادا لحكم السليقة والفطرة التي تعرف وتنكر، وتستجيد وتستهجن، وفقا لما تتذوقه من أساليب، وتألفه من صور، وقلما كان يعتمد على طول تفكير، أو عمق بحث، أو طول تردد للنظر، فبقيت أحكامه في الغالب عامة موجزة، لا تستند إلى مقاييس موضوعية ولا تعتمد على مناهج مرسومة. وذلك أمر طبيعي. فالمناهج والمقاييس لا ينهض بها الا عقل ناضج يستقصي ويفكر ويقنن ويستجمع الشوارد، ويستحضر النظائر، ويطيل الموازنة، ويحتشد للتحليل والتفصيل، يعينه على كل ذلك ذوق مثقف وذكاء مرهف، وهذا ما لم يكن متاحا للعرب في ذلك الزمان.

وقبل أن نتمشى مع الأذواق المثقفة التي غذتها روافد ثقافية من ينابيع الآداب الإسلامية ونتساءل:

..ما هو النقد؟[1].

والإجابة في كتب اللغة، فقد استعملت اللغة لفظ النقد لمعان مختلفة:

الأول: تمييز الجيد من الرديء.

والثاني: العيب والانتقاص.. وفي حديث شريف: ان نقدت الناس نقدوك، ومعناه: ان عبتهم وآلمتهم قابلوك بمثل صنيعك!!..

اذن فللنقد مهمتان مختلفتان: مهمة التفسير، ومهمة الحكم، أي اصدار الأحكام الأدبية في قضايا الأدب ومشكلاته[2].

فالنقد الأدبي هو الحكم الذي تصدره على الشعر والنثر، فهو عند المحدثين تقدير النص الأدبي تقديرا صحيحا وبيان قيمته ودرجته الأدبية[3] وتحليل الآثار الأدبية والحكم عليها وبيان قيمتها العامة، والموازنة بينها وبين ما يشابهها من الآثار وأصول النقد قراءة وتفسيرًا وحكمًا.

ومن اللازم أن نعرف أن النقد بدأ ـ منذ استمع الإنسان الى الأدب شعرا ونثرا ـ بأحكام عامة مقتضبة ـ موجزة لا تحمل تعليلا، ولا تستصحب أسبابها.. شأن الأحكام العامة التي يرشد اليها الذوق، ويكون للفطرة الأدبية مدخل فيها، دون أن تتأثر بنزعة علمية، أو منهج عقلي، أو أسس موضوعة.

هكذا درج الأدب العربي، في العصر الجاهلي حكم دون تعليل، لأن أحكام الذوق والفطرة التي لم تسترشد بمناهج أو أصول موضوعة لا بد أن تكون على هذا المنهج الفطري.

ثم أخذ يرتقي العقل، وينضج الحس الأدبي، ويرتفع مستوى الملكات فلم يقنع بأن يرسل الحكم إرسالا دون أن يوضحه توضيحا، وأخذ يومئ من

---

(١) انظر كتاب في الأدب والنقد. د. مندور، والشعر المعاصر للسحرتي.

(٢) انظر النقد العربي الحديث ومذاهبه ص٦ د. خفاجي.

(٣) انظر أصول النقد الأدبي للشايب ص ٥٩.

بعيد وعلى سبيل الرمز والتلويح الى السبب.. وبعد أن بدأ تدوين العلوم والثقافات، وأخذ العقل العربي يضع أصولا للبيان والنقد. بدأت أحكام النقد تصطبغ بصبغة علمية موضوعية، فالحكم بجانبه السبب والعلة، والنقد يحمل معه طابع التوجيه والتعليل للوصول إلى أحكام موضوعية.

وأصبح النقد في الآداب العربية هو «شرح الشعر وتقدير طريقة الشعر الجاهلي لتكون منهجا للشعراء[1]، وأكبر مظاهره عندهم هو «علم البلاغة»[2].

أنواع النقد الأدبي

وأنواع النقد الأدبي كثيرة. فمنه:

١ ـ **النقد الذاتي أو التأثري**: وهو الذي يقوم على الذوق الخاص ويعتمد على التجربة الشخصية.

٢ ـ **النقد الموضوعي**: وهو الذي يركن الى أصول مرعية وقواعد عقلية مقررة يعتمد عليها في الحكم.

٣ ـ **النقد الاعتقادي**: وهو النقد الذي تتحكم فيه عقائد وآراء خاصة عند الناقد، وهو يحمل في طياته معنى التعصب والميل إلى نزعة خاصة، وكلما تحرر الناقد في نقده من التعصب لمذهبه ورأيه الشخصي كان نقده عادلا وأكثر انصافا وصدقا وتحريا للحقيقة، اذ أن تجرد الناقد من هواه وآرائه شرط أساسي لسلامة أحكامه النقدية من الجور.

٤ ـ **النقد التاريخي**: وهو النقد الذي يحاول تفسير الظواهر الأدبية والمؤلفات وشخصيات الكتاب بالاعتماد على ظروف البيئة والعصر وتطور المجتمع، وهو يعنى بالفهم والتفهيم أكثر من عنايته بالحكم والمفاضلة وتفسير الظواهر الأدبية.

---

(١) أنظر مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٩٠.

(٢) أنظر مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٦٩.

٥ ـ **النقد اللغـوي:** وهو الذي يحكم فيه على أساس اللغة والبلاغة وقواعدها الاسلوبية واللغوية.

٦ ـ **النقـد الفني:** وهو الذي يعتمد على خصائص الأدب ومقوماته وحدها، من التجربة والصورة والاسلوب والمضمون والموسيقى وغير ذلك.

وأخيرا نستطيع أن نقول إن النقد الأدبي هو فن ذاتي يعتمد على الثقافة الشخصية والبصيرة النفاذة، والذكاء الحاد، أكثر مما يعتمد على المذهبية، وان النقاد والبصراء هم قلة موهوبة، ترتفع موهبتهم الى درجة النبوغ أو العبقرية وان هؤلاء الموهوبين قد يصلون إلى حكم أكثر نفاذا وحكمة من الذين يسبحون بالقواعد والأصول الفنية، ومن الذين يضعون المضمون في القمة، وليست الأصول ولا قيم المضامين بأكثر أهمية للناقد من الموهبة والفطنة والنزاهة[1].

مناهج النقد:

١ ـ منهج النقد السائد في الآداب العربية القديمة هو المنهج الفقهي أو اللغوي الذي يعتمد على تحليل النص ودراسته، من حيث البلاغة وقواعد العربية والنحو والصرف واللغة والعروض وتقسيم النص إلى جمل أو أبيات والتحدث عن كل جملة أو بيت على أنه وحدة فنية مستقلة بذاتها.

وقد سار على ذلك ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز والآمدي والجرجاني[2]. ولكن قدامة بن جعفر يسير في تحديد النقد على التحدث عن عناصر الأدب عنصرا عنصرا، من معنى ولفظ وسواهما، ويشرح

---

(١) انظر النقد العربي الحديث ومذاهبه ص ١٣. د. خفاجي.

(٢) انظر الميزان الجديد في الأدب والنقد. د. مندور، والمدخل في النقد د. هلال. ودراسات في النقد الأدبي. د. خفاجي. والشعر المعاصر والنقد الأدبي للسحرتي. والتفسير النفسي للأدب والاسس الجمالية في النقد. د. عز الدين اسماعيل.

أسباب الجودة أو القبح في كل منها، ويحتذيه في ذلك أبو هلال وابن سنان وابن رشيق.. أما عبد القاهر الجرجاني فقد نحا في النقد منحى التحليل الأدبي القريب من المنهج الجمالي، وتحدث عن صلة البلاغة بالنفس والعاطفة والخيال.

ولا تزال هذه الاتجاهات القديمة هي أظهر ما يغلب على أدبائنا اليوم ويتسم أغلب النقد المعاصر بسماتها.. والنقاد القدامى الا قليلا لا يعنون كثيرا بالتجربة الشعرية أو الصياغة الفنية أو القيم الشعرية والأثر الأدبي جملة.. وصلته بصاحبه ومدى توفيقه في أداء المشاعر الخفية والعواطف الدقيقة.

ولا تزال آراء نقادنا القدامى والمعاصرين غامضة مجملة، ولا يزال الاختلاف بينها كبيرا، والحكم الأدبي متفاوتا، لأنها آراء لا تقوم على قواعد محددة.. ومن ثم فان هذا المنهج النقدي الواضح في النقد العربي كان بحاجة إلى استكمال الصورة، وإلى وجود الاصول الفنية ذات القيم النقدية الأصيلة.

٢ - وقد ساد في أدبنا الحديث منهج جديد في النقد سماه أنصاره.. «المذهب الفني» وعماده الحكم على النص الأدبي من حيث روحه وموسيقاه وأصالته وعناصره وصدقه وتجربته الشعرية[١].

وقد دعا إلى هذا المذهب في النقد جماعة من المجددين في أدبنا المعاصر ومنهم أصحاب مدرستي الديوان وأبولو، وهذا المنهج نجده في نقدنا العربي القديم في ومضات قليلة، نلمسها عند القاضي الجرجاني وعبد القاهر الجرجاني.

وقد رأى الناقد الجليل الاستاذ سيد قطب في كتابه «النقد الأدبي» أن هذا المنهج الفني هو الذي ساد الآداب العربية القديمة.

ودعا بعض النقاد الى المنهج التكاملي في النقد الذي يعتمد على كل المناهج، ولا يخاصم المذهب النفسي أوالجمالي أو الواقعي في النقد.

---

(١) انظر الشعر المعاصر ص ٧ للسحرتي - وفي الأدب والنقد ص ٦ لمندور.

ولا شك أن النقد الأدبي أسهم بنصيب كبير في بناء عمود الشعر العربي، فوضع مقاييس القصيدة، وحدد إطارها الخارجي وزنا وقافية ورويا.

- ٢ -

وكان ابن عباس - رضوان الله عليه - يؤثر الطبع وينبذ التكلف في الاسلوب - كمقياس نقدي فطري - ويدرك جمال الكلمة في مواطنها الرفيعة... يقول ربنا - جل وعلا - في سورة الحج ﴿وتَرَى الأرضَ هَامِدةً﴾[1]. وفي سورة فصلت ﴿تَرى الأرضَ خاشعةً﴾[2] فلماذا كانت الأرض هناك هامدة وهنا خاشعة؟!.

انه في سورة الحج يتحدث عن الموت والأحياء: ﴿يا أيُّها الناسُ ان كنتم في رَيْبٍ من البعث﴾[3] الآية فناسب أن يقول عن الأرض كذلك انها هامدة أي ميتة تحيا بالماء.. وفي فصلت يعدد نعمه على عباده: ﴿ومن آياته..﴾ الآيات، وهي نعم تستوجب الخضوع والخشوع له سبحانه.. فكان المناسب أن يقول عن الأرض (خاشعة)[4].

ان هناك قلة نادرة من النقاد من يدرك مثل هذه اللمحات والاسرار القرآنية والخصائص الأدبية للاسلوب.

وكان ابن عباس يدرك بذوقه كل خصائص الاسلوب وأسراره الفنية لأنه استوفى حقه من الثقافة والذكاء، ولا يمكن أن يفوته سر من أسرار بلاغة الكلام، وإعجاز القرآن فيما نقل إلينا من تفاسيره وآرائه.

---

(١) سورة الحج، آية ٥.
(٢) سورة فصلت، آية ٣٩.
(٣) سورة الحج، آية ٥.
(٤) تفسير المقياس لابن عباس (مخطوط - الجامعة الاسلامية - المدينة المنورة) والاتقان في علوم القرآن للسيوطي.

موهبة ابن عباس في النقد

من الأمور البدهية أن النقد يعتمد بادئ ذي بدء.. على التذوق الفطري للجمال الفني، والتأثر الذاتي بالعمل الأدبي.. وكان ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ من أشد الناس حبا لابن عمه رسول الله ﷺ حتى في نظراته إلى الأدب، وفي حكمه على الشعر والشعراء وقد أثرت عنه آراء وأحكام نقدية لنصوص أدبية كثيرة، وهي آثار تصور في جملتها مدى تقديره للأثر الأدبي وواجب علينا أن نحيط بالروافد التي صقلت حسه النقدي، ونمت ملكة النقد عنده، وهي عنده كثيرة متعددة:

نلمسها، أولًا، في وراثاته العربية القرشية صاحبة المدرسة المتميزة في البلاغة العربية وفي مذاهب الأدب والنقد.

ونلمسها، ثانيًا، في بيئته العربية المكية ذات الأثر البعيد، في تطور الأدب والشعر في الجزيرة العربية.

ونلمسها، ثالثًا، في مختلف الثقافات التي وعاها وفهمها وتذوقها.

ونلمسها، رابعًا، في المدرسة القرآنية المحمدية التي عاش في ظلالها متأثرا ببلاغاتها ومدركا كل أسرار هذه البلاغات.

ونلمسها، خامسًا، في معارك الأدب والدعوة في عصره مما كان يؤجج من ملكات الإدراك الفني لخصائص البلاغة وأسرارها.

ونلمسها، سادسًا، في مواهبه العربية البليغة، وفي ذكائه الأدبي اللماح، وفي احاطته بأسرار الكلام وخصائصه.

كما كان ابن عباس يلازم سيد الخلق في منزل خالته «ميمونة»... ـ أم المؤمنين ـ أو في المسجد حتى لا تفوته شاردة أو واردة.

وكان مع أبيه أصحاب مجلس عمر في رحبته بالمسجد النبوي الشريف ـ

رضي الله عنهم أجمعين ـ[1].

وكانت الندوات تعقد في ظلال المسجد النبوي الشريف ويفد إليها كبار الشعراء والخطباء.

وفي تلك المجالس التي كان يترأسها الفاروق عمر، يقرأون القرآن ويتدارسون تفسيره[2] ويذكرون حديث رسول الله ﷺ ويجتهدون في تأويله[3].

وكانت تلك المجالس تتشعب فيها فنون القول، ومطارح الكلام فيذكر فيها من أمر الجاهلية[4] وتنشد الأشعار، أنشد فيها زرارة بن جزء[5]، وعمرو ابن معد يكرب، والنابغة والحطيئة، وحسان وكعب بن مالك، وأنشد رجال من شعر طرفة، والوليد بن عقبة والمخبل السعدي.

وكان ابن عباس يقول لجلسائه: الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه.. وكان يفضل شعر ابن أبي ربيعة، لأنه يتمتع بذوق فني، وملكة أصيلة، وحس مرهف، ورأي ابن عباس في الحطيئة معروف حين قال الحطيئة لابن عباس: لولا الجشع لكنت أشعر الماضين ـ فقال له ابن عباس، وهو ينظر بذهنه إلى حياة الحطيئة ونفسيته: «كذلك أنت يا أبا مليكة»[6]؟!.

والفاروق عمر يطلب من ابن عباس: أنشدني لأشهر شعرائكم قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: ولِمَ كان كذلك؟ قال: كان لا

---

(١) أنظر أسد الغابة ج ٣ ص ٣٨٩.

(٢) مجالس ثعلب ج ١ ص ١١٣.

(٣) مسند أحمد ج ١ ص ١٩٠.

(٤) مسند أحمد ج ١ ص ١٩٠.

(٥) صحيح البخاري ج ٥ ص ٦١.

(٦) العمدة ج ١ ص ٩٧.

يعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيّـه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه[1].

وكان ابن عباس من تلامذة المدرسة المحمدية وممن تأثروا ببلاغاتها.

كان لديه الاستعداد النفسي والشعوري لأساليب النقد، الذي يعد من أساسيات المنهج الفني الذي ينظر فيه إلى شكل العمل الأدبي وموضوعه إلى المعنى وصياغته الشعرية. وطالما سمع إلى الشعراء وإلى الرسول في حياة صاحب الدعوة والرسالة ﷺ. روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال[2]: وفد إلى رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، فقال الزبرقان: يا رسول الله.. أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب منهم.. آخذ لهم بحقهم، وأمنعهم من الظلم، وهذا يعلم ذلك - يعني عمرو! فقال عمرو: أجل يا رسول الله، انه مانع لحوزته[3]، مطاع في عشيرته، شديد العارضة فيهم[4].

فقال الزبرقان: أما أنه والله قد علم أكثر مما قال، ولكنه حسدني شرفي! فقال عمرو: أما لئن قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق العطن[5]، زمر المروءة[6] أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى.. فرأى الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لما اختلف قوله.

فقال: يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الثانية!

فقال رسول الله - ﷺ - ان من البيان لسحرا، وان من الشعر لحكمة،

---

(١) مجالس ثعلب ج ١ ص ١٤٠، والموازنة ص ١٢٥ والعمدة ج ١ ص ٨٠.

(٢) انظر البيان والتبيين: ج ١ ص ٣١، العقد الفريد: ج ١ ص ١١٧.

(٣) مجمع الأمثال: ج ١ ص ٥.
حوزة الرجل: ما يحوزه ويملكه.

(٤) العارضة: قوة الكلام.

(٥) ضيق العطن: كناية عن البخل.

(٦) زمر المروءة: أي قليل المروءة.

ويروى لحكما[1] والاولى أصح[2]. ولقد روى أهل الثبت[3]، ان هذا الحديث، أنه قدم رجلان من أهل المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال الرسول الكريم: ان من البيان لسحرا أو إن من بعض البيان لسحرا.

وكان ابن عباس من نجباء مدرسة معلم الإنسانية - ﷺ - التي كانت ترفع أحكام المقاييس الدينية والمبادئ الخلقية التي جاء بها ديننا الحنيف.

قالوا: ان الرسول عليه السلام سمع عائشة وهي تنشد قول زهير بن جناب:

ارفع ضعيفك لا يحزِنْك ضعفه   يوما فتدركه عواقب ما جنى
يجزيك أو يثني وان من   أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام: «صدق يا عائشة لا شكر الله من لا يشكر الناس[4]
وقالوا: انه عليه السلام استمع إلى كعب بن مالك وهو ينشد، حتى اذا قال (مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة). قال الرسول: لا تقل (عن جذمنا) ولكن قل (عن ديننا)[5].

وفيه روح القبيلة، وهو يشعر بالنعرة والعصبية الجاهلية. وسمع عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام النابغة الجعدي يقول:

ولا خير في حلم اذا لم تكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له   حتيم اذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال الرسول الكريم: لا يفضض الله فاك.

وقد أعجب عليه السلام بقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد):

---

(١) النهاية لابن الاثير: ج ١ ص ٢٤٦، والحكم: العلم والفقه والعدل.
(٢) قال في النهاية: ويروى لحكمة: وهي بمعنى الحكم.
(٣) الثبت: بفتح الباء وتسكن: الحجة العدل الضابط.
(٤) انظر العقد الفريد ج ٣ ص ٣٨٢.
(٥) انظر: الأغاني ج ٢٦ ص ٢٣٢ والجذم: الأصل.

واستحسنها حتى كان يقول لجلسائه عند انشاد كعب لها: اسمعوا، وقبل توبته، وخلع عليه بردته. هذا النقد الشريف الذي جعل من ابن عباس قيمة من أرفع القيم النقدية.

هذه هي الروافد الرفيعة التي غذت ذوق ابن عباس النقدي، وصقلت ملكته الناقدة، وجعلته يتبوأ هذه المكانة الأدبية في عصر صدر الإسلام.

الحكم النقدي عند ابن عباس

١ ـ **صحة العربية**: كان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فيما أثر عنه يتوخى في اللفظة سلامتها وشكلها وصحتها وبعدها عن الابتذال والركاكة وكان يسبق عصره بهذا النقد الموضوعي الذي يعد من صميم المنهج الفني، الذي ينظر فيه الى شكل العمل الأدبي وصياغته الشعرية. فابن ربيعة وزهير وحسان بن ثابت من أجود الشعراء في نظره، وهذا الحكم لم يصدره هكذا ولكن علله بأسباب فنية أنهم بعيدون عن التعقيد في الكلام، وأنهم لا يأتون بالألفاظ الغريبة الوحشية وفيهم صدق فني لا يمدح الواحد منهم إلا بما فيه من صدق ووفاء ورجولة[1].

٢ ـ **جمال الألفاظ**: وكان أيضا يؤثر من الكلام ما كانت ألفاظه متداولة ومأنوسة وجميلة. فالغريب وغير المتداول على ألسنة العرب لا تستريح إليه النفس ولا يألفه الطبع، وينفر منه الذوق الفني المرهف الحساس وإذا كان ابن عباس يمج حوشي الكلام، وينفر منه ذوقه المطبوع على بلاغة القرآن وفصاحة كلام نبي الإسلام وينهى عنه في مقياسه النقدي وهو يستمع إلى

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٢٠، العقد الفريد ج ٣ ص ٣٨٣.

شعراء العربية فقد ألزم نفسه بسلوك هذا المنهج فيما صدر عنه من أدب رائع وخطب ووصايا رفيعة وقد عرضنا لهذا اللون فيما سبق، وسنعرض لكثير من نماذجه وأساليبه التي كانت مضرب المثل في الرقة والخفة والظرف والتذوق الرفيع للجمال، وكان ابن عباس آية في إدراك سر جماله بما فطر عليه من ذوق وموهبة نقدية، ومن رقة الطبع ودقة الإحساس وسلامة التذوق، وكان من أكثر الناس إحساسا بدقائق الشعر وإدراكا لمعانيه.

٣ - **كراهية المعاظلة والتعقيد:** وهكذا كان ابن عباس يؤثر من الاسلوب ما كان سهلا بسيطا بعيدا عن مظنة القسر والإكراه أو التكلف والتصنع والخروج على ما يمليه الذوق السليم، ومما رفع من قدر شعراء الحجاز في نظره - أنهم كانوا لا يعاظلون في القول، والمعاظلة هي ركوب الشيء بعضه بعضا، وسمي الكلام بها، اذا لم ينضد نضدا مستويا، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض، وتداخلت أجزاؤه، وهي من سوء النظم عند قدامه بن جعفر[1].

وهي على هذا يدخل فيها التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي اللذان يذهبان ببلاغة الكلام وروعته.

ولا بد من التنويه بهذا المقياس النقدي الدقيق، الذي فطن له حس ابن عباس وذوقه الرفيع، والجدير بالذكر أن علماء البلاغة الذين سجلوا أصول هذا العلم فيما بعد، لم يخرجوا في مباحثهم عن فصاحة المفرد وبلاغة الكلام عما قال ابن عباس في هذا المعنى، اللهم الا ما اقتضاه التصنيف من منهج وتبويب عند بعضهم.

٤ - **الوضوح والإبانة:** كان النقد عند ابن عباس يعتمد أساسا على الذوق الجمالي وأصالة الطبع، وصفاء القريحة التي صقلتها الدراسة، وتمرست

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٢٠.
راجع نقد الشعر لقدامه ص ١٣٢.

بألوان الاساليب، وفنون الصور، وضروب البيان التي هي وليدة التمرس بجمال الاساليب، وصائب المنطق، وتسلسل الفكرة وترابطها، وهذا لا يتم الا بوضوح النص وضوحا كاملا بحيث يبدو الكلام واضحا مبينا في شكله ومضمونه.

وفي الحق انه كان - إذا استمع أو تكلم - جعل الوضوح نصب عينيه.

فلنستمع إليه يقول: ما فرحت بكلام بعد كلام رسول الله ﷺ مثل كلام كتبه الى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - «ان المرء ليفرح بما لم يكن ليفوته، ويحزن لما لم يكن ليناله، فاجعل فرحك وحزنك بما يقربك من الله»[1] وفي رواية اخرى[2] «أما بعد فان المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه. فما نالك من دنياك فلا تكثر به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه آسفا، فليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وهمك فيما بعد الموت».

ولنصغ جيدا الى ابن عباس وهو يكشف عن رأيه في «بيعة أبي بكر الصديق» - رضي الله عنه - وهي محاورة له مع «الفاروق عمر» فانه يقول[3].

«قال عمر: يا بن عباس.. أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد - رسول الله -، فكرهت أن أجيبه.. فقلت: ان لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني؟!

فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا؟![4] على قومكم بجحا بجحا، فاختارت قريش لأنفها فأصابت ووفقت فقلت: يا أمير

---

(١) مجالس ثعلب ص ١٥٥، والرسالة كاملة في وقعة صفين ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) انظر عبد الله بن سبأ - مرتضى العسكري ص ١٨٠.

(٤) بجح وتبجح افتخر به وعظمت نفسه عنده، وفلان يتبجح بكذا أي يتعظم ويفتخر النهاية لابن الاثير - والقاموس للفيروز آبادى.

المؤمنين.. إن تأذن لي في الكلام، وتحط عني الغضب تكلمت..

فقال: تكلم يا ابن عباس؟!

فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين اختارت قريش لأنفها فأصابت ووفقت، فلو أن قريشا اختارت لانفها حيث اختار الله - عز وجل - لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود. وأما قولك إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة فان الله عز وجل وصف قوما بالكراهية فقال: ﴿ذَلِكَ بأنهم كَرِهُوا ما أنزلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أعمالَهُم﴾[1].

فقال عمر: هيهات والله يا ابن عباس قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت كرهت أن أقرك عليها فتزيل منزلتك مني!.. فقلت: وما هي يا أمير المؤمنين؟.. فان كانت حقا فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وان كانت باطلا فمثلي أماط الباطل عن نفسه.

فقال عمر: بلغني أنك تقول: انما صرفوها عنا حسدا وظلما.

فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين ظلما.. فقد تبين للجاهل والحليم، و أما قولك حسدا فان ابليس حسد آدم ونحن ولده المحسودون».

وهذا الاسلوب في المناقشة والمحاورة - يبين لنا بوضوح ايثار ابن عباس الوضوح والإبانة في الكلام، كما يصوِّر إيثاره الصدق والاستدلال بالحق والمنطق وكلام الله..

ويعتبر هذا من أصدق المقاييس النقدية.

بين الشكل والمضمون:

لقد درج النقاد على اختلاف مناهجهم النقدية على أن الأسلوب هو الجانب الحي من فن الكلام، وأن العناية بالشكل مردها إلى الحاسة الجمالية

---

(١) سورة محمد، آية ٩.

والتذوق الأدبي التي تكمن في طبع الأديب والشاعر، ويهتدي بها تلقائيا إلى مواطن الروعة في التعبير والتصوير.

وأصحاب الطبع والذوق من أدباء العرب في جاهليتهم واسلامهم لا يختلفون في تقديم الفن الكلامي من هذا الجانب، فالجمال يكمن دائما في الصورة الخلابة، والتعبير الذي ترف حوله الظلال، وتتزاحم فيه الإشارات والإيحاءات حتى ان المتلقي لهذا الفن يحس إحساسا قويا أن هناك قوة غامضة ترتفع بشعوره وخياله الى عالم يموج بالرؤى، ويعمر بالمشاهد.

وهذه القاعدة الثابتة في الفنون جميعا لا يختص بها نقاد الغرب أو الشرق، لأنها تقوم على حقيقة الابتكار الفني وطبيعته.

ذلك أن الفكرة تراود الفنان على أنها «مادة» يشكل منها فنه بعد تنسيق أجزائها تنسيقا يلائم فكره وطبعه، وهي في هذه المرحلة من مراحل الابتكار تعتبر فكرة مضمرة في أعماق الفنان، فإذا شاء لها أن تتخلق أو شاءت الفكرة أن تحيا خارج نفس الفنان، وهبها الحياة والحركة وأفرغ فيها ما يتاح له من فتنة وسحر وجمال، ومن ثم تنفصل عنه في تعبير يلائمها ويفصح عن مفاتنها في الصورة التي يختارها المبتكر دون اغراب أو ابتذال.

«فإذا احتوى التعبير أجزاء الفكرة، واستشف المتلقي ملامحها من خلال التصوير، فذلك هو الفن الجميل الذي يلتقي عنده النقاد في كل لغة وجنس، وتلك هي القاعدة التي يقوم عليها الفن وينهض على أساسها الابتكار الأدبي»[1].

وهناك مقاييس أخرى، كان ابن عباس ينهج نهجا في الأدب ويوجه بها الأدباء وجهة جديدة.. تأسيسا على هدي الكتاب والسنة وروح الإسلام، ويمكن أن تضاف إلى المقاييس الفنية الأخرى، حتى يمكن على هديها أن

---

(١) أنظر مذاهب النقد وقضاياه د. عبد الرحمن عثمان ص ١٥٠.

تعطي القارئ تصورا لمقاييس الأدب في عصر الإسلام الذهبي ممثلة في أحكام ابن عباس على الأدب.

لقد كان ابن عباس مدركا تمام الإدراك لتلك الحقيقة الفنية وهي التي تمثل جانب الصدق في الترجمة عن نبضات القلب، ومشاعر الحس، وتصوير العواطف النبيلة.

كان ذلك مما يفضله ابن عباس ويستحسنه وينال اعجابه وقد روى سفيان الثوري عن ليث عن طاوس حينما استمع ابن عباس إلى معلقة (طرفة) حتى وصل فيها إلى:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

كانت صورة تفيض بالجمال، وتعتمد على الشعور والذوق فنجد ابن عباس وقد هيجت تلك المعاني كوامن نفسه فيقول: «انها لكلمة نبي»[1].

فعندما سأل الحطيئة عن أشعر الناس فقدم له نماذج شعرية عالية ثم علق الحطيئة على ذلك بقوله: لولا الجشع لكنت أشعر الماضين، وأما الباقون فلا شك أني أشعرهم فانظر تعليق ابن عباس:

كذلك أنت يا أبا مليكة؟![2].

وأنه ليتحرى المعنى الدقيق، وعناصر الصدق، والعاطفة الجياشة الحارة حينما يفد إليه عمر بن أبي ربيعة وهو في المسجد الحرام ينشده الشعر. وتلمس في شفافية ابن عباس حبه للشعر وتذوقه لكل معنى جميل، فيقول له: متّعني الله بك.. ان نفسي قد تاقت إلى قول الشعر ونازعتني إليه، وقد قلت منه شيئا أحببت أن تسمعه وتستره علي. فقال: أنشدني فأنشده.

---

(١) أنظر العقد الفريد ج ٥ ص ٢٧٦.

(٢) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٩٧.

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر

فقال له: أنت شاعر يا ابن أخي فقل ما شئت[1].

وقد استحسن ابن عباس الصدق لذاته دون اعتبار آخر.

وقد انشد ابن عباس الخليفة عمر قصيدة زهير في مدح هرم بن سنان وقومه[2]:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم أو بجدهم قعدوا
قوم سنان أبوهم حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إنس اذا أمنوا جن اذا فزعوا	مرزءون بها ليل اذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله عنهم ما له حسدوا

فعلق عمر: والله لقد أحسن، وما أرى هذا المدح الا لهذا البيت من بني هاشم لقرابتهم من رسول الله ﷺ.

ففرح ابن عباس بهذا الصدق في كلمة الفاروق عمر ـ رحمة الله عليه ـ.

وكان ابن عباس يحاول ربط العمل بصاحبه ثم ينظر فيما يحمل من صدق مشاعر الأديب وأحاسيسه لأن الجمال الحقيقي لكل عمل أدبي يتوقف على مدى ما يرتسم في النص من شعور أصيل وإحساس غير مفتعل وهو ما يسمى في النقد الحديث بالصدق الفني.

روى دغفل بن حنظلة النسابة المخضرم[3] أنه رأى العباس بن عبد المطلب وولده في جمع من الصحابة، وقد سأل عمر بن الخطاب عن الشعراء، فقال:

---

(١) انظر الأغاني ج ١ ص ٢٠١.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ١٠٧.

(٣) انظر في ترجمته ونسبه ـ تهذيب التهذيب لابن حجر ج ١ ص ٢٣٦.

امرؤ القيس سابقهم خسف[1] لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصرا[2].

وفي هذا الخبر يرى العباس أن امرأ القيس هو مقدم الشعراء مع أنه اليمني الأصل - واليمن لم تكن لها فصاحة مضر في الشمال، ولم تكن معانيهم على درجة جيدة تستلفت النظر، وانما كانت متخلفة عن معاني وسمو أهل الشمال وكان ابن عباس يؤثر في المعنى علاوة على صدق المنهج أن يكون موائما لمقاييس الدين الرفيعة، بحيث لا يتورط الأديب أو الشاعر في هجاء ذميم أو لفظ ناب او سباب فاحش.

وكان له موقف مع ابن فسوة الشاعر.. وهو عتيبة[3] (ويقال عتبة) بن مرداس من بني تميم، وقد أتى ابن عباس فحجب عنه فقال في ذلك شعرا:

أتيت ابن عباس أرجو نواله ... فلم يرج معروفي ولم يخش منكري
وقال لبوابيه: لا تدخلنه ... وسد خصاص الباب من كل منظر

فابن عباس يؤثر الصدق ويحارب اللفظ الجارح، ويطرد الشاعر المكسب ولا يخشى لسانه أو هجوه لأن الحق في نظره لا يتجزأ.

وظيفة النقد:

١ - واذا كانت كلمة النقد تعني في مفهومها الدقيق (الحكم)، وكان النقد الأدبي، هو اصدار حكم على الآثار الأدبية، فان الأدب الإنشائي يخالف الأدب النقدي الذي هو من الأدب الوصفي فالانشائي هو شرح للحياة في صور مختلفة من الفن الأدبي، والأدب النقدي هو تفسير لهذا

(١) الخسف: البئر تحفر في حجارة فيخرج منها ماء كثير وجمعها خسف، وافتقر من الفقير وهو فم الفتاة: نهج البلاغة ١/١٤.

(٢) أنظر الخبر في الأغاني ج ٨ ص ١٩٩.

(٣) أنظر ترجمته في الأغاني ج ١٩ ص ١٤٣ - والسمط ص ٨٦ والإصابة ج ٥ ص ١٠٤.

التفسير ولصور الفن التي يوضع فيها، وكما يأخذ الأدب من الطبيعة والحياة.. فان النقد كذلك يأخذ منها ولكن عن طريق غير مباشر.

٢ ـ ان وظيفة النقد الأدبي هي في تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية.. وبيان قيمته الموضوعية، وقيمته التعبيرية والشعورية وتوضيح منزلته وآثاره في الأدب.

ويرى بعض النقاد أن وظيفة النقد الأدبي هي النفاذ إلى ذات المؤلف والإدراك التام للبواعث النفسية التي هي من وراء العمل الأدبي، وهؤلاء هم أصحاب المذهب النفسي في النقد السائد في الأدب الغربي ومَنْ شايعهم من أدبائنا.

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يستمع الى شاعر فحل هو.. «أبو الأسود الدؤلي» ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان من كنانة، وهو يعد من الشعراء، والتابعين، والمحدثين، والنحويين لأنه أول من عمل في النحو كتابا، وولي البصرة مع ابن عباس ومات بها، وقد أسن، سنة ٩٩ في طاعون «الجارف».

ومما يستجاد له قوله أمام حبر الأمة ابن عباس[١]:

ليت شعري عن أميري ما الذي	غاله في الود حتى ودعه
لا تهني بعد اذا أكرمتني	فشديد عادة منتزعه
لا يكن برقك برقا خلبا	ان خير البرق ما الغيث معه[٢]

وقال آخر:

(١) أنظر الشعر والشعراء ج ١ ص ٦١٥.

(٢) أنظر ديوانه ص١٤. وقد حدث خلاف بينه وبين ابن عباس ورفع الامر للامام علي بن أبي طالب.

نمته العرانين من هاشم إلى النسب الأصرح الأوضح[1]
إلى نبعة فرعها في السماء ومغرسها في ذرى الأبطح[2]

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدي: أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون وبلسان النبوة ينطقون، وفيهم يقول القائل:

لو كان يوجد عرف مجد قبلهم لوجدته منهم على أميال
ان جئتهم أبصرت بين بيوتهم كرما يقيك مواقف التسآل
نور النبوة والمكارم فيهم متوقد في الشيب والأطفال

وسئل سعيد بن المسيب: من أبلغ الناس؟ فقال: رسول الله ﷺ فقال السائل: انما أعني مَنْ دونه. فقال: معاوية وابنه، وسعيد وابنه، وان ابن الزبير لحسن الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح، فقال له رجل: فأين أنت من علي وابنه، وعباس وابنه.. فقال: انما عنيت من تقاربت أشكالهم وتدانت أحوالهم، وكانوا كسهام الجعبة، وبنو هاشم أعلام الأنام، وحكام الإسلام[3].

ويطول بنا القول لو استرسلنا في بيان ثقافة هذا الحبر الجليل والعالم الأصيل ولنستمع إليه وقد استعيد حديث لرسول الله - ﷺ - فقال: لولا أني أخاف أن أغضّ من بهائه، وأرِيق من مائه، وأخْلِق من جِدَّة رُوَائِه، لأعدته[4].

وكتب الحريري في المقامات عن القاضي اياس أبي وائلة اياس بن معاوية ابن قرة.. هو اللسن البليغ والألمعي المصيب، والمعدود مثلا في الذكاء والفطنة، ورأسا لأهل الفصاحة والرجاحة، كان صادق الظن لطيفا في الأمور

---

(١) العرانين: الأوائل. وفي أخرى: العرائس.
(٢) الأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى.
(٣) أنظر زهر الآداب ج ١ ص ٥٦ - ٥٧.
(٤) أنظر زهر الآداب ج ١ ص ٥٤.

مشهورا بفرط الذكاء، وبه يضرب المثل في الذكاء، واياه عنى الحريري في «المقامات» بقوله في المقامة السابعة:

«فإذا المعيتي ألمعية ابن عباس؟».

هذا هو ابن عباس الذي يهتز للبلاغة ويطرب أيما طرب ويقرر الأقدمون أن هذا الإحساس: قليل في الناس وهذا لا يتأتى إلا لمن صفت قريحته، وصح ذوقه، وتمت أداته.

الفصل الثالث
ابن عباس والخطابة

الخطابة العربية

لا مراء أن خطب العرب في عصور ازدهار اللغة مرآة يتجلى فيها ما حباهم الله من ذلاقة اللسان، وعذوبة البيان، ومعرض يتمثل فيه نتاج قرائحهم، وثمرات ألبابهم، في كثير من مناحي القول، وإنها لتعد ـ بعد القرآن الكريم وحديث سيد المرسلين ـ مثالا ساميا للبلاغة العربية، ونموذجا قديما يحتذي به المتأدب في تقويم قلمه المعوج، وشحذ لسانه الكليل، وهي فوق ذلك معين فياض يستقي منه مؤرخ الأدب العربي ما يعن له من آراء، ومادة غزيرة يستنبط منها ما يقف عليه البحث من فكر ونظر وتجربة.

نماذج من خطب ابن عباس:

١ ـ خطبة لعبد الله بن عباس

كتب علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الى ابن عباس بالبصرة.

«أما بعد فاشخص إلي بمن قبلك من المسلمين والمؤمنين وذكرهم بلائي عندهم، وعفوي عنهم في الحرب، وأعلمهم الذي لهم في ذلك من الفضل والسلام».

لما وصل كتابه الى ابن عباس قام في الناس فقرأ عليهم الكتاب وحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس: استعدوا للشخوص الى إمامكم، وانفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، فانكم تقاتلون المحلين القاسطين، الذين لا يقرأون القرآن ولا يعرفون حكم الكتاب ولا يدينون دين الحق، مع أمير المؤمنين، وابن عم رسول الله، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، والصادع بالحق، والقيم بالهدى، والحاكم بحكم الكتاب، الذي لا يرتشي في الحكم، ولا يداهن الفجار ولا تأخذه في الله لومة لائم[١].

٢ - خطبة أخرى:

ووقف عبدالله بن عباس في أهل العراق خطيبا يوم (صفين) فقال: «الحمد لله رب العالمين، الذي دحا[٢] تحتنا سبعا، وسمك[٣] فوقنا سبعا، وخلق فيما بينهن خلقا، وأنزل لنا منهن رزقا ثم جعل لكل شيء قدرا، يبلى ويفنى، غير وجهه الحي القيوم الذي يحيا ويبقى.

ان الله تعالى بعث أنبياء ورسلا، فجعلهم حججا على عباده عذرا ونذرا[٤]، لا يطاع الا بعلمه واذنه، يمن بالطاعة على من يشاء من عباده، ثم يثيب عليها، ويعصى بعلم منه فيعفو ويغفر بحلمه، لا يقدر قدره، ولا يبلغ شيء مكانه، أحصى كل شيء عددا، وأحاط بكل شيء علما، وأشهد أن لا

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٨٣، جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٣٢٦.

(٢) دحا الله الأرض يدحوها ودحاها: بسطها.

(٣) أي رفع.

(٤) هما مصدران: عذره يعذره عذرا بضم فسكون وبضمتين وأنذره انذارا ونذرا بضم فسكون وبضمتين أو جمعان: العذر بضمتين جمع عذير وهو العاذر، والنذر بضمتين جمع نذير وهو المنذر.

إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، إمام الهدى والنبي المصطفى.

وقد ساقنا قدر الله الى ما ترون، حتى كان مما اضطرب من حبل هذه الأمة وانتشر من أمرها، أن معاوية بن أبي سفيان وجد من طغام الناس أعوانا على ابن عم رسول الله ﷺ وصهره، وأول ذكر صلى معه، بدري قد شهد مع رسول الله ﷺ كل مشاهده التي فيها الفضل، ومعاوية مشرك كان يعبد الأصنام، والذي ملك الملك وحده، وبان به وكان أهله، لقد قاتل علي ابن أبي طالب - عليه السلام - مع رسول الله ﷺ وهو يقول: صدق الله ورسوله، ومعاوية يقول: كذب الله ورسوله: فعليكم بتقوى الله، والجد والحزم والصبر والله إنّا لنعلم انكم لعلى حق، وان القوم لعلى باطل، فلا يكونن أولى بالجد على باطلهم منكم في حقكم، وإنّا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديكم أو بأيدي غيركم، اللهم أعنا ولا تخذلنا، وانصرنا على عدونا، ولا تحل عنا، وافتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين[1].

ومر علي بن أبي طالب فسمع مقالته، وشهد أهل راية، فرآهم لا يؤولون عن مواقفهم، فحرض عليهم الناس - وذكر أنهم غسان - فقال: « ان هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن دراك، يخرج منهم النسم[2]، وضرب يفلق منه الهام[3] ويطيح العظام[4] وتسقط منه المعاصم والأكف، وحتى يصدع جباههم بعمد الحديد، وتنتشر حواجبهم على الصدور والأذقان، أين أهل الصبر وطلاب الأجر؟[5].

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ٥٠٤. جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٢) جمع نسمة، وهي نفس الروح - بفتح الفاء - ثم سميت بها النفس - بالسكون.

(٣) جمع هامة وهي الرأس.

(٤) يصح أن يكون مضارع طيح بالتشديد: طيح بثوبه: رمى به في مضيعه، وطيح الشيء: ضيعه. وأن يكون مضارع أطاح: أطاح شعره أسقطه.

(٥) انظر الطبري ج ٦/٢٥.

٣ ـ كلام عبدالله بن عباس لأبي موسى الأشعري في قضية التحكيم بين علي ومعاوية:

ولما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى الأشعري وأحضروه للتحكيم على كره من علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ أتاه عبد الله بن العباس، وعنده وجوه الناس وأشرافهم، فقال له:

«أبا موسى: ان الناس لم يرضوا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارك فيه، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك، ولكن أهل العراق أبوا الا أن يكون الحكم يمانيا، ورأوا أن معظم أهل الشام يمان، وآيم الله اني لأظن ذلك شرا لك ولنا، فانه قد ضم إليك داهية العرب، وليس في معاوية خلة[١] يستحق بها الخلافة، فان تقذف بحقك على باطله، تدرك حاجتك منه، وان يطمع باطله في حقك يدرك حاجته منك، واعلم يا ابا موسى أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه يدعي الخلافة من غير مشورة ولا بيعة، فان زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه فلقد صدق، استعمله عمر وهو الوالي عليه بمنزلة الطبيب يحميه ما يشتهي ويوجره[٢] ما يكره، ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثر من استعملا ممن لم يدع الخلافة، واعلم أن لعمر ومع كل شيء يسرك خبأ[٣] يسوءك ومهما نسيت فلا تنسَ أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بيعة هدى، وأنه لم يقاتل الا العاصين والناكثين».

فقال أبو موسى: «رحمك الله والله ما لي إمام غير علي، واني لواقف عند

---

(١) خصلة.

(٢) وجره الدواء (كوعده) وأوجره اياه، جعله في فيه، وأوجره الرمح: طعنه، ؤوجره: أسمعه ما يكره.

(٣) الخبأ: ما خبئ.

ما رأى، وان حق الله أحب إلي من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا الا بالله»[1].

ثم أعقبه شريح بن هانئ الحارثي، فأخذ بيده وقال: لأبي موسى:

أبا موسى: رميت بشر خصم ... فلا تضع العراق (فدتك نفسي)
وأعط الحق شامهم وخذه ... فان اليوم في مهل كأمس
وان غدا يجيء بما عليه ... كذاك الدهر من سعد ونحس
ولا يخدعك عمرو، ان عمرا ... عدو الله مطلع كل شمس
له خدع يحار العقل منها ... مموهة مزخرفة بلبس
فلا تجعل معاوية بن حرب ... كشيخ في الحوارث غير نكس[2]
هداه الله للإسلام فردا ... سوى عرس[3] النبي، وأي عرس؟

٤ ـ خطبتان للإمام علي ولابن عباس:

خطب الإمام علي بعد فشل التحكيم، فقال: «الحمد لله وان أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره، وأن محمدا عبده ورسوله، ﷺ.

أما بعد: فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب، تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، وتخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير[4] أمر. فأبيتم عليَّ اباء المخالفين الجفاة،

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩٥.

(٢) كشيخ: يريد به الامام علي، والنكس: الضعيف والمقصر عن غاية الكرم.

(٣) أي زوجة، يريد السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ وأي عرس: أي وأي عرس هي: استفهام المراد به التعظيم.

(٤) قصير: هو مولى جذيمة الأبرش، وكان قد أشار على سيده، أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة، وقد دعته اليها ليتزوجها، فخالفه وقصد اليها، فقال قصير «لا يطاع لقصير أمر» فذهبت مثلا.

والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصح بنصحه، وضن الزند بقدحه، فكنت واياكم كما قال أخو هوازن[1]:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوى فلم تستبينوا النصح الا ضحى الغد[2]

ثم قال الإمام علي لعبدالله بن عباس: قم فتكلم، فقام عبدالله وقال: «أيها الناس: ان للحق أناسا أصابوه بالتوفيق والرضا، والناس بين راضٍ به، وراغب عنه، وانما سار أبو موسى يهدي إلى ضلال، وسار عمرو بضلال إلى هدى فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه، ومضى عمرو على ضلاله، فوالله لو كانا حكما عليه بالقرآن لقد حكما عليه، ولئن كانا حكما بهواهما على القرآن، ولئن مسكا بما سارا به، لقد سار أبو موسى وعلي أمامه، وسار عمرو ومعاوية أمامه ثم جلس.

ثم طلب علي بن أبي طالب من ولده الحسن بن علي وعبدالله بن جعفر أن يتكلما فأحسنا.

ولما نزل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ النخيلة وأيس من الخوارج، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد: فانه من ترك الجهاد في الله، وادهن في أمره، كان على شفا هلكة، الا أن يتداركه الله بنعمة الخ[3].

وكتب علي إلى عبدالله بن عباس: «أما بعد، فانا قد خرجنا إلى معسكرنا بالنخيلة، وقد أجمعنا على المسير إلى عدونا من أهل المغرب، فأشخص بالناس حين يأتيك رسولي، وأقم حتى يأتيك أمري والسلام».

فلما قدم عليه الكتاب قرأه على الناس، وأمرهم بالشخوص مع الأحنف بن

---

(١) هو دريد بن الصمة.

(٢) نهج البلاغة ١: ٤٤، تارخ الطبري ٦: ٤٣، والامامة والسياسة ١: ١٠٥.

(٣) تاريخ الطبري ٦: ٤٤.

قيس، فشخص معه منهم ألف وخمسمائة رجل، فاستقبلهم عبدالله بن عباس، فقام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد يا أهل البصرة فانه جاءني أمر أمير المؤمنين يأمرني باشخاصكم فأمرتكم بالنفير إليه مع الأحنف بن قيس، ولم يشخص معه منكم إلا ألف وخمسمائة، وأنتم ستون ألفا سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم. ألا انفروا مع جارية بن قدامة السعدي، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا، فاني موقع بكل ما وجدته متخلفا عن مكتبه، عاصيا لإمامه. وقد أمرت أبا الأسود الدؤلي بحشركم، فلا يلم رجل جعل السبيل على نفسه الا نفسه»[1].

٥ ـ مناظرة عبدالله بن عباس للخوارج:

لما رجع الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ من صفين إلى الكوفة ـ بعد كتابة صحيفة التحكيم بينه وبين معاوية ـ اعتزله جماعة من أصحابه ممن رأوا التحكيم ضلالا، ونزلوا حروراء في اثني عشر ألفا، وأمروا على القتال شبث ابن ربعي، وعلى الصلاة عبدالله بن الكواء، فبعث إليهم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ عبدالله بن عباس، فقال: لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك، فخرج إليهم حتى أتاهم، فأقبلوا يكلمونه، فلم يصبر حتى راجعهم فقال:

ما نقمتم من الحكمين؟ وقد قال الله عز وجل: ﴿إنْ يُريدا إصْلاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بينهما﴾[2] فكيف بأمة محمد ـ ﷺ ـ؟ فقالت الخوارج: قلنا أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له، فهو إليهم كما أمر به وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه: حكم في الزاني مائة جلدة وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا، قال ابن عباس: فان

---

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٤٤.

(٢) سورة النساء، آية ٣٥.

الله عز وجل يقول: ﴿يحكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ منكُم﴾[1] فقالوا له: أو تجعل الحكم في الصيد، والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟».

وقالت الخوارج قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك.

أعدل عندك ابن العاص، وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا؟ فان كان عدلا فلسنا بعدول، ونحن أهل حرية، وقد حكمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا[2]، وقبل ذلك ما دعوناهم الى كتاب الله عز وجل فأبوه، ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا، وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة[3] وقد قطع الله عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة، الا من أقر بالجزية[4].

٦ ـ مناظرة أخرى للخوارج:

فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليا رجع عن التحكيم وتاب منه، ورآه ضلالا، فأتى الأشعث بن قيس عليا، فقال: يا أمير المؤمنين، ان الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا، والإقامة عليها كفرا وتبت، فخطب علي الناس فقال:

«من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب، ومن رآها ضلالا فهو أضل منها، فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت، فقيل لعلي انهم خارجون، فقال: لا أقاتلهم حتى يقاتلوني، وسيفعلون، فوجه إليهم عبدالله بن

(١) سورة المائدة، آية ٩٥.

(٢) يشيرون الى قوله تعالى ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسولَه ويسعَوْن في الأرضِ فسادًا أن يُقَتّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقَطَّعَ أيديهمْ وأرجُلُهم.. الخ﴾. (سورة المائدة، آية ٣٣).

(٣) استفاض المكان استفاضة: اتسع، وهي مرادفة للموادعة.

(٤) تاريخ الطبري ٦: ٣٦، والكامل للمبرد ٢: ١٢٠.

عباس: فلما سار إليهم رحبوا به وأكرموه، فرأى منهم جباها قرحت لطول السجود وأيديا كثفنات[1] الأبل، وعليهم قمص مرحضة[2]، وهم مشمرون. قالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ قال: جئتكم من عند صهر رسول الله ﷺ وابن عمه وأعلمنا بربه وسنة نبيه، ومن عند المهاجرين والأنصار، فقالوا: انا أتينا عظيما حين حكمنا الرجال في دين الله، فان تاب كما تبنا، ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا، فقال ابن عباس: نشدتكم الله الا ما صدقتم أنفسكم. أما علمتم أن الله أمركم بتحكيم الرجال في أرنب تساوي ربع درهم تصاد في الحرم، وفي شقاق امرأة ورجلها، فقالوا: اللهم نعم، قال: فأنشدكم الله هل علمتم أن رسول الله ﷺ أمسك عن القتال، للهدنة بينه وبين الحديبية، قالوا: نعم ولكن عليا محا نفسه من خلافة المسلمين، قال ابن عباس: أذلك يزيلها عنه؟. وقد محا رسول الله ﷺ اسمه من النبوة قال سهيل[3] بن عمرو: لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك فقال للكاتب[4]: اكتب محمد بن عبدالله وقد أخذ على الحكمين أن لا يجورا، فعلي أولى من معاوية وغيره، قالوا: ان معاوية يدعى مثل دعوى علي: فأيهما رأيتموه أولى فولوه، قالوا: صدقت قال ابن عباس: ومتى جار الحكمان فلا طاعة لهما، ولا قبول لقولهما.

فاتبعه منهم ألفان وبقي أربعة آلاف، فلم يزالوا على ذلك حتى اجتمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي[5].

٧ - بين عمرو بن العاص وابن عباس:

قال عمرو بن العاص لعبدالله بن عباس: «ان هذا الأمر الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قاده البلاء، وقد بلغ الأمر منا ومنكم ما ترى، وما أبقت

(١) ثفنة البعير: ركبته.
(٢) قمص جمع قميص، ورحض الثوب: غسله.
(٣) النائب عن قريش في عقد الصلح مع المسلمين.
(٤) وكان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.
(٥) العقد الفريد ١: ٢١٢.

لنا هذه الحرب حياء ولا صبراً، ولسنا نقول: ليت الحرب عادت، ولكنا نقول: ليتها لم تكن كانت، فانظر فيما بقي بغير ما مضى، فانك رأس هذا الأمر بعد علي، وانما هو أمير مطاع، ومأمور مطيع، ومشاور مأمون، وأنت هو»[1].

٨ - مفاخرة بين عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عباس:

تزوج عبدالله بن الزبير أم عمرو بنت منظور بن زبان الفزارية فلما دخل بها قال لها تلك الليلة: أتدرين من معك في حجلتك[2]؟

قالت: نعم، عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن العزى. قال: ليس غير هذا؟ قالت: فما الذي تريد؟ قال: معك من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس. قالت: أما والله لو أن بعض بني عبد مناف حضرك، لقال لك خلاف قولك: فغضب وقال: الطعام والشراب عليَّ حرام حتى أحضرك الهاشميين وغيرهم من بني عبد مناف، فلا يستطيعون لذلك انكارا، قالت: ان أطعتني لم تفعل، وأنت أعلم وشأنك، فخرج الى المسجد فرأى حلقة فيها قوم من قريش، منهم: عبدالله ابن عباس، وعبدالله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال لهم ابن الزبير: أحب أن تنطلقوا معي إلى منزلي، فقام القوم بأجمعهم، حتى وقفوا على باب بيته، فقال ابن الزبير: يا هذه اطرحي عليك سترك، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فتغذى[3] القوم، فلما فرغوا قال لهم: إنما جمعتكم لحديث ردته عليَّ صاحبة الستر، وزعمت أنه لو كان بعض بني عبد مناف حضرني لما أقر لي بما قلت، وقد حضرتم جميعا، وأنت يا ابن عباس ما

---

(١) البيان والتبيين: ٢ : ١٥٨ .

(٢) الحجلة: كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس.

(٣) أكل أول النهار، والغذاء: الطعام الذي يؤكل أول النهار ضد العشاء، (وسمي السحور غذاء، لانه للصائم بمنزلة الغذاء للمفطر).

تقول؟ اني أخبرتها أن معها في خدرها من أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس، فردت علي مقالتي.

فقال ابن عباس: أراك قصدت قصدي، فان شئت أن أقول قلت، وان شئت أن أكف كففت قال: بل قل وما عسى أن تقول؟ ألست تعلم أن أبي الزبير حواري[1] رسول الله ﷺ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين[2]، وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين؟ وأن صفية عمة رسول الله ﷺ جدتي؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي؟ فهل تستطيع لهذا انكارا؟.

قال ابن عباس: لا، ولقد ذكرت شرفا شريفا، وفخرا فاخرا، غير أنك تفاخر من بفخره فخرت، وبفضله سموت، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك لم تذكر فخرا الا برسول الله ﷺ وآله، وأنا أولى بالفخر به منك. قال ابن الزبير: لو شئت لفخرت عليك بما كان قبل النبوة.. قال ابن عباس: قد أنصف القارة من رماها نشدتكم الله أيها الحاضرون أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب. قال: أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا بل هاشم. قال أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى؟ قالوا: عبد مناف. فقال ابن عباس:

تنافرني يا بن الزبير! وقد قضى عليك رسول الله لا قول هازل
ولو غيرنا يا بن الزبير فخرته ولكنما ساميت شمس الأصائل[3]

قضى لنا رسول الله - ﷺ - بالفضل في قوله:

---

(١) الحواري: الناصر أو ناصر الانبياء. قال عليه الصلاة والسلام: «الزبير بن العوام ابن عمتي، وحواري من أمتي».

(٢) كان لها نطاقان تلبس أحدهما، وتحمل في الآخر الزاد الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر - رضي الله عنه وهما في الغار كما في القاموس المحيط.

(٣) الأصائل: جمع أصيل، وهو العشي «ما بعد صلاة العصر الى الغروب».

«ما افترقت فرقتان الا كنت في خيرهما» فقد فارقناك من بعد قصي[1] ابن كلاب، أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ ان قلت نعم خصمت، وان قلت لا كفرت، فضحك بعض القوم، فقال ابن الزبير، أما والله لولا تحرمك[2] بطعامنا يا بن عباس لأعرقت[3] جبينك قبل أن تقوم من مجلسك. قال ابن عباس: ولم أباطل؟ فالباطل لا يغلب الحق، أم بحق؟ فالحق لا يخشى من الباطل.

فقالت المرأة من وراء الستر: اني والله لقد نبهته عن هذا المجلس فأبى الا ما ترون، فقال ابن عباس: مه أيتها المرأة، اقنعي ببعلك فما أعظم الخطر، وما أكرم الخبر، فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمي، فقالوا: انهض أيها الرجل فقد أفحمته غير مرة، فنهض وقال:

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا   فلو ترك القطا لغفا وناما[4]

فقال ابن الزبير: يا صاحب القطا أقبل علي، فماكنت لتدعني حتى أقول:

وآيم الله لقد عرف الأقوام أني سابق غير مسبوق، وابن حواري وصديق، متبجح[5] في الشرف الأنيق، خير من طليق[6] وابن طليق، فقال ابن عباس:

---

(١) كان من أولاده عبد العزى بن قصي (ومن سلالته ابن الزبير وعبد مناف بن قصي) (ومن سلالته بنو هاشم).

(٢) تحرم منه بحرمة: تمنع وتحمى بذمه.

(٣) أي لذكرت لك من المساوئ ما يعرق له جبينك ويندى خجلا.

(٤) غفا وأغفى: نام نومة خفيفة.

(٥) من تبجح به: اذا افتخر وتعظم، وأرجح أنه (متبحبح) من تبحبح: أي تمكن في المقام والحلول.

(٦) يعرض بأبيه العباس بن عبد المطلب، وكان خرج مع المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا.

رسغت بجرتك[1].

فلم تبق شيئا، هذا الكلام مردود، من أمرئ حسود، فان كنت سابقا فإلى من سبقت؟ وان كنت فاخرا فبمن فخرت، وان كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا، فالفخر لك علينا. وان كنت انما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك، والكثكث[2] في فمك ويديك وأما ما ذكرت من الطليق، فوالله لقد ابتلى فصبر، وأنعم عليه فشكر، وان كان والله لوفيا كريما، غيرناقض بيعة بعد توكيدها، ولا مسلم كتيبة بعد التأمر عليها[3].

فقال ابن الزبير: أتعير الزبير بالجبن؟، والله انك لتعلم منه خلاف ذلك.

قال ابن عباس: والله اني لا أعلم الا أنه فر وما كر، وحارب فما صبر، وبايع فما تمم، وقطع الرحم، وأنكر الفضل، ورام ما ليس له بأهل[4].

وأرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جري الكرام وبلدا
وما كان الا كالهجين أمامه عتاق فجاراه العتاق فأجهدا[5]

قال ابن الزبير: لم يبق يا بني هاشم غير المشاتمة والمضاربة فقال عبدالله بن الحصن بن الحرث: أقمناه عنك يا ابن الزبير وتأبى الا منازعته؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسغب[6] الظمآن، يفتح

---

(١) الجره بالضم والفتح: عصا تربط الى حباله، تغيب في التراب للظبي يصطاد بها وقد يكون الأصل «رصعت بجرتك» من رصعه بالرمح اذا طعنه طعنا شديدا غيب السنان كله فيه، أي طعنت بسهمك وارتدت اليك حجتك، ومعناه كالأول.

(٢) الكثكث: بفتح الكافين وكسرهما: التراب وفتات الحجارة.

(٣) يعرض بالزبير وقد بايع الامام ثم نكث بيعته وقاتله مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم.

(٤) أي رام الخلافة، وقد قال للامام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل: «لا ذلك لهذا الأمر أهلا ولا أولى به منا».

(٥) فرس هجين: إذا لم يكن عنيفا وفرس عتيق: أي كريم والجمع عتاق، وفي الاصل (عنان) بالنون، وهو تصحيف.

(٦) السَّغِب: الجائع؛ والسَّغَب: الجوع.

فاه يستزيد من الريح، فلا يشبع من سغب، ولا يروى من عطش، فقل ان شئت أو فدع وانصرف القوم.

روى الزبير بن بكار في كتاب (الموفقيات)[1] عن عمه، عن عيسى بن داود قال: قال ابن عباس ـ رحمه الله ـ لما بنى عثمان داره بالمدينة، أكثر الناس عليه في ذلك، فبلغه فخطبنا في يوم جمعة ثم صلى بنا، ثم عاد إلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد فان النعمة اذا حدثت حدث لها حُسّاد حسبها وأعداء قَدرها، وان الله لم يحدث لنا نعمًا ليحدث لها حساد عليها ومنافسون فيها، ولكنه قد كان من بناء منزلنا هذا ما كان إرادة جمع المال فيه وضم القاصية إليه، فأتانا عن أناس منكم أنهم يقولون: أخذ فيئنا وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا، يمشون خَمَرا، وينطقون سِرًّا كأنّا غيب عنهم، وكأنهم يهابون مواجهتنا معرفةً منهم بدحوض حجتهم، فإذا غابوا عنا يروح بعضهم إلى بعض يذكرنا. وقد وجدوا على ذلك أعوانا من نظرائهم ومؤازرين من شبهائهم، فبعدًا وبعدًا ورغمًا رغمًا!.

ثم أنشد بيتين كأنه يومئ فيهما إلى علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ:

توقد بنار أينما كنت واشتعل ... فلستَ ترى مما تعالج شافيا
تَشطُّ فيقضي الأمر دونك أهله ... وشيكًا ولا تدعى إذا كنت نائيا

ما لي ولفيئكم وأخذ ما لكم!.. ألستُ من أكثر قريش مالا، وأظهرهم من الله نعمة!.. ألم أكن على ذلك قبل الإسلام وبعده!.. الخ[2].

قال: ونزل فأتى منزله، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس فلما أخذوا مجالسهم، أقبل على ابن عباس فقال: ما لي ولكم يا ابن عباس!.. ما أغراكم بي، وأولعكم بتعقب أمري!..

---

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ص٦٠٧ ـ ٦١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ج٣ ص١٣١.

أتنقمون عليَّ أمر العامة؟!.. أتيت من وراء حقوقهم أم أمركم، فقد جعلتهم يتمنون منزلتكم!.. لا والله ولكن الحسد والبغي وتثوير الشر واحيـاء الفتن.. الخ..

فقال ابن عباس: على رسلك يا أمير المؤمنين، فوالله ما عهدتك جهراً بسرك، ولا مظهرا ما في نفسك، فما الذي هيَّجَك وفورك؟.. إنا لم يولعنا بك أمر، ولم نتعقب أمرك بشيء، أُتيب بالكذب وتسوق عليك بالباطل. والله ما نقمنا عليك لنا ولا للعامة، قد أوتيت من وراء حقوقنا وحقوقهم، وقضيت ما يلزمك لنا ولهم، فأما الحسد والبغي وتثوير الفتن وإحياء الشر فمتى رضيت به عِترة النبي وأهل بيته؟.. وكيف وهم منه وإليه، على دين الله يثورون الشر، أم على الله يحيون الفتن؟!..

كلا ليس البغي ولا الحسد من طباعهم.

فاتئد يا أمير المؤمنين وأبصر أمرك، وأمسك عليك فان حالتك الأولى خير من حالتك الأخرى. لعمري ان كنت لأثيرا عند رسول الله، وان كان ليفضي إليك بسره ما يطويه عن غيرك، ولا كذبت ولا أنت بمكذوب.

أخسَ الشيطان عنك لا يركبك، وأغلب غضبك ولا يغلبك، فما دعاك إلى هذا الأمر الذي كان منك؟.. قال: دعاني إليه ابن عمك علي بن أبي طالب. فقال ابن عباس: وعسى أن يكذبَ مبلّغك. قال عثمان: انه ثقة. قال ابن عباس: انه ليس بثقة من بلغ وأغرى. قال عثمان: يا ابن عباس الله انك ما تعلم من علي ما شكوتُ منه؟ قال: اللهم لا إلا أن يقول كما يقول الناس، وينقم كما ينقمون فمن اعتراك به وأولعك بذكره دونهم!..

فقال عثمان: انما أُتى من أعظم الداء الذي ينصب نفسه لرأس الأمر وهو علي ابن عمك، وهذا والله كله من نكده وشؤمه. قال ابن عباس: مهلا استثن يا أمير المؤمنين، قل: ان شاء الله. فقال: إن شاء الله. ثم قال: اني أنشدك يا ابن عباس الإسلام والرحم، فقد والله غُلبت وابتليت بكم، والله لو ردت ان هذا الأمر كان صار إليكم فحملتموه عنّي، وكنت أحد

أعوانكم عليه إذًا. والله لوجدتموني لكم خيرا مما وجدتكم لي، ولقد علمت أن الأمر لكم، ولكن قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم، فوالله ما أدري ادفعوه عنكم أم دفعوكم عنه؟!

قال ابن عباس: مهلا يا أمير المؤمنين، فانا ننشدك اللهَ والإسلامَ والرحم، مثل ما نشدتنا، أن تُطمع فينا وفيك عدوًا، وتشمت بنا وبك حسودًا. ان أمرك إليك ما كان قولاً، فإذا صار فعلاً فليس إليك ولا في يديك. وانا والله لنخالفن إن خولفنا، ولننازعن ان نوزعنا، وما تمنيك أن يكون الأمر صار إلينا دونك الا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس ويعيب كما عابوا!.. فأما صرف قومنا عنّا الأمر فعن حسدٍ قد والله عرفته، وبغي قد والله علمته.. فالله بيننا وبين قومنا!.. وأما قولك: انك لا تدري ادفعوه عنا أم دفعونا عنه؟.. فلعمري انك لتعرف انه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلا إلى فضلنا.. ولا قدرا الى قدرنا، وانا لأهل الفضل وأهل القدر، وما فضَل فاضل إلا بفضلنا، و لا سبق سابق إلا بسبقنا، ولولا هدينا ما اهتدى أحد ولا أبصروا من عمى ولا قصدوا من جور.

فقال عثمان: حتى متى يا ابن عباس يأتيني عنكم ما يأتيني؟.. هبوني كنت بعيدا أما كان لي من الحق عليكم أن أراقب وأن أناظر. بلى ورب الكعبة، لكن الفرقة سهّلَت لكم القول في وتقدمت بكم الى الإسراع إلي. والله المستعان.

٩ ـ بين ابن عباس وابن الزبير أيضا:

وذكر سعيد بن جبير أن عبدالله بن عباس، دخل على ابن الزبير فقال له ابن الزبير: أنت الذي تؤنبني وتبخّلُني؟ قال ابن عباس: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس المسلم الذي يشبع ويجوع جاره» فقال ابن الزبير: اني لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة، وجرى بينهم خطب طويل، فخرج ابن عباس من مكة خوفا على نفسه، فنزل الطائف،

فتوفي هنالك، ذكر هذا الخبر عمر بن شبة النميري، عن سويد بن سعيد يرفعه إلى سعيد بن جبير فيما حدثنا به المهراني بمصر، والكلابي بالبصرة، وغيرهما، عن عمر بن شبّة.

وحدثنا ابن عمار، عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي، قال: حدثني ابن عائشة والعتبي جميعا عن أبويهما، وألفاظُهما متقاربة، قالا: خطب ابن الزبير فقال: ما بال أقوام يُفْتون في المتعة، وينتقصون حواريّ الرسول وأم المؤمنين عائشة، ما بالهم أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم، يُعرِّض بابن عباس، فقال ابن عباس: يا غلام، احمدني حَمْدَة، فقال: يا بن الزبير:

قد أنصف القَارَةَ من راماها انا اذا ما فِئَة نلقاها[1]
تَردُّ أولاها على أُخراها

أما قولك في المتعة فسل أمك تخبرك، فان أول متعة سطع مجمرها لمجمر سطع بين أمك وأبيك، يريد متعة الحج، وأما قولك «أم المؤمنين» فبنا سميت أم المؤمنين، وبنا ضرب عليها الحجاب، وأما قولك «حُواريّ رسول الله ﷺ فقد لقيت أباك في الزَّحف وأنا مع إمام هُدى، فان يكن على ما أقول فقد كفر بقتالنا، وان يكن على ما تقول فقد كفر بهربه عنا، فانقطع ابن الزبير ودخل على أمه أسماء، فأخبرها، فقالت: صدق.

قال المسعودي: وفي هذا الخبر زيادات من ذكر البردة والعوسجة وقد أتينا على الخبر بتمامه وما قاله الناس في متعة النساء ومتعة الحج، وتنازعهم في ذلك وما ذكر عن النبي ﷺ من أنه حرمها عام خيبر (ولحوم الحمر الأهلية) وما ذكر في حديث الربيع بن مَسْبَرة عن أبيه وقول عمر «كانت في عهد رسول الله ﷺ ولو تقدمت بالنهي لفعلت بفاعل ذلك كذا وكذا» وما روي عن جابر قال: تمتعنا في عهد رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر، وصدر من خلافة عمر، وغير ذلك من أقاويلهم، في كتابنا المترجم بكتاب «الاستبصار» وفي

(١) انظر مروج الذهب ج٣ ص٨٩.

كتاب « الصفوة » وفي كتابنا المترجم بالكتاب « الواجب في الفروض اللوازم » وما قال الناس في غسل الرجلين ومسحهما والمسح على الخفين، وطلاق السنة، وطلاق البدعة، وطلاق التعدي، وغير ذلك.

وعن صفية بنت أبي عبيد، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما قدمنا مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع أمر مَنْ لم يكن معه هَدْي أن يحلّ، قال: فأحللت، فلبست ثيابي، وتطيبت، وجئت حتى جلست الى جنبِ الزبير، فقال: قومي عني، فقلت: ما تخاف؟ قال: أخاف أن أثِب عليك؟ فهذا الذي أراد ابن عباس.

وقد ذكر هذا الحديث عن أبي عاصم غَيْر النوفلي، وقد تنازع الناس في ذلك: فمنهم من رأى أنه تمنى متعة النساء، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج، لأن الزبير تزوج أسماء بكرا في الإسلام، زوجهُ أبو بكر معلنًا، فكيف تكون متعة النساء.

١٠ ـ بين ابن عباس ومعاوية

وحدث محمد بن جرير الطبري، عن محمد بن حُمَيد الرّازي، عن علي بن مجاهد، عن محمد بن اسحاق، عن الفضل بن عباس بن ربيعة قال: وفد عبدالله بن عباس على معاوية، قال: فوالله اني لفي المسجد اذكر معاوية في الخضراء فكبر أهل الخضراء ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء، فَخَرَجَتْ فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف من خوخة لها، فقالت: سَرَّك الله يا أمير المؤمنين! ما هذا الذي بلغك فسررت؟ قال: موت الحسن بن علي فقالت: انا لله وانا إليه راجعون ثم بَكَتْ وقالت: مات سيد المسلمين وابن بنت رسول الله ﷺ فقال معاوية: نعما والله ما فعلت[1] انه كان كذلك أهلا أن تبكي عليه، ثم بلغ الخبر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ،

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ج٣ ص٧ ـ ٨.

فراح فدخل على معاوية، قال: علمتُ يا ابن عباس أن الحسن توفي، قال: ألذلك كبرت؟ قال: نعم، قال: أما والله ما مَوْتَهُ يؤخِّر أجلك، ولا حُفْرَتَه بسَادةٍ حُفْرَتَكَ، ولئن أصبنا به قبله بسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين، ثم بعده بسيد الأوصياء فجبر الله تلك المصيبة، ورفع تلك العَثْرة، فقال ويحك يا ابن عباس! ما كلمتك قط الا وجدتك معدا.

١١ - بين ابن عباس وابن صومان

وعن زيد بن طليح الذهلي الشيباني، قال: أخبرني أبي عن مصقلة ابن هبيرة الشيباني قال: سمعت صعصعة بن صومان وقد سأله ابن عباس ما السؤدد فيكم؟ قال: إطعام الطعام، ولبس الكلام وبذل النّوال، وكف المرء نفسه عن السؤال، والتودد للصغير والكبير، وأن يكون الناس عندك شَرَعا، قال فما المروءة؟ قال: أخوان اجتمعا، فان لقيا قهرا حارسها قليل، وصاحبها جليل، يحتاجان إلى صيانة مع نزاعة وزيانة.

قال: فهل تحفظ في ذلك شعرا؟ قال: نعم، أما سمعت قول مرة بن ذُهْل ابن شيبان حيث يقول:

ان السيادة والمروءة عُلِّقا ... حيث السماء من السِّماك الأعزل
وإذا تقابل مجْرِيَانِ لغاية ... عثر الهجين وأسلمته الأرجل
ويَجي الصريح من العتاق معودا ... قرُب الجياد قلم يجئه الافعل

فقال له ابن عباس: لو أن رجلا ضرب آباط ابله مشرقا ومغربا لفائدة هذه الآيات ما عنفته، أنا منك يا ابن صومان لعلى علم وحكم واستنباط ما قد عفا من أخبار العرب، فمن الحيكم فيكم؟ قال: مَنْ ملك غضبه فلم يعجل، وسعى إليه بحق أو باطل فلم يقبل، ووجد قاتل أبيه وأخيه فصفح ولم يقتل، ذلك الحكيم يا ابن عباس، قال: فهل تجد ذلك فيكم كثيرا؟ قال: ولا قليلا، وانما وضعت لك أقواما لا تجدهم الا خاشعين راهبين لله مريدين ينيلون ولا ينالون، فأما الآخرون فانهم سبق جهلهم حلمهم، ولا يبالي

أحدهم اذا ظفر ببغيته حين الحفيظة ما كان بعد أن يدرك زعمه ويقضي بغيثه، ولو وتره أبوه لقتل أباه، أو أخوه لقتل أخاه، أما سمعت إلى قول زيان (ريان بن عمرو بن ريان) وذلك أن عمرا أباه قتله مالك بن كومة؛ فأقام زبان زمانا، ثم غزا مالكا، فأتاه في مائتي فارس صباحا وهو في أربعين بيتا فقتله، وقتل أصحابه وقتل عمه فيمن قتل، ويقال: بل كان أخاه، وذلك أنه كان جاورهم، فقيل لزبان في ذلك: قتلت صاحبنا، فقال:

فلو أمي تقفتُ بحيث كانوا ... لبلَّ ثيابها عَلَقٌ حبيب
ولو كانت أمية أخت عمرو ... بهذا الماء ظَلَّ لها نحيب
شهرت السيف في الأدْنيةِ مني ... ولم تعطف أواصِرَنا قلوب

فقال له ابن عباس: فمن الفارس فيكم؟ حُدَّ لي حدا أسمعه منك فانك تضع الأشياء مواضعها يا ابن صومان، قال: الفارس من قصر أجله في نفسه، وضغم على أمله بفرسه، وكانت الحرب أهون عليه من أمسه، ذلك الفارس اذا وقدت الحروب واشتدت بالأنفس الكروب وتداعوا للنزال، وتزاحفوا للقتال، وتخالسوا المنهج، واقتحموا بالسيوف اللجج، قال: أحسنت والله يا ابن صومان، انك لسليل أقوام كرام خطباء فصحاء، ما ورثت هذا عن كلالة، زدني قال: نعم الفارسُ كثير الحذر، مديد النظر، يلتفت بقلبه، ولا يدير خرزات صلبه قال: أحسنت والله يا ابن صومان الوَصْفَ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر؟ قال: نعم، لزهير بن جَنَاب الكلبي يرقي ابنه عمرا حيث يقول:[1]

فارس تكلأ الصحابة منه ... بحسام يمرُّ مَرَّ الحريق
لا تراه لَدَى الوغى في مجال ... يغفل الطرف، لا، ولا في مضيق
من يراه يَخَلْه في الحرب يومًا ... أنه أخرق وضل الطريق

فقال له ابن عباس: فأين أخواك منك يا ابن صومان؟

---

(١) أنظر مروج الذهب ج١ ص٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥.

صِفْهُمَا لأعرف وزنكم. قال: أما زيد فكما قال أخو غَنِّي:

فتى لا يبالي أن يكون بوجهه ... اذا سد خلاّتِ الكرام شُحوبُ
اذا ما تراآه الرجال تحفظوا ... فلم ينطقوا العوراء وهو قريب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ... إليه، ويدعوه الندى فيجيب
يبيت الندى يا أم عمرو ضَجيعَه ... اذا لم يكد في المنقيات حلوب
كأن بيوت الحي ما لم يكن بها ... بَسابِسُ ما يُلْفَى بهن غَرِيبُ

في أبيات، كان والله يا ابن عباس عظيم المروءة، شريف الأخوة، جليل الخطر، بعيد الأثر، كميش العروة، أليف البدوة، سليم جوانح الصدر، قليل وساوس الدهر، ذاكرا الله طرفَي النهار وزُلَفًا من الليل، الجوع والشبع عنده سيان، لا ينافس في الدنيا، وأقل أصحابه من يُنافِس فيها، يطيل السكوت، ويحفظ الكلام، وان نطق نطق بِعُقام، يهرب منه الدُّعّار الأشرار، ويألفه الأحرار الأخيار، فقال ابن عباس: ما ظنك برجل من أهل الجنة، رحم الله زيدا، فأين كان عبدالله منه؟ قال: كان عبدالله سيدا شجاعا، مألفا مطاعا، خيره وساع، وشره دفاع، قلبي النحيزة، أحوزي الغريزة، لا ينهنهه منهنهٌ عما أراده، ولا يركب من الأمر الا عتاده، سمام عدي، وبازل قرى، صعب المقَادَة، جَزْل الرفادة، أخو اخوان، وهو كما قال البرجمي عامر بن سنان:

سِمَامُ عدى، بالنبل يقتل من رمى ... وبالسيف والرمح الرُّدَيني مشغب
مهيب مفيد للنوال مَعَوَّدٌ ... بفعل الندى والمكرمات مجرب

فقال ابن عباس: أنت يا ابن صومان باقر علم العرب.

١٢ ـ خطبة عبدالله بن عباس في أهل البصرة

ولابن عباس ـ نماذج خطابية ـ اثناء توليه إمارة البصرة اشتملت على الوعد والوعيد، والترغيب في طاعة الله ورسوله وولي الأمر ما دام عاملا بكتاب الله وسنة رسوله.

ورأى الإمام علي كرم الله وجهه بعد فشل التحكيم أن يمضي لمناجزة معاوية وأهل الشام، فكتب إلى عبدالله بن عباس وكان أميرا على البصرة ـ أن يشخص[1] إليه من قبله من الناس. فأمرهم ابن عباس بالشخوص مع الأحنف بن قيس، فشخص معه منهم ألف وخمسمائة رجل، فاستقلهم ابن عباس، فقام خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا أهل البصرة: قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني باشخاصكم فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس، فلم يشخص إليه منكم الا ألف وخمسمائة، وأنتم في الديوان[2].

ستون ألفا، سوى أبنائكم وعُبدانكم[3] ومواليكم، الا فانفروا[4] ولا يَجْعَل امرؤ على نفسه سبيلا، فاني موقع بكل من وجدته تخلف عن دعوته، عاصيا لإمامه، حُزْنًا يُعقِبُ ندما، وقد أمرت أبا الأسود بِحَشْدِكِم، فلا يَلُمِ امرؤ جعل السبيل على نفسه الا نفسَهُ»[5].

البناء الفني للخطبة عند ابن عباس:

الخطبة عند ابن عباس يمكن تقسيمها الى ثلاثة عناصر أساسية هي: المقدمة ـ والموضوع ـ والخاتمة ـ وهذه هي العناصر التي اشترطها النقاد في بناء الخطبة حتى تكون عملا فنيا له قيمته، وخاضعا لمقاييس النقد الدقيقة.

فالمقدمة في خطب ابن عباس: عبارة عن افتتاحياتها التي تبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ثم الإشارة إلى موضوع الخطبة.

والموضوع هو التفصيل للغرض الذي من أجله كانت الخطبة، وابداء

---

(١) شخص كمنع شخوصا: خرج من موضع الى غيره، وأشخصته أنا.

(٢) الديوان: الكتاب الذي يكتب فيه أسماء الجيش واهل العطاء، فارسي معرب.

(٣) جمع عبد.

(٤) نفر الى الشيء: أسرع إليه.

(٥) الامامة والسياسة ١: ١٠٦، تاريخ الطبري ٦: ٤٤.

الرأي فيه، وشرح حقائقه وغاياته.

والخاتمة: بمثابة التلخيص لهذا الغرض، والخروج منه والانتهاء الى ما يريد الخطيب أن يقرره أو يأمر به أو يحمل الناس عليه.

وخطب ابن عباس تعتمد على عقل مجرب، وفهم واع وحكمة بليغة ومثل سائر وأسلوب مشرق موثق يحرص الرواة على روايته والاستمتاع بروعته وبلاغته.

وكان من البدهيات أن تزدهر الخطابة والمناظرات ابان الأحداث والمعارك السياسية، وقد توفر لها في العصر الإسلامي وصدر البعثة النبوية من دواعي التطور والنهضة، ما لم يتوفر لها في العصر الجاهلي.

وظهرت في ظل الإسلام أغراض خطابية جديدة ـ الخطابة الإعلامية ـ التي تظهر الحقيقة التاريخية، والفهم للأحداث التي جرت على مسرح الاضطرابات والفتن أثناء اللقاءات والحروب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ـ حيث كان المتناظرون يحثون فيها الذين خرجوا أو تشيعوا أو أغلق عليهم الفهم من أجل أن يعودوا الى جادة الحق وطريق الصواب.

ومن ذلك كلمة عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ حينما قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبني أمية، وتناول بني هاشم، وذكر مشاهده بصفين، واجتمعت قريش فأقبل عبدالله بن عباس على عمرو فقال:

يا عمرو انك بعت دينك من معاوية، وأعطيته ما بيدك، ومنّاك ما بيد غيره، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك، والذي أخذت منه دون الذي أعطيته، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى[1] فلما صارت مصر في يدك

(١) وذلك أن عمراً لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه، قال عمرو فاكتب لي مصر وكورها طعمة فكتب له، وقال عمرو في ذلك: =

كَدَّرها عليك بالعزل والتنغيص[1] حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها إليه، وذكرت يومك مع أبي موسى، فلا أراك فخرت الا بالغدر، ولا مَنَنْتَ إلا بالفجور والغش، وذكرت مشاهدك بصفين، فوالله ما ثقلت علينا يومئذٍ وطأتك، ولا نَكَتنا فيها حربك ولقد كشفت فيها عورتك، وان كنت فيها لطويل اللسان، قصير السنان، آخر الخيل اذا أقبلت، وأولها اذا أدبرت، لك يدان: يد لا تَبْسُطها الى خير، وأخرى لا تقبضها عن شر، ولسان غَرُور، ووجهان: وجه مُوحِش، ووجه مُؤنِس، ولعمري ان من باع دينه بدنيا غيره لَحَرِيّ أن يطول حزنه على ما باع واشترى، لك بيان وفيك خَطَل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد، وأعظم عيب فيك أعظم عيب في غيرك.

فأجابه عمرو بن العاص: والله ما في قريش أثقل علي مسألةً، ولا أمَرّ جوابا منك، ولو استطعت الا أجيبك لفعلت، غير أني لم أبع ديني من معاوية، ولكن بعث اللهُ نفسي، ولم أنسَ نصيبي من الدنيا، وأما ما أخذتُ من معاوية وأعطيته فانه لا تُعَلَّمُ العوانُ الخِمرَةَ[2] وأما ما أتى إلي معاوية في

= معـاوي، لا أعطيـك ديني ولم أنـل ... بـه منـك دينـا فـانظـرن كيـف تصنـعُ
فـإن تعطني مصرًا فـأربـح صفقـة ... أخـذت بها شيخـا يضرّ وينفـع

ثم انه بعثه سنة ٣٨ في جيش لغزو مصر، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام فهزمه وقتله، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميراً.

(١) روى ابن سعد في كتابه الطبقات الكبيرة (ج ٤ ص) قال: لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ما عاش، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتدبيره وعنائه وسعيه فيه، وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر فلم يفعل معاوية، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا، وتميز الناس، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما، فدخل بينهما معاوية بن خديج وأصلح أمرهما وكتب بينهما كتابا وشرط فيه شروطا لمعاوية، وعمرو خاصة، وللناس عليه، وأن لعمرو ولاية مصر سبع سنين وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين، فما مكث بها الا سنتين أو ثلاثا حتى مات.

(٢) في المثل «ان العوان لا تعلم الخِمرة» والعوان من النساء التي كان لها زوج والخمرة اسم من الاختمار، واختمرت المرأة، لبست الخمار بكسر الخاء (الطرحة) يضرب للرجل المجرب.

مصر فان ذلك لم يغيّرني له، وأما خفة وطأتي عليكم بصِفّين، فلما استثقلتم حياتي واستبطأتم وفاتي، وأما الجبن فقد علمت قريش أني أول من يبارز، وآخر من ينازل. وأما طول لساني، فاني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان... - رضي الله عنه -:

لساني طويل فاحترس من شَذَاتِه ... عليك، وسيفي من لساني أطول[1]

وأما وجهاي، ولساناي، فاني ألقى كلَّ ذي قدر بقدره، وأرمي كُلَّ نابح بحجره، فمن عرف قدره كفاني نفسه، ومن جَهِل قدره كفيته نفسي، ولعمري ما لأحدٍ من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية، فما ينفعني ذلك عندك، وأنشأ عمرو يقول:

بني هاشم ما لي أراكم كأنكم ... بِيَ اليومَ جُهّالٌ؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أني جَسُور على الوَغَى ... سريعٌ الى الداعي اذا كَثُر القتل
وأول مَنْ يدعو (نَزال) طبيعةٌ ... جُبلتُ عليها، والطِّباع هو الجَهْلُ[2]
وأني فصَلتُ الأمر بعد اشتباهه ... بدُومة اذا أعيا عَلَى الحَكَم الفصلُ[3]
واني لا أعيا بأمرٍ أريده ... وأني اذا عَجَّت بكارُكُم فَحْلُ[4]

ويتضح من عرض هذا اللون الأدبي من المناظرات والمحاورات مع الخوارج وابن الزبير أنه من الذين لا يضاهون ولا يجارون وقالوا: خطبنا بمكة - وعثمان - رضي الله تعالى عنه - محاصرا، خطبة لو شهدتها الترك والديلم لأسلمتا، فقد حرص ابن عباس منذ نشأته على غشيان المجالس الأدبية التي لم

---

(١) الشذاة: الحدة، والشدا والشذا بالدال والذال: حد كل شيء.

(٢) أي نازلوني أيها الاقران، والطباع: الطبيعة والسجية جُبل عليها الانسان والجهل: مصدر جهل.

(٣) هي دومة الجندل التي اجتمع فيها الحكمان عمرو وأبو موسى.

(٤) البكار: جمع بكرة (بالفتح) وهي الناقة الفتية، وعجت: أي صاحت ورفعت صوتها. العقد الفريد ٢: ١١٢، وشرح ابن أبي الحديد ١: ١٩٦، والبيان والتبيين ٢: ١٥٩.

تخل من المسامرة وانشاد الشعر، ومطارحة الأدب وتذوقه والوقوف على أسرار العربية كما كان ابن العباس ـ وهو صغير ـ واحدا من الذين لا ينقطعون عن مجالس رسول الله ﷺ وكان يرتاد تلك (الرحبة) التي أقامها الفاروق عمر في ناحية من المسجد النبوي سميت بالبطحاء كان يرتادها محبو الشعر والنقد وطلابه[1] وقد كانت تلك المجالس يقصدها عمر الفاروق أثناء حله وترحاله في حضره وسفره في مسجد الرسول أو دار عمر. وقد كان يشهدها ابن عباس ووالده العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنهما ـ وأبو سفيان وولده، وعبدالله بن مسعود وأشياخ بدر ـ رضي الله عنهم ـ[2].

وممن كان يحضرها الحر بن قيس بن حصن بن حذيفة الفزاري[3] وكعب الأحبار وعمرو بن معد يكرب الزَّبيدي وغيرهم.

وفي هذه المجالس كان عمر على رأس القوم، يقرأون القرآن ويتدارسون تفسيره[4] ويذكرون من حديث رسول الله ﷺ ويجتهدون في تأويله[5] ثم تتشعب فنون القول، ومطارح الكلام فيذكر فيها من أمر الجاهلية[6] وانشاد الشعر، وكان هذا الجو يفيض بألوان زاهية من القطوف الدانية والنصوص البليغة والمحاورات الرفيعة كل ذلك وعاه صاحب القلب العقول، واللسان السؤول ولذلك تسمع لونا جديدا في المحاورة في مجلس مروان بن الحكم بين ابن الزبير وابن عباس الذي كان كما يقول فيه شاعر الإسلام حسان بن ثابت:

اذا قال لم يترك مقالاً لقائل   بمُلتقطاتٍ لا تَرى بَيْنَها فَصْلا

(١) انظر موطأ مالك ١: ١٨٨.
(٢) أنظر أسد الغابة لابن الأثير ٣/٣٨٩.
(٣) أسد الغابة لابن الأثير ج١ ص٤٧١.
(٤) مجالس ثعلب ج١ ص١١٣.
(٥) موطأ مالك ج١ ص٢٥٠.
(٦) مسند أحمد ج١ ص١٩٠.

وكما قال فيه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ اني أعرف فيك مشابهة في أبيك في رأيه وعقله، وكما قيل أنه لم يكن لقرشي مثل رأي العباس.

وكان يوضع الى جانب سرير مَرْوان بن الحكم ـ وهو يومئذٍ أمير المدينة المنورة ـ سرير آخر أصغر من سريره فيجلس عليه عبدالله بن عباس اذا دخل، وتُوضَع الوسائد فيما سوى ذلك، فاذن مروان يوما للناس، واذا سريرٌ آخر قد أُحدِث تجاه[1] سرير مروان، فأقبل ابن عباس فجلس على سريره، وجاء عبدالله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث، وسكت مروان والقوم، فإذا يد ابن الزبير تتحرك فعلم أنه يريد أن ينطق، ثم نطق فقال:

«ان ناسا يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطًا وفَلْتَةً ومُغالَبَةً ألا إن شأن أبي بكر أعظمُ من أن يقال فيه هذا! ويزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم، والله ما كان من أصحاب محمدٍ ﷺ أحدٌ أثبت إيمانًا، ولا أعظم سابقةً من أبي بكر فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله، فأين هم حين عقَد أبو بكر لعمر فلم يكن إلاّ ما قال، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ، وَجَدَّهم في جدود، فقسمت تلك الحظوظ فَأخَّر الله سهمهم، وأدحض جَدَّهم، ووَلِي الأمر عليهم من كان أحق به[2] منهم: فخرجوا عليه خروج اللصوص على التاجر خارجًا من القرية، فأصابوا منه غِرَّة[3] فقتلوه، ثم قتلهم الله به كل قتلة، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب».

---

(١) تجاهه ووجاهه: تلقاء وجهه.

(٢) يشير إلى اختيار عمر ـ رضي الله عنه ـ أصحاب الشورى الستة، وفيهم الامام علي ـ كرم الله وجهه.

(٣) غفلة.

مقال ابن عباس:

فقال ابن عباس: «على رِسْلَك[1] أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئا، الا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا، وما أنكرنا تقدم من تَقَدَّم لِعَيْب عبناه عليه، ولو تَقَدَّم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل، ولولا أنك انما تذكر حظ غيرك، وشرف امرئ سواك لكلمتك ولكن ما أنت ولا حظ لك فيه؟.

اقتصر على حظك، ودع تَيما لِتَيْم، وعَدِيًّا لعدي[2] وأمية لأمية ولو كلمني تَيْمي أو عَدَوي أو أموي، لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر، لا خَبَر غائب عن غائب، ولكن ما أنت وما ليس عليك فان يكن في أسد بن عبد العُزَّى شيء فهو لك، أما والله لنحن أقرب بك عهدا، وأبيض بك يدا، وأوفر عندك نعمة، ممن أمسيتَ تظن أنك تصول به علينا، وما أخلقَ ثوبٌ صفيةَ بعدُ، «والله المستعان على ما تصفون»[3].

فقال عبدالله بن عباس يرد على ابن الزبير.. وقد عاب بني هاشم! (لَمَّا كاشف عبدالله بن الزبير بني هاشم، وأظهر بغضهم وعابهم وهَمَّ بما هَمَّ به في أمرهم، ولم يذكر رسول الله ﷺ في خطبه، لا يوم الجمعة ولا غيرها، عاتبه على ذلك قوم من خاصته، وتشاءموا بذلك منه، وخافوا عاقبته، **فقال:** «والله ما تركت ذلك علانية الا وأنا أقوله سِرًّا وأكثر منه، لكني رأيت بني هاشم اذا سمعوا ذكرَه، إشْرَأَبّوا[4] واحمرَّت ألوانهم، وطالت رقابهم، والله ما كنت لآتِي لهم سرورًا وأنا أقدر عليهم، والله لقد هَمَمْت أن أحظُر لهم حَظيرةً، ثم أضرِمَها عليهم نارا، فاني لا أقتل منهم الا آثما كِفّارا سحّارًا، لا أنماهم الله، ولا بارك عليهم! بيتُ سوء لا أوّلَ لهم ولا آخِر والله ما ترك نبي

---

(١) الرسل: الرفق والتؤدة.

(٢) تيم: رهط أبي بكر الصديق، وعدي: رهط عمر الفاروق.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤٩٠.

(٤) اشرأب اليه: مد عنقه لينظر أو ارتفع.

الله فيهم خيرا، استفرغ[١] نبيُّ الله صدقَهم، فهم أكذب الناس، فقام إليه محمد ابن سعد بـن أبي وقاص فقال، «وفقك الله يا أمير المؤمنين! أنا أول من أعانك في أمرهم» فقام عبدالله بن صفوان بن أمية الجُمَحِي فقال: والله ما قلت صوابا، ولا هممت برشد، أرهط رسول الله ﷺ تعيب، واياهم تقتل والعرب حولك؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسلمين، ما سوغه الله لك، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره، فقال:

اجلس أبا صفوان فلست بناموس[٢] فبلغ الخبر عبدالله بن عباس، فخرج مغضبا ومعه ابنه، حتى أتى المسجد، فقصد المنبر.

فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسول الله ﷺ وآله، ثم قال: «أيها الناس: ان ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله ﷺ وآله ولا آخر! فيا عجبا كل العجب، لافترائه وتكذبه! والله أن أول من أخذ الإيلاف[٣].

---

(١) في الاصل «استفزع» وهو تحريف يقال: استفرغ فلان مجهوده إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئا، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم منه شيء، فهم أكذب الناس (كذا!).

(٢) الناموس: الحاذق، وهو أيضا صاحب السر المطلع على باطن أمرك.

(٣) روى أبو علي القالي في أماليه قال: «كانت قريش تجارا، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، انما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم، ثم يتبايعونها بينهم ويبيعونها على من حولهم من العرب، فكانوا كذلك، حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام، فنزل بقيصر، فكان يذبح كل يوم شاة، ويضع جفنة ثريد، ويجمع من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم فذكر ذلك لقيصر، فقيل له: ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق، ويفرغ عليه اللحم - وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز - فدعا به قيصر، فلما رآه وكلمه أعجب به، فكان يبعث اليه كل يوم، فيدخل عليه ويحادثه، فلما رأى نفسه تمكن عنده، قال له: «أيها الملك ان قومي تجار العرب، فان رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فيبتاع عندكم فهو أرخص عليكم».
فكتب له كتاب أمان عن يَقْدَم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مر بحيّ من العرب بطريق الشام أخذ من اشرافهم ايلافا والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حِلْف، انما هو أمان الطريق - وعلى أن قريشا تحمل اليهم بضائع، فيكفونها حَمْلانها، =

وحمى عيرات[1] قريش لهاشم، وان أول من سقى بمكة عَذبًا وجعل بابا الكعبة ذهبا، لعبد المطلب[2]، والله لقد نشأت ناشئتنا مع ناشئة قريش، وان كنّا لقالَتَهُم[3] إذا قالوا، وخطباءهم اذا خَطَبوا، وما عُدَّ مجدٌ كمجد أوّلنا، ولا كان في قريش مجدٌ لغيرنا، لأنها في كفر ماحِقٍ، ودين فاسقٍ، وَضِلة وضلالة[4] في عَشْواءَ[5] عَمْيَاء، حتى اختار الله تعالى لها نورا، وبعث لها سراجا فانْتَجَبَه[6] طيِّبا من طيبين، لا يُسَبُّ بَمسَبَّة ولا يُبْغَى عليه غائلةٌ، فكان أحدَنا وولدَنا وابن عمنا، ثم إنَّ أسبق السابقين إليه، منّا وابنُ عمنا[7]،

= ويؤدون اليهم رءوس أموالهم وربحهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف وبين أهل الشام حتى قدم مكة «فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج معه يجوِّزهم، ويوفيهم إيلافَهَمُ الذي أخذ لهم من العرب، حتى أوردهم الشام، وأحلهم قراها، ومات في ذلك السفر بِغَزّة، وخرج المطلب بن عبد مناف الى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهدا لِمَنْ نُجِر اليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف وكان يسمى الفَيْض، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش مِنَّه في الجاهلية والإسلام» (ذيل الأمالي ص ٢٠٤).

(١) العير بالكسر الابل تحمل الميرة: بلا واحد من لفظها، أو كل ما امتير عليه ابلا كانت أو حميرا أو بغالا وجمعه كعينات ويسكن.

(٢) قال الطبري: «وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بئر اسماعيل بن ابراهيم، واستخرج ما كان فيها مدفونا، وذلك غزالان من ذهب كان جُرْهم دفنتها فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعة» ومرج القلعة محركة: موضع بالبادية اليه تنسب السيوف والأدراع، فجعل الاسياف بابا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين صفائح من ذهب، فكان أول ذهب حليته فيما قيل الكعبة «تارخ الطبري ٢: ١٧٩».

(٣) القالة جمع قائل.

(٤) الضلة والضلالة: ضد الهدى.

(٥) أي في جهالة وفتنة عشواء من العشي (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار وقبل ذهاب البصر. عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهي عشواء (والعشواء أيضا الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخبط بيدها كل شيء، لانها ترفع رأسها فلا تتعهد مواقع اخفافها).

(٦) انتجبه: اختاره.

(٧) يعني الامام علي كرم الله وجهه.

ثم تلاه في السَّبق أهلُنا ولُحْمَتُنا[1] واحدًا بعد واحد، ثم ان لخير الناس بعده أكرمهم أدبا، وأشرفهم حبا، وأقربهم منه رَحِمًا».

واعجبًا كل العجب لابن الزبير! يعيب بني هاشم، وانما شَرُف هو وأبوه وجَدُّه بمصاهرتهم، أما والله انه لمصلوب قريش ومتى كان العوّام بن خُوَيلد يطمع في صفية بنت عبد المطلب؟ قيل للبغل: من أبوك يا بغل؟ فقال: خالي الفرس ثم نزل.

خطبة ابن الزبير ينتقص ابن عباس

خطب ابن الزبير بمكة على المنبر، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر، فقال:

«ان ها هنا رجلا قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصرَه، يزعم ان مُتْعَةَ النساء حلال من الله ورسوله، ويفتي في القملة والنملة، وقد احتمل بيت مال البصرة[2] بالأمس، وترك المسلمين بها يرتضخون النوى، وكيف ألومُه في

---

(١) اللحمة: القرابة.

(٢) ذكر بعض من المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس الى عمر، وكان يقدمه على اكابر الصحابة ولم يستعمله قط، فقال له يوما: كدت استعملك، ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل، فلما صار الأمر للامام علي استعمله على البصرة، فاستحل الفيء على تأويل قوله تعالى: ﴿واعلموا انما غنمتم من شيء، فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ (سورة الأنفال، آية ٤١) واستحله لقرابته من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا: ومر ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال: لو كنت من البهائم لكنت جملا، ولو كنت راعيا ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهنته في المشي، فكتب أبو الأسود الى علي كتابا يقول فيه: «ان ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك، فلم يسعني كتمانك ذلك فانظر رحمك الله فيما هنالك» فكتب علي إلى ابن عباس «ان ارفع إلي حسابك» فرد عليه ابن عباس: «ان كل الذي بلغك باطل» فكتب اليه علي: «انه لا يسعني تركك، حتى تعلمني ما أخذت من الجزية، من أين أخذته، وما وضعت منها أين وضعته» فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب اليه «ابعث الى عملك من أحببت، فاني ظاعن عنه» ورحل عن البصرة وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة، وتبودلت الكتب بين =

ذلك: وقد قاتل أُمَّ المؤمنين وحواريَّ رسول الله ﷺ وَمَنْ وَقَاه بيده[1].

رد ابن عباس عليه:

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جُبير مولى بني أسد بن خُزيمة - وكان ابن عباس قد كُفَّ بصره - استقبِل بي وَجْهَ ابن الزبير وارفع من صدري، فاستقبل به قائِدُه وجه ابن الزبير وأقام قامته، فَحَسَرَ عن ذراعيه، ثم قال: «يا بن الزبير:

قد أنصف القَارَةَ من رَامَاها | إنَّا إذا ما فئةٌ نَلْقَاهَا
نردُّ أولاها على أُخراها | حتَّى نصيرَ حَرِضًا دَعْوَاها[2]

يا بن الزبير: أما العمى، فان الله تعالى يقول: ﴿فانها لا تَعمَى الأبصارُ ولكن تَعمَى القلوبُ التي في الصدور﴾[3] وأما فُتياي في القملة والنملة، فان فيها حُكْمَيْن لا تعلمها أنت ولا أصحابك - وأما حَمْلِي المالَ، فانه كان مالاً جَبَيْنَاه، فأعطينا كُلَّ ذي حق حقه، وبقيت بقيةٌ هي دون حقنا في كتاب الله، فأخذناه بحقنا، وأما المُتْعَةَ فَسَلْ أمك أسماء اذ نزلت عن بُرْدَيْ عَوْسَجَةٍ، وأما قتالنا أم المؤمنين، فبنا سميت أُمُّ المؤمنين، لا بك ولا بأبيك،

علي وبينه ثانية، وكانت خاتمتها ان كتب اليه ابن عباس: «والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنّه الى معاوية يقاتلك به» فكف عنه علي. (انظر العقد الفريد - ٢: ص٢٤٢ وتاريخ الطبري ٦: ٨١، ونهج البلاغة ج٢ ص٤٦).

وذكر بعض المؤرخين: ان ابن عباس ما فارق عليا ولابته ولم يزل أميرا على البصرة الى ان قتل علي وبعد مقتل علي حتى صالح الحسن بن علي معاوية، ثم خرج حينئذ الى مكة. انظر شرح ابن أبي الحديد ج١٦ ص٦٤. والامالي للسيد المرتضى ج١ ص٢٣.

(١) كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحامى عنه في وقعة أحد، وقد انهزم المسلمون، ووقاه بيده من سيوف المشركين، وقد رمي بسهم في يده فيبست، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ «اليوم أوجب طلحة الجنة».

(٢) الحرض: الفساد في المذهب والعقل والبدن.

(٣) سورة الحج، آية ٤٦.

فانطلق أبوك وخالك[1] الى حجاب مَدَّهُ الله عليها، فهتكاه عنها، ثم اتخذاها عنها، ثم اتخذاها فتنةً يقاتلان دونها، وصانا حلائلهما في بيوتهما، فما أنصفا الله ولا محمدا من أنفسهما أنْ أبْرزا زوجة نبيه وصانا حلائلهما، وأما قتالنا إياكم، فانا لقيناكم زَحْفًا فان كنا كفارا فقد كفرتم بفراركم منا، وان كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم ايانا، وايم الله لولا مكان صفية فيكم، ومكان خديجة فينا، لما تركتُ لبنى أسد بن عبد العُزىّ عظما الا كَسَرته».

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألها عن بُرْدَيْ عوْسَجَة، فقالت: ألم أنهك عن ابن عباس، وعن بني هاشم؟ فانهم كُعمُ[2] الجواب اذا بُدِهوا[3] «فقال: بَلَى وعصيتُكِ، فقالت: يا بُني احذر هذا الأعمى الذي ما أطاقته الإنس والجن، واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيَها، فاياك واياه آخِرَ الدهر».

ورواية صاحب العقد: «أن ابن عباس قال لعكرمة! أقم وجهي نحوه يا عكرمة، ثم قال:

ان يأخذ الله من عينيّ نورهما ففي فؤادي وعقلي منهما نور وأمّا قولك يا ابن الزبير: إني قاتلت أم المؤمنين، فأنت أخرجتها وابوك وخالك، وبنا سميت أم المؤمنين، فكنا لها خيرَ بنين، فتجاوز الله عنها، وقاتلت أنت وأبوك عليًا، فان كان عليّ مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين، وان كان كافرا فقد بُؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف.

وأما المتعة فاني سمعت علي بن أبي طالب يقول:

---

(١) يعني طلحة وهو ابن عم جده أبي بكر الصديق، فهو طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عبيدالله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي الخ وانما جعل خاله باعتبار القرابة النسوية.

(٢) كعم البعير كمنع: رُبط شدقاه لئلا بعض أو يأكل، والكعام ككتاب: ما يجعل على فمه، والجمع كعم ككتب. والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخرسة تلجم أفواه منظريهم.

(٣) بدهه بأمر كمنعه: استقبله به أو بدأه به.

سمعت رسول الله ﷺ رَخَّصَ فيها فأفتيت بها، ثم سمعته ينهي عنها فنهيت عنها[١].

وأول مِجْمَر[٢] سطع في المُتْعة مِجْمَر آل الزبير[٣]».

---

(١) جاء في المصباح المنير «المتعة اسم التمتع ومنه مِتعة الحج، ومتعة النكاح، ومتعة الطلاق، ونكاح المتعة هو المؤقت في العقد، وقال في العباب: كان الرجل يشارط المرأة شرطا على شيء الى أجل معلوم، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها، ثم يخلي سبيلها من غير تزويج ولا طلاق، وقيل في قوله تعالى: ﴿فما استَمْتَعْتُم به منهن فآتُوهُنَّ أجُورَهنَّ﴾ (سورة النساء، آية ٢٤). المراد نكاح المتعة، والجمهور على تحريم نكاح المتعة، وقالوا معنى قوله «فما استمتعتم» فما نكحتم على الشريطة التي في قوله تعالى: ﴿ان تبتغوا بأموالكم مُحصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحين﴾ (سورة النساء، آية ٢٤) أي عاقدين النكاح، واستمتعت بكذا ـ وتمتعت: انتفعت، ومنه تمتع بالعمرة الى الحج! اذا أحرم بالعمرة في أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فانه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه، فمن ثم يسمى متمتعا».

(٢) المجمر: العود واستجمر بالمجمر: تبخر بالعود.

(٣) قال المسعودي في مروج الذهب: وقد تنازع الناس في ذلك فمنهم من رأى أنه عن متعة النساء، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج، لأن الزبير تزوج أسماء بكرا في الاسلام زوّجه أبو بكر معلناً، فكيف تكون متعة النساء؟.

الفصل الرابع
رسائل ابن عباس

تمهيد:

تناقش العرب أيام الجاهلية في نظم القصيد والرجز وفي الخطب المنشورة، ورويت عنهم أمثال وأحاديث، وكان ما يفيض من قرائح شعرائها وخطبائها في المفاخرات والمنافرات والمهاترات مما يؤثر ويروى ويتداوله الناس ويحفظونه ويتمثلون به.

وما كان لكل عربي أن ينفتق لسانه بقول الجيد من الشعر أو النثر، فقد يأتي الجيل والجيلان، والقبيلة العظيمة لا يظهر فيها شاعر او خطيب يُعْلي صوتها وصيتها، ويعدِّد من عام الى عام مآثرها ويرفع بما يقوله الضَّيْم عن أهلها، ويرهب بسلطان بلاغته عدوَّها، وكان الشاعر عندهم يُفَضَّل على الخطيب، فلما اتخذ الشعراء شعرهم آلة للتكسب، ابتذلوه في المديح والهجاء، علت منزلة الخطيب على منزلة الشاعر.

ولقد حفظ من الشعر بعضه لطربهم به، وعجبهم بالسامي منه، ولأنه دوّن مفاخرهم، وخلد تاريخهم، وبار النثر على وفرته الا صفحات قليلة لو أنعمنا النظر في بعضها، لما احجمنا عن القول بأنها واهية الإسناد، ظاهرة التصنيع، ومنها أمثلة في أمهات كتب الأدب لا تروقك ولا تشوقك، والغالب أن ما

عُزي لعهد الجاهلية من المنثور.. كان مما أخذ بالمعنى[1].

يقول.. الرقاشي: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره. وقال أبو عمرو بن العلاء ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا اقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير.

ضاع تراث الجاهلية في النثر لفقدان التدوين، ولغلبة الأمية على العرب، وما رواه الرواة كان من محفوظ الرجال، والحفظ عرضة للنقص والزيادة. وجاء الإسلام وليس في قريش غيرُ سبعة عشر رجلا وبضع نساء يكتبون ويقرأون، وقريش سادة العرب وأكثرهم ذكاء وتقدمًا، وأرفعهم حضارة وامتزاجا بالشعوب المجاورة، أما معظم بلاد العرب فلم يعرف فيها من يكتب!..

شاعت الكتابة في «الحيرة» أكثر من غيرها من البلاد المتاخمة لجزيرة العرب.

ويعلل «المرزباني» ذلك بأن أهل القرى ألطف نظرا من أهل البداوة، وانهم كانوا يكتبون لمجاورتهم أهل الكتاب، فأخذت قريش الكتابة عن إياد في الحيرة، ولما كان أهل القرى أكثر استعدادا للحضارة ظهر الأنبياء فيهم، وما جاء رسول من أهل الوبر، كتب عدة كتاب من أهل الحيرة في ديوان الأكاسرة، ومنهم عديٌّ بن زيد وزيد بن عدي ولقيط بن يعمر الأيادي، وكان أكثم بن صيفي حكيم العرب يكاتب الملوك، ولأبناء جفنة في البلقاء كتاب يكتبون عنهم في خاص أمورهم وعامهم، وكان المرقِّش كاتب الحرث ابن شمر الغساني، وبذلك تبين أن الأياديين سبقوا الى الكتابة، وما جاء خبر مؤكد عن الغسانيين الذين جاوروا الروم في جنوب الشام وتصرفوا لهم وأنهم

---

(١) أمراء البيان ـ محمد كرد علي ص٢.

كانوا يعرفون الكتابة وأما قريش فلم يرتفع شأنها في الكتابة إلا في الإسلام، ولا يعلم اذا كانت تراسل الملوك، اذ لم يكن لها نظام دولة ثابت، وكانوا اذا رأوا كتبا كتبها أهل الكتاب استعظموها، وعثروا في الاسلام على رسالة بخط عبد المطلب بن هاشم في قطعة أدَم وذلك في اثبات حق له على رجل من العرب.

واذا كانت الخطب والرسائل في ذلك العهد قاصرة الأغراض، وصادرة عن اناس على الفطرة، ليس لهم من المدنية مادة تدعوهم إلى الفلسفة والتوسع في الفكر، تجردت كتابتهم من كل صنعة وفن، حتى ليقول الجاحظ: انه لم يجد في خطب السلف الصالح، والأعراب الأقحاح ألفاظا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعا رديئا، ولا قولا مستكرها، وأكثر ما وجد من ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين، سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتائج التخير والتفكير.

ولا شك أن اسلوب الجاهليين في الكلام المنثور لا يختلف عن الأسلوب المتبع في الرسائل والخطب أول الإسلام، لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ خاطب قومه بالطريقة التي يفهمونها، وتقع من نفوسهم الموقع الحسن، وما قدّرت العرب بلاغته حق قدرها الا أن بلاغتهم ضرب من بلاغته، والبليغ يدرك من هو أبلغ منه وفي كتب النبي إلى عماله، والى رؤساء القبائل، والى الأمراء والملوك، ومنها ما أملاه بنفسه أو كتبه له كتابه فأقرهم عليه، مثال من بلاغة الأقدمين من العرب، وقد رأيناه ﷺ ينكر على من يسجعون الكلام، وينهى عن السجع على نحو سجع الكهان وكانوا يسجعون للاغراب والتأثير والزينة.

كان الرسول الكريم يتوخى اذا كتب لغير العرب، أن يوجز القول، ويقل من اللفظ الذي لا يتفهمه كل إنسان، حتى يسهل نقل كلامه الى ألسن من

كتب إليهم من عير العرب، كما كان اذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظا مألوفة لهم لا يعرفها القرشيون، ذلك لأن مقصده الافهام، والبليغ من الكلام ما فُهم وأبقى في النفس أثرا.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن هذا الدين الجديد قد هذب طباع العرب، وكان له اثر كبير في النهوض بأدبهم ولغتهم، ورفعها رفعا جديدا للتعبير عن أغراضه الجديدة ومراميه النبيلة، وأهدافه السامية.

وذلك بتأثير ـ الوحي القرآني ـ والأحاديث النبوية الشريفة اللذين أثرا في الناس روحا وجوهرا وأسلوبا وتعبيرا وتصويرا وبهما انتقلت لغة العرب من حال إلى حال، وتبدلت مقاييس الكلام، وأصول البيان من مظهر إلى مظهر، حيث أخذت ثوبا جميلا نفذت به إلى حنايا القلوب والأسماع، واستطاعت أن تمازج الأفئدة فتؤثر فيها تأثيرا أصيلا.

وذلك بما أفاض عليها «كتاب ربّنا» من ألفاظ جديدة، وأساليب متنوعة، وأنماط من الصور، وطرائق من التعابير مختلفة، وحسن الانتقال من غرض الى غرض، ومن معنى إلى معنى آخر، في سهولة ويسر، وقناعة وبلاغة، وفهم للروح الإنساني مع التزاوج بين العقل والمنطق، والبصر والبصيرة، والحضارة والبداوة، وغير ذلك من آثار نفسية أحدثها «القرآن الكريم» في لغة العرب.

وأثر فيها حديث رسول الله ﷺ وأدبه وبلاغته وقوة بيانه، وقدرته على اختراع الصور البيانية، والتعابير العالية التي لم يكن للعرب بها سابقة من قبل تأثيرا كبيرا.

ولقد كانت بلاغة الرسول ﷺ مضرب المثل، ومناط إعجاب الناس قديما وحديثا، كما كانت مقدرته على التعبير والتصوير والتأثير والاقناع موضع إعجاب وتقديس كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقد روي عن

رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، ونشأت في سعد بن بكر».

ومن ذلك ما روي عن الإمام علي - كرم الله وجهه - من أنه قال: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه، فمن أدبك؟.

فقال المصطفى ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقال له أبو بكر - رضي الله عنه - «لقد طفت في العرب وسمعت فصائحهم، فما سمعت الذي هو أفصح منك» فمن أدبك؟

ابن عباس وبلاغة الكتاب

كان محمد بن عبدالله ﷺ يعتز بهذه المنة، التي أولاه الله اياها، ويفخر بهذا العطاء الرباني، وبما منح من صفاء القريحة، ونقاء الفطرة، وبلاغة المنطق، وفصاحة القول.

واذا كان العرب قد اشتهروا بأنهم قادة البلاغة، وأمراء البيان، وأئمة الفصاحة، تنقاد لهم أزمة القول، وتنصاع لهم أعنة الكلام فان الرسول ﷺ كان أصدقهم قاطبة اذا حدث، وأبلغهم اذا تكلم، وأفصحهم اذا خطب أو كتب، وأقدرهم على الاتقان بالحجة المقنعة، والاسلوب النفاذ، والبيان المؤثر، الذي يجلو الحق، ويكشف عن الصواب، ويصل الى الغاية من أقرب طريق وتلك سمة البلاغة، وآية الأدب، ونهاية العبقرية، ووحي الإلهام، وهو كما أدبه ربه، وعلمه خالقه لم ينطق عن الهوى، ولم ينشأ هكذا من فراغ دون مؤدب أو معلم، وانما أدبه خالقه فأحسن تأديبه.

وتضافرت عناية الله عليه، فجعلت منه إماما بليغا ورسولا حكيما، ومعلما هاديا.

وصدق الله العظيم: ﴿هو الذي بعثَ في الأُمِّيين رسولاً منهُمْ يتلُو

عليهم آياتِهِ ويُزَكّيهم ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لفي ضلالٍ مبينٍ﴾[1].

يقول الجاحظ في وصف بلاغة سيد المرسلين: «لم يتكلم الا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغَشّاه بالقبول، وجمع له من المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع الى معاودته لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج الا بالصدق ولا يطلب الفلح (الفوز) الا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولم يسمع الناس بكلام قط، أهم نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ[2].

ولقد أصاب الجاحظ كبد الحقيقة في وصف بلاغة الرسول ﷺ أبلغ اصابة، ورسمها أدق رسم.

وهذه المدرسة النبوية هي التي تتلمذ فيها أساطين الفكر وأئمة البلاغة وقادة الرأي وعلى رأسهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ثم الأشبال الذين عايشوا الفكر في مهده والنور في اشراقاته وأشعة الهدى وهي تملأ فجاج الأرض بالسلوك المحمدي والهدي النبوي.

وكان في المقدمة حبر الأمة، والذي سُمّي البحر لغزارة علمه وعن سعيد

(١) سورة الجمعة الآية ٢.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص٦٣.

ابن جبير، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة أم المؤمنين.. فوضعت له وضوءًا من الليل قال: فقالت له أم المؤمنين: وضع لك هذا يا رسول الله عبدالله بن عباس فقال الرسول: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(١).

وأنت اذا قرأت رسائل ابن عباس تعرف انتهاء جملته من رنينها، بعد أن تكون ملكت عليك مشاعرك، وأدخلت السرور والهناءة على نفسك، فهو لا يحفل بالاسجاع الا اذا جاءت عفو الخاطر ولا يتعمد الجزالة الا اذا اقتضى الموضع ذلك، وقلما خلا قوله من فكاهة تحمد له، أو تحمل له، وتعيش معه في بلاغاته في أسلوب سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ، ففي أسلوبه تقرأ ألفاظا جميلة، وقوالب محكمة، وفي كلمه الطيب تقع على اشباع المعاني، وتقطيع الجمل، والابلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع، وتفعل البلاغة فعلها في نفسك من طريق الاقناع والبرهان، لا من مجرى التقفية والزّخرف، وتوازن الكلمات، ورنة الفقرات.

إن شابا في حداثة سنه يفضله الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويصف براعته وحصافته وعلمه الواسع ويقول له «غص غواص» ـ. ويظهر اعجابه به اذا ذكر، ويقدمه على جميع أبناء الصحابة، ويحضره مجلسه، وهو لا شك نموذج فريد ومثل أعلى في كثير من المعارف الإنسانية، بلغ الذروة فيما تفرد به، واشتهر بمعرفته بأسرار البلاغة العربية وكان صحابة رسول الله ﷺ والتابعون مجمعين على الاقرار بفضله، قلما يداخلهم الحسد له، كان نسيج وحده في علمه، وأدبه وبلاغاته ورسائله.

وفي معظم رسائل ابن عم رسول الله ﷺ تقرأ نبراسا صالحا يَحتَذِيه طلاب الأدب ومحبو المعرفة وعشاق الكلمة الطيبة، ورواد الجرأة التي لم تعرف

---

(١) الحديث صحيح أخرجه الإمام احمد في مسنده والطبراني. وهو في الصحيح دون قوله «وعلمه التأويل».

خوفا أو تهاب حاكما او تخشى سيفا مُصْلَتًا بل تراه يلقي بالرأي في مواجهة الحكام لا يخشى في الله لومة لائم، فكانت رسائله تتفجر جلالا وعظمة وشجاعة - وان كانت حياته تموج بالأسى وبالهول موْجا، لأنه التقى في ساحة الحرب وشاهد النصر والهزيمة، البأساء والضراء، كان ينتقي الألفاظ ويختار التراكيب البليغة التي تملأ القلب روعة ومهابة وجلالا.

وفي ظلال كتاب «ربنا» الذي فض عن العقول مغاليقها اذ فتح للذهن طريق التأمل، ومع حديث المصطفى - ﷺ - بما له من خصائص وسمات، يوجهان الأدب والكتابة الى نمط فريد في التعبير والتصوير، وابتداع المعاني والأخيلة.

عاش ابن عباس، وكانت له صولة في بلاغاته يحسن السبك وجمال الوصف والبعد عن التعقيد والسجع المتكلف، كما بعد عن الغرابة والحوشية، وسما عن الابتذال والضعف، أو الركاكة والعجمة وتميز بحسن التنسيق وجمال الترتيب وجلال الفكرة[1].

نماذج من رسائل ابن عباس

★ - كلف معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص أن يكتب إلى عبدالله ابن عباس وذكر له: أن رأس أهل العراق بعد علي هو عبدالله بن عباس، فاكتب كتابا لعلك تُرقِّقُه، ولعله لو قال شيئا لم يخرج عليّ منه، وقد أكلتنا الحرب ولا أرانا نصل الى العراق الا بهلاك أهل الشام.

فقال عمرو: ان ابن عباس لا يُخْدَع، ولو طَمِعْتَ فيه لطمعت في علي، قال معاوية:

على ذلك فاكتب، فكتب عمرو الى ابن عباس:

(١) أنظر الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام ص٢٨٩، ٢٩٠.

«أما بعدُ: فإن الذي نحن وأنتم فيه ليس بأول أمر قادَه البلاء، وأنت رأس هذا الجمع بعد عليّ، فانظر فيما بَقي ودع ما مضى، فوالله ما أَبْقَت هذه الجرب لنا ولا لكم حياة ولا صبرا، واعلم ان الشام لا تَهْلِك الا بهلاك العراق، وأن العراق لا تَهْلِك الا بهلاك الشام، فما خيرُنا بعد هلاك أعدادِنا منكم؟ وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا؟ ولسنا نقول: ليت الحرب عادت، ولكنا نقول: ليتها لم تكن وان فينا من يكره اللقاء كما أن فيكم من يكرهه، وانما هو: أمير مطاع ومأمور مطيع، ومؤتمن مشاوَر، وهو أنت، فأما الأشتر[1] الغليظ الطبع القاسي القلب فليس بأهل أن يُدْعى في ثقات أهل الشّورى، ولا في خواصِّ أهل النجوى».

وكتب في أسفل الكتاب:

طال البَلاءُ وما يُرْجَى له آسي	بعد الإله سوى رِفْق ابنِ عَبّاس[2]
قُولا له قول من يرجو مودّتَه	لا تَنْسَ حظَّكَ، ان الخاسرَ النّاسي
انظر (تُفَدّيك نفسي) قبل قاصِمَةٍ	للظهر ليس لها راق ولا آسِي[3]
ان العراقَ وأهل الشام لن يجدوا	طعم الحياة مع المستغلق القاسي[4]
يا بن الذي زَمْزَمٌ سقْيا الحَجِيج له	أَعْظِمْ بذلك من فخرٍ على الناس[5]

(١) هو مالك بن الحارث، وكان من رءوس جند علي أيضا، كان على الميمنة، وابن عباس على الميسرة وعلي في القلب.

(٢) الآسي الطبيب، أسا الجرح يأسوه: داواه.

(٣) قصمه كضربه: كسره والرقية بالضم: العوذة (بالضم أيضا) وقد رقاه برقية أي عوّذه.

(٤) المستغلق: استغلقني فلان في بيعه: اذا لم يجعل لي خيارا في رده.

(٥) الحجيج جمع حاج، وزمزم بئر بمكة حفرها عبد المطلب جد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان ابنه العباس في الجاهلية رئيسا في قريش واليه السقاية في الجاهلية (أنظر أسد الغابة ج٣ ص١٠٩) وجاء في شرح ابن أبي الحديد م٣: ص ٤٦١ «وكانت السقاية في الجاهلية بيد أبي طالب، ثم سلمها الى أخيه العباس». وزمزم مبتدأ خبره الجار والمجرور وسقيا الحجيج بدل من زمزم أو عطف بيان.

اني أرى الخير في سِلَم الشـأم لكـم | والله يعلم ما بـالسِّلم مـن ـ بـاس[١]
فيهـا التُّقـى وأمـورٌ ليس يجهلهـا | الا الجهولُ، وما نُوكَى كأكيـاس[٢]

فلما انتهى كتاب عمرو إلى ابن عباس أتى به إلى علي ـ عليه السلام ـ فأقرأه اياه فضحك، وقال: قاتل الله ابن العاص! ما أغراه بك يا عبدالله أجبه وليرُدَّ عليه شعره الفضل بن العباس فانه شاعر، فكتب ابن عباس الى عمرو بن العاص:

«أما بعد: فاني لا أعلم أحدا من العرب أقلَّ حياء منك، انك مال بك الهوى الى معاوية، فبعته دينك بالثمن الأوكَس[٣]، ثم خبطت الناس في عشواء[٤] طمعا في الدنيا فَأَعْظَمْتَهَا إعظام أهل الدنيا، فلما ترامينا أعظمتَ الحربَ والرِّماء إعظَامَ أهل الدين وأظهرت فيها كراهية أهل الوَرَع لا تريد بذلك الا تمهيد الحرب، وَكَسْرَ أهل الدين، فان كنت تريد الله، فارجع إلى بيتك، وَدَع الطمع في مصر، والركونَ إلى الدنيا الفانية. واعلم أن هذه الحرب لَيس فيها معاوية كعليّ، بدأها علي بالحق، وانتهى فيها الى العُذْر، وبدأها معاوية بالبغي، وانتهى فيها الى السَّرف، وليس أهل الشام فيها كأهل العراق، بايَع أهلُ العراق عليًا وهو خيرٌ منهم، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه، ولست أنا وأنت فيها سواء: أردتُ الله، وأنت أردت مصر، وقد عرفتُ الشيء الذي باعَدَك مني، ولا أعرف الشيء الذي قَرَّبك من معاوية، فان تُرِد شرا لا نَسْبِقك به، وان ترد خيرا لا تَسبقنا إليه، والسلام».

---

(١) النسب الى شأم ويمن: شأمي ويمني بياء مشددة، وقد قالوا فيهما شآم ويمان ـ (منقوصين) وأصلها شأمي ويمنى. والبأس: الشدة والقوة.

(٢) الضمير في (فيها) يعود على السلم وهو يذكر ويؤنث، والنوكى: الحمقى والنوك بالضم والفتح: الحمق، نوك كفرح فهو أنوك، والاكياس: العقلاء.

(٣) أي الخسيس.

(٤) يروى في عشوه وفي عشواء والقسوة مثلثة: ركوب الأمر على غير بيان، وبالفتح: الظلمة كالعشواء.

ثم دعا أخاه الفضل فقال: يا بن أم أجبه، فقال الفضل:

«يا عمرو: حَسبُكَ من مكر ووسواس فاذهب فليس لداء الجهل من آسِي[1]
الا تَـواتُـرُ طَعْـنٍ فـي نحورِكُـم يُشجي النفوس وَيَشْفي نخوة الراسي[2]
أمـــا عليٌّ فـــإن الله فضلـــه بفضل ذي شَرَفٍ عالٍ على النـاس[3]
إن تَعْقِلُـوا الحرب نَعْقِلْهـا مُخَيَّـةً أو تَبعثوهـا فـانـا غَيرُ أنكـاس[4]
قَتْلَى العراق بِقَتْلَـى الشـام ذاهبـة هذا بهذا، ومـا بـالحق مـن بَـاسِ

ثم عرض الشعر والكتاب على عليّ - عليه السلام - فقال: لا أراه يجيبك بعدها أبدا بشيء ان كان يعقل، وان عاد عُدْت عليه. فلما انتهى الكتاب الى عمرو بن العاص عرضه على معاوية فقال: ان قلب ابن عباس وقلب علي قلب واحد، وكلاهما ولد عبد المطلب وان كان قد خَشُن فلقد لان، وان كان قد تعظَّم وعظَّمَ صاحبه فلقد قارب وجَنَحَ الى السّلم[5].

★ - وَسَيَّـرَ علي - عليـه السلام - إلى الخِرِّيـتَ معقِـلَ بـن قيس، ونَـدَبَ معه ألفين من أهل الكوفة، وكتب الى ابن عباس - أمير البصرة:

«أما بعدُ: فأبعث رجلا من قِبَلك صَلِيبًا شجاعا معروفا بالصلاح في ألفي رجل، فيَتَبع معقِلا، فإذا مر ببلاد البصرة فهو أمير أصحابه حتى يلقى معقلا، فإذا لَقِيَ معقلا فمعقلُ أمير الفريقين وليسمع من معقل وَلْيُطِعه ولا يخالفه، وَمُرْ زياد بن خَصَفَة فَلْيُقْبِل إلينا، فنعم المرءُ زيادٌ، ونعم القَبِيل

---

(١) وسوست اليه نفسه أو الشيطان: حدثته بما لا نفع فيه ولا خير، والمصدر وسوسة ووسواس بكسر الواو في الثاني، والوسواس بالفتح: اسم منه.

(٢) التواتر: التتابع، وشجاه: حزنه وطربه كأشجاه، وبصح المعنيان في البيت أي يحزن نفوسكم أو يسر نفوسنا، والنخوة: الكر والعظمة.

(٣) بفضل ذي شرف: أي بفضل نبي ذي شرف.

(٤) من عقل الدابة إذا قيدها وحبسها، والانكاس جمع نكس بالكسر: وهو الرجل الضعيف والمقصر عن غاية النجدة والكرم.

(٥) شرح ابن ابي الحديد م٢: ص٨٨ والامامة والسياسة ١: ٨٤.

قبيلُه، والسلام»[1].

ونزل الخِرِّيت جانبا من الأهواز، واجتمع إليه عُلُوجٌ[2] من أهلها كثير أرادوا كَسْر الخراج، ولصوص كثيرة، وطائفة أخرى من العرب ترى رأيه. وخرج معقلٌ بن قيس حتى نزل الأهواز، وأقام ينتظر أهل البصرة، فلما ابطئوا عليه أخذ في السير إلى الخريث فما لبث أن أدركه رسول ابن عباس بكتاب فيه:

«أما بعدُ: فان أدركك رسولي بالمكان الذي كنت فيه مقاما، أو أدركك وقد شَخَصْتَ منه، فلا تَبْرَح المكان الذي ينتهي فيه اليك رسولي واثبت فيه حتى يَقْدَم عليك بَعثُنا الذي وَجَّهناه إليك، فاني قد بعثت إليك خالد بن مَعْدَان الطّائي، وهو من أهل الدين والصلاح والبأس والنجدة، فاسمع منه، واعرف ذلك له، والسلام».

فقرأ معقل الكتاب على الناس، وحَمِدَ الله - وقد كان ذلك الوجه هالهم فأقام حتى قَدِم عليه الطائي، واجتمعا جميعا في عسكر واحد[3].

★ وروي أن عبدالله بن عباس كان من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الشيوخ من أصحاب محمد ﷺ ولم يستعمله قط فقال له يوما: كدت استعملك، ولكن اخشى أن تستحلّ الفيء على التأويل فلما سار الأمر الى علي، استعمله على البصرة - بعد وقعة الجمل - فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى: ﴿**واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى..**﴾[4] واستحله لقرابته من رسول الله ﷺ.

ومر ابن عباس يوما على أبي الأسود الدؤلي. فقال له: لو كنت من البهائم

---

(١) تاريخ الطبري ٦: ٧٠، وشرح ابن أبي الحديد م١ ص٢٦٧.

(٢) علوج: جمع علج بالكسر: وهو الرجل من كفار العجم.

(٣) تاريخ الطبري ٦: ٧١، وشرح ابن أبي الحديد م١: ص٢٦٨.

(٤) سورة الأنفال، آية ٤١.

لكنت جملا، ولو كنت راعيا ما بلغت المرعى، ولا أحسنت مهنته في المشي، فكتب أبو الأسود إلى عليّ:

«أما بعد: فان الله جل وعلا جعلك واليا مُؤْتَمنًا، وراعيا مسئولا، وقد بلوناك رحمك الله، فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحا للأمة، توفر لهم فَيْئَهُم وتَظْلِف[1] نفسك عن دنياهم، فلا تأكل أموالهم، ولا ترتشي بشيء في أحكامهم.

وان ابن عمك قد أكل ما تحت يديه بغير علمك، فلم يسعني كتمانك ذلك، فانظر رحمك الله فيما هنالك، واكتب إلي برأيك، فما أحببت اتَّبِعهُ ان شاء الله، والسلام»[2].

فكتب إليه علي:

«أما بعد: فَمِثْلُكَ نَصَحَ الإمام والأمة، وأدّى الأمانة، ووَالَى على الحق وفارق الجَوْر، وقد كَتَبتُ إلى صاحبك، بما كتبت إلي فيه من أمره ولم أعلمه بكتابك إلي، فلا تَدَعْ اعلامي بما يكون بحضرتك، فما النظر فيه للأمة صلاح، فانك بذلك جَدير، وهو حق وواجبٌ لله عليك، والسلام»[3].

وكتب علي إلى ابن عباس:

«أما بعد: فانه قد بلغني عنك أمر، ان كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وسببت إمامك، وأخزيت أمانتك، وخُنْتَ المسلمين. بلغني أنك جَرَدْتَ[4] الأرض، فأخذت ما تحت قدَميك، وأكلت ما تحت يديك، فارفع إليّ

(١) ظلف نفسه عنه كضرب، منعها من أن تفعله وكفها عنه، وفي العقد الفريد (وتكف).
(٢) العقد الفريد ٢: ٢٣٢، وتاريخ الطبري ٦: ٨١.
(٣) العقد الفريد ٢: ٢٤٢، وتاريخ الطبري ٦: ٨١.
(٤) أي قشرتها. والمعنى أخذتها.

حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس[1]».

فكتب إليه ابن عباس:

«أما بعد: فان كل الذي بلغك باطل، واني لما تحت يدي ضابط قائم له، وعليه حافظ، فلا تصدق على الضَّنين[2]، والسلام»[3].

كتاب ورد لا يبرئ صاحبه ولا يرضى قارئه كما يقول الدكتور طه حسين - في كتابه الفتنة الكبرى - علي وبنوه - وانما يدل على غلو في الثقة بالنفس، واستخفاف بغيره من الناس.

وابن عباس قد صحب عمر بن الخطاب وعرف سيرته وتشدده في حساب العمال، وهو قد صحب ابن عمه وعرف أنه لا يَرِقّ في أمر المال ولا يلين. ومن أجل ذلك لم يقنع علي بهذا الكتاب الذي لا يغني عنه ولا عن صاحبه شيئا.

فكتب الإمام علي إلى ابن عمه يتشدَّد في مطالبته بمعرفة الحقيقة حتى ينجلي الموقف تماما وذلك برفع قائمة بالحساب مُفصِّلا كل وجه من وجوه الحساب تفصيلا:

«أما بعد: فانه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية ومن

---

(١) وفي الطبري، فلا تصدق الظنون، والضنين: البخيل. وكان أبو الأسود معروفا بالبخل. ومن طريف ما يروى عنه أن رجلا قال له: «أنت والله ظرف لفظ وظرف علم، ووعاء حلم، غير أنك بخيل» فقال: «وما خير ظرف لا يمسك ما فيه؟» وسلم عليه أعرابي يوما، فقال أبو الأسود: كلمة مقولة، فقال له: أتأذن في الدخول؟ قال: وراءك أوسع لك، قال: فهل عندك شيء؟ قال: نعم، قال: أطعمني، قال: عيالي أحق منك، قال: ما رأيت الجائع؟ فغشاه، ثم قام الرجل ليخرج فقال: هيهات! تخرج فتؤذي الناس كما آذيتني! ووضع رجله في الأدهم حتى أصبح. المحاسن والأضواء ١: ٦٩.

(٢) العقد الفريد ٢: ٢٤٢، ونهج البلاغة ٢: ٤٦.

(٣) العقد الفريد ٢: ٢٤٢ وناريخ الطبري ٦: ٨٢.

أين أخذته وفيما وضعت ما أنفقت منه. فاتق الله فيما ائتمنتك عليه واسترعيتك حفظه، فان المتاع بما أنت رازئ منه قليل، وتبعة ذلك شديدة والسلام».

وفي الطبري فان المتاع بما أنت رازمه[1] قليل، وتِبَاعَتَه وبيلة لا تبيد. والسلام»[2].

اتهام باطل

أثار الدكتور طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى» موضوع اتهام عبدالله بن عباس - رضي الله عنه - بنهب أموال المسلمين في البصرة، وغدره بابن عمه علي - رضي الله عنه - وهروبه بالأموال الى مكة. وتطلعه الى معاوية.

١ - قال طه حسين: «وكان لابن عباس من العلم بأمور الدين والدنيا، ومن المكانة في بني هاشم خاصة، وفي قريش عامة وفي نفوس المسلمين جميعا، ما كان خليقا أن يعصمه من الانحراف عن ابن عمه[3].

٢ - «رأى ابن عباس نجم ابن عمه في أفول، ونجم معاوية في صعود، فأقام في البصرة يفكر في نفسه أكثر مما يفكر في ابن عمه».

٣ - وذكر «ولو نسي ابن عباس نفسه قليلا، ولكنه لم ينس نفسه قليلا ولا كثيرا، ولم يضعها بحيث كان يجب عليه أن يضعها منذ قليل. أن يكون واليا لعلي على مصر من أمصار المسلمين».

٤ - فهو قد أجمع الخروج الى مكة، ولكنه لم يخرج من البصرة فارغ اليدين من المال كما دخلها حين ولي عليها، وانما خرج منها وقد ملأ يده بما

---

(١) رزم الشيء كضرب ونصر جمعه في ثوب، والتباعة: التبعة.

(٢) العقد الفريد ٢: ٢٤٢، وتاريخ الطبري ٦: ٨٢.

(٣) طه حسين - الفتنة الكبرى (علي وبنوه) ص ١٢١.

كان في بيت المالُ مما ينقل، وهو يعلم أن ليس له في هذا المال حق، الا مثل ما لأهل البصرة جميعا فيه».

ثم يقول: «والغريب أن كثيرا من المحدثين أهملوا هذه القصة ولم يشيروا إليها، تحرجا من ذكرها.. فمكانة ابن عباس من النبي... ومكانه من الفقه بالدين أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الامام»[1].

وفي مقام الرد عليه يذكر د. ابراهيم شعوط في كتابه «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ»[2] أن في تلك العبارة ما يكشف نوايا المؤلف ويسفه رأيه؟.. لأنه اذا كان رجال الحديث ـ وهم المصدر الموثوق به في كل ما يروى عنهم ـ لم يذكروا شيئا من ذلك، وكذلك كتب التراجم للمؤرخين الثقة ـ فمن أين جاءت هذه الأخبار للمؤرخين الذين اعتمد عليهم طه حسين، وضرب بكلام المحدثين عرض الحائط، وظل في تخبطه هكذا، حتى وصل إلى هدفه، ليحط من مقام ابن عباس الذي اعترف دون ـ أن يشعر ـ بأن مكانته من النبي ﷺ ومكانه من الفقه بالدين، أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام»؟!..

لقد اعتمد طه حسين على الطبري اذ قال في حوادث سنة ٤٠هـ «مر عبدالله بن عباس، على أبي الأسود الدؤلي فقال له: «لو كنت من البهائم لكنت جملا، ولو كنت راعيا ما بلغت المرعى ولا أحسنت مهنته في المشي» قال «فكتب أبو الأسود الى علي: «أما بعد فان الله جل وعلا، جعلك واليًا مؤتمنًا وراعيًا مسئولا، وقد بلوناك فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحا للرعية: توفر لهم فيئهم وتظلف نفسك عن دنياهم، فلا تأكل أموالهم، ولا ترتش في

(١) طه حسين (علي وبنوه) ص ١٢٩ طبع دار المعارف.

(٢) د. ابراهيم علي شعوط «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ» الطبعة الرابعة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ـ مطبعة دار التأليف.

أحكامهم. وان ابن عمك قد أكل ما تحت يده بغير علمك فلا يسعني كتمانك ذلك. فانظر، رحمك الله، فيما هنالك واكتب إلي برأيك فيما أحببت أن آته إليك والسلام »[1].

ملاحظة: لو كان الدكتور طه حسين من أهل التاريخ، لأدرك أن أبا الأسود لم يكتب لعلي ـ رضي الله عنه ـ إلا فور المغاضبة التي حدثت بينه وبين ابن عباس، والتي ذكرها الطبري، مقرونة بكتاب أبي الأسود.

ومعنى ذلك، أنه لو صحت هذه الرواية، ولم تحدث المغاضبة ما كتب أبو الأسود مثل ماكتب.

ومع ذلك فان ابن عباس، رد على كتاب علي له ـ بشأن مقالة أبي الأسود بهذه العبارة «أما بعد، فان الذي بلغك باطل. واني لما تحت يدي قائم وله حافظ فلا تصدق الظنون.. والسلام».

ومع ذلك، فان الطبري، يروي رواية أخرى، تنفي عن ابن عباس خروجه من البصرة قبل مقتل علي، فيقول في حوادث سنة ٤٠هـ وفيها خرج عبدالله بن عباس من البصرة، ولحق بمكة، في قول عامة أهل السير.. وقد أنكر ذلك بعضهم.. وزعم أنه لم يزل بالبصرة عاملا عليها من قبل أمير المؤمنين علي عليه السلام، حتى قتل، وبعد مقتل علي، حتى صالح الحسن معاوية.. ثم خرج الى مكة »[2].

وفي رواية أخرى للطبري أيضا: أنه بعد حضوره الصلح بين الحسن ومعاوية ـ رجع إلى البصرة وثقله بها. فحمله وحمل معه مالا من بيت المال قليلا. وقال: هي أرزاقي.. الخ[3].

---

(١) الطبري ـ الأمم والملوك ج ٦ ص ٨١ ط بيروت.

(٢) الطبري ج ٦ ص ٨١ في حوادث سنة ٤٠ هـ.

(٣) الطبري ج ٦ ص ٨١ في حوادث سنة ٤٠ هـ.

وأبو الاسود الدؤلي هو ظالم بن عمرو بن سفيان.. يقول ابن خلكان المتوفى عام ٦٨١هـ فيه ما يأتي:

« كان أبو الاسود معروفا بالبخل. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا، لكنا أسوأ حالا منهم. وقال لبنيه: لا تجاودوا الله عزَّ وجل، فانه أجود وجوده ولو شاء أن يوسع على الناس كلهم لفعل فلا تجهدوا أنفسكم في التوسع فتهلكوا هزالا »[1].

وتعليقنا على هذه الرواية وتلك الصفة: أنه اذا كان هذا القول صحيحا من أبي الأسود، فقد سقطت شهادته فلا تقبل على عبدالله بن عباس، لأن أبا الأسود - بناء على هذه الرواية - صارح وجاهر بأمر كان يجاهر به الكفار والمشركون، حين كانوا يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لو يَشاءُ اللهُ أطعمه﴾[2] ؟!.

على أن ابن خلكان، يذكر رواية تدل على أن عبدالله بن عباس، هو الذي استخلف أبا الأسود على البصرة، حيث يقول:

« وحكى خليفة بن خياط، أن عبدالله بن عباس - رضي الله عنه - كان عاملا لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على البصرة. فلما شخص علي إلى الحجاز، استخلف أبا الأسود عليها. فلم يزل بها حتى قتل علي - رضي الله عنه -[3].

ومن هذا النص، يفهم أن أبا الأسود لم يكن له شأن بالبصرة إلا بعد أن استخلفه عبدالله بن عباس، ليحل محله..

ومن هو عبدالله بن عباس؟!.

تقتضينا هذه القضية أن نكشف لمدرسة طه حسين وتلاميذه عن حقيقة

---

(١) ابن خلكان - وفيات الأعيان ٢٠ ص ٢١٨.
(٢) سورة يس، آية ٤٧.
(٣) ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢١٨.

عبدالله بن عباس ومكانته، وشهادة أصحاب رسول الله له، وشهادة علي بن أبي طالب نفسه لعبدالله بن عباس. وقد اتفقت كتب الترجمة على ذكر الحقائق التاريخية لابن عباس، أمثال ابن حجر في كتابه «تهذيب التهذيب»[1]، وكتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر[2]، وكتاب «الإصابة» لابن حجر «وأسد الغابة» لابن الأثير[3].

ومما نلاحظه على ابن الأثير، أنه ـ حين ترجم لابن عباس في أسد الغابة ـ لم يذكر شيئا مما ذكره في كتابه «الكامل».

ولا ندري ماذا نقول في هذه المفارقات التي وقع فيها ابن الأثير. كل هذه المراجع ذكرت عن ابن عباس ما يأتي:

ـ أنه رأى جبريل مرتين، ودعا له رسول الله مرتين.

ـ عن عكرمة عن ابن عباس قال: «ضمني رسول الله ﷺ وقال: اللهم علمه الحكمة».

ـ قال عبيدالله بن عبدالله بن عتبة: «كان ابن عباس قد فاق الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتج من رأيه، وحلم، ونسب، وتأويل.. وما رأيت أحدا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ـ ﷺ ـ منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير القرآن، ولا بحساب ولا بفرائض، ولا أثقب رأيا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوما، لا يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، ويوما المغازي، ويوما الشعر، ويوما أيام العرب ـ ولا رأيت عالما قط، جلس إليه، الا خضع له، وما رأيت سائلا قط سأله، الا وجد عنده علما»[4].

---

(١) تهذيب التهذيب ج ٥.

(٢) الاستيعاب ج ٣.

(٣) أسد الغابة لابن الأثير ج ٣.

(٤) ابن الأثير ـ أسد الغابة ج ٣ ص ١٩٣.

ـ ورع ابن عباس:

قال المعتمر بن سليمان، عن شعيب بن درهم: «كان هذا المكان ـ وأومأ إلى مجرى الدمع من خدي ابن عباس ـ مثل الشراك العالي، من كثرة البكاء»[1].

ـ الحديث المشهور الذي حدثه به رسول الله.

قال ابن عباس «كنت خلف رسول الله ﷺ فقال: يا غلام اني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظه تجده تجاهك ـ اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك، وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ـ مقاله عند ما فقد بصره.

قال هذا الشعر:

ان يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور[2]

ـ دعاء رسول الله له:

«اللهم علّمه الحكمة وتأويل القرآن ـ اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ـ اللهم بارك فيه وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين ـ اللهم زده علما وفقها».

ـ قال طاوس: «أدركت نحو خمسمائة صحابي من أصحاب النبي ﷺ اذا ذكروا ابن عباس فخالفوه، فلم يزل يقررهم حتى يصلوا الى رأيه».

---

(١) ابن الأثير ـ أسد الغابة ج ٣ ص ١٩٣.
(٢) ابن الأثير ـ أسد الغابة ج ٣ ص ١٩٤.

- عن مسروق قال: «كنت اذا رأيت عبدالله بن عباس قلت: أجمل الناس. فإذا تكلم قلت: أفصح الناس. واذا تحدث قلت: أعلم الناس».

- عبدالله بن عمر كان يقول: «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد».

- صلى عليه محمد بن الحنفية، وقال: «اليوم مات رباني هذه الأمة»[1].

وأخيرا مقالة طه حسين نفسه:

قال: «والغريب أن كثيرا من المحدثين، أهملوا هذه القصة ولم يشيروا إليها تحرجا من ذكرها، فمكانة ابن عباس من النبي، ومكانه من الفقه بالدين، أعظم من أن يظن به هذا التجاوز للحق والخلاف على الامام»[2].

وان الذي ينبغي أن يقال في هذه القضية:

أننا اذا قرأنا ما يكتبه خصوم الإسلام من اليهود والمسيحيين والشيوعيين والمستشرقين والمستغربين يجب أن نقرأه بحذر.. لأن الخصومة الدينية والتأثر بالعاطفة ضد الخصوم، يوحي دائما بالانحراف عن الحقيقة الى ارضاء العاطفة..

وهذا الحذر أصل من أصول البحث التاريخي.

أما إذا كتب المسلمون عن الإسلام فإننا نكتفي بأن الكاتب مسلم وقد يكون المسلم هذا، أشد خطرا على الإسلام من كل خصومه.

قضية كل مسلم... مع طه حسين:

في موقفه هذا من ترجمان القرآن عبدالله بن عباس، وفي فهمه البعيد عن

---

(١) ابن حجر - تهذيب التهذيب ج ٥.

(٢) طه حسين (علي وبنوه) ص ١٢٩ ط دار المعارف.

الصواب، من حيث وضعه ابن عباس في ميزان المعاصرين الذين نقوم كل حركاتهم - في حياتهم - على النفع المادي والمصالح الشخصية لأنهم خواء من الغذاء الروحي، ومن رقابة الخالق في كل تصرفاتهم. وحاشا لله أن يكون ذلك. وقد سبق لطه حسين أن تهجم على مقام رسول الله حيث جعل من نفسه قاضيا يصدر الأحكام على سيد الخلق المعصوم من كل زلة.. فيطلع على الناس بكتابه «على هامش السيرة» الذي يبدي فيه براعته الأدبية بابتكار العناوين الجذابة، ويتناول قصة زواج رسول الله ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش، كأنما يتحدث عن عاشق ولهان، تعلق قلبه بامرأة في عصمة غيره فتظهر عبقرية الكاتب فيما وضعه عنوانا لهذه القصة بهذه الصورة التي لا تليق بإنسان كامل وهو قوله (شوق الحبيب إلى الحبيب)[1]؟!

وبعد هذا، نستطيع أن نقول أن الذي أوقع طه حسين - وأمثاله - في الخطأ التاريخي، هو وقوفه عند كتاب كتبه أبو الأسود الدؤلي وكتاب مثله موجه من الإمام علي - كرم الله وجهه - الى ابن عباس ثم رد ابن عباس على ابن عمه، ثم معركة كلامية استغرقت عدة كتب بين تلك الأطراف الثلاثة: علي وابن عباس، وأبي الأسود، ولعل الدكتور طه حسين - راعه أسلوب تلك الخطابات المتبادلة، فبنى عليها أحكامه ورتب نتائجه، دون أن يكلف نفسه مؤنة البحث، ودون تحري العدالة، وفحص الأسانيد، ومناقشة الشهود، حتى اذا حكم كان حكمه قد أصاب الواقع أو قريبا منه.

تلك في الحقيقة مهمة المؤرخ، وليست مهمة الأديب!!.

★ **وكتب علي إلى ابن عباس:** «أما بعد فان المرء قد يَسره دركُ ما لم يكن ليفوته[2] ويسوءه فوتُ ما لم يكن لِيدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثر به

---

(١) طه حسين. على هامش السيرة ص ٥٠.

(٢) وفي اعجاز القرآن «يسر بدرك ما لم يكن ليحرمه».

فرحا، وما فاتك منها فلا تأسَ عليه جزَعا[1]. وليكن سرورك بما نِلْت من آخِرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها[2] وليكم هَمُّك فيما بعد الموت.

وقد روي هذا الكتاب في نهج البلاغة أيضا بصورة أخرى، وهي:

«أما بعد: فان المرء ليفرحُ بالشيء الذي لم يكن ليفوتَه، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن افضلُ ما نِلت في نفسك من دنياك بُلوغُ لذة، أو شفاء غيظ، ولكن اطفاءُ باطل أو احياء حق، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلفت، وهمك فيما بعد الموت.

★ وقال معاوية لأكتبن الى ابن عباس كتابا استعرض فيه عقله، وانظر ما في نفسه، فكتب إليه:

«أما بعدُ: فانكم معشَرَ بني هاشم لستم إلى أحد أسْرَعَ منكم بالمساءة إلى أنصار ابن عفان، حتى إنكم قتلتم طلحة والزبير لطلبهما بدمه واستعظامهما ما نيل منه، فان كان ذلك منافسة لبني أمية في السلطان، فقد وَلِيَها عَدِيّ وتَيْم (أي وليها عمر وأبو بكر) فالأول من عدي بن كعب بن لؤي، والثاني من تيم بن مره بن كعب بن لؤي، فلم تنافسوهم وأظهرتم لهم الطاعة.

وقد وقع من الأمر ما قد ترى، وأدالت[3] هذه الحرب بعضنا من بعض حتى استوينا فيها، فما يطمِعكم فينا يَطْمِعنا فيكم، وما يُؤْيِسُنا منكم يؤيسكم منا، ولقد رَجَوْنا غير الذي كان، وخشينا دون ما وقع ولستُم ملاقينا اليوم

---

(١) وفي الأمالي «فلا تتبعه أسفا» وفي اعجاز القرآن «وانظر ما فاتك من الدنيا فلا تكثر عليه جزعا، وما نلته فلا تنعم به فرحا».

(٢) في الامالي «فليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت»، وفي اعجاز القرآن «فليكن سرورك بما قدمت من أجر أو منطق، وليكن أسفك فيما فرطت فيه من ذلك». وكان ابن عباس يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله ﷺ كانتفاعي بهذا الكلام.

(٣) أداله الله من عدوه: نصره عليه.

بأحدٍ من حدِّكم أمس، ولا غدا بأحَد من حَدِّكم اليوم، وقد قَنِعْنا بما في أيدينا من ملك الشام، فاقنعوا بما في أيديكم من ملك العراق، وابْقُوا على قريش، فانما بقي من رجالها ستة: رجلان بالشام، ورجلان بالعراق ورجلان بالحجاز، فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو، وأما اللذان بالعراق فأنت وعلي، وأما اللذان بالحجاز فَسَعْد وابن عمر، فاثنان من الستة ناصبان[1] لك، واثنان واقفان فيك، وأنت رأس هذا الجمع، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا أسرع منا إلى علي[2].

فلما أتى كتاب معاوية الى ابن عباس ضحك ثم قال: حتى متى يخطب ابن هند إليّ عقلي، وحتى متى أجمجم[3] عنه ما في نفسي؟ فكتب إليه:

«أما بعد: فقد جاءني كتابك وقرأته، فأما ما ذكرت من سُرْعتنا بالمساءة إلى أنصار عثمان وكراهتنا لسلطان بني أمية، فلعمري لقد أدركت في عثمان حاجتك حين استنْصَرك فلم تنصره حتى صِرْتَ إلى ما صرت إليه، وبيني وبينك في ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليدُ بن عقبة، وأما طلحة والزبير، فانهما أجْلَبا عليه وضَيَّقا خِناقه[4] ثم خرجا ينقضان البيعة ويطلبان الملك، فقاتلناهما على النَّكْث كما قاتلناك على البغي، وأما قولك إنه لم يبق من قريش غير ستة، فما أكثر رجالها، وأحسنَ بقيَّتها! وقد قاتلك من خيارها مَن قاتلك، ولم يخذلنا الا من خذلك، وأما اغراؤك ايانا بعدِيٍّ وتَيْم، فان أبا بكر وعمر خير من عثمان كما أن عثمان خير منك، وقد بقي لك منا ما يُنسيك ما قبله وتخاف ما بعده، وأما قولك: إنه لن بايعني الناس استقمت، فقد بايع الناس عليًّا، وهو خير مني فلم تستقم له، وأما أنت وزكرُ الخلافة يا

---

(١) نصب له: عاداه.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢: ٢٨٩، والامامة والسياسة ١: ٨٥.

(٣) جمجم في صدره شيئا: أخفاه ولم يبده.

(٤) الخناق: الحبل يخنق به.

معاوية؟ وانما أنت طليق، وابن طليق والخلافة للمهاجرين الأولين وليس الطُّلقاء منها في شيء، والسلام»[1].

★ ـ وكتب عبدالله بن عباس الى الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ اذ ولاه الناس أمرهم بعد الأمام علي ـ كرم الله وجهه ـ في رمضان سنة ٤٠هـ.

«أما بعد: فان المسلمين ولّوك أمرهم بعد عَليّ عليه السلام، فَشمِّر للحرب[2] وجاهد عدوَّك، وقارب أصحابَك، واستُر من الظنين ذَنْبَه بما لا يَثْلِم دينك[3]، ووَلِّ[4] أهل البيوتات والشرف، تستصلح بهم عشائرهم، حتى يكون الناس جماعة، فان بعض ما يكره الناس ـ ما لم يتعدَّ الحقَّ، وكانت عواقبه تؤدي إلى ظهور العدل، وعز الدين ـ خيرٌ من كثير مما يحبه الناس، اذا كانت عواقبه تدعو الى ظهور الجَوْر، وَذُلِّ المؤمنين، وعزّ الفاجرين، واقتد بما جاء عن أئمة العدل، فقد جاء عنهم:

«أنه لا يصلُح الكذبُ الا في حرب أو إصلاح بين الناس، فإن الحرب خُدعة»[5] ولك في ذلك سِعَة، اذا كنت محاربًا، ما لم تُبْطِلْ حقًا.

واعلم أن عليًّا أباك انما رغَّب الناس عنه الى معاوية أنه آسى[6] بينهم في الفَيء، وسوى بينهم في العطاء، فَثَقُل عليهم. واعلم أنك تحارب من حارَبَ اللهَ ورسوله في ابتداء الإسلام، حتى ظهر أمر الله، فلما وُحِّدَ الربُّ، ومُحِقَ الشِّركُ، وعزَّ الدين، أظهروا الإيمان، وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته، وقاموا الى الصلاة وهُم كُسالَى، وأدُّوا الفرائضَ وهم لها كارهون، فلما رأوا أنه لا

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ٢٨٩، والامامة والسياسة ١: ٨٥.

(٢) وفي رواية: «ان الناس قد ولوك أمرهم بعد علي فاشدد عن يمينك..»

(٣) الظنين: المتهم من ظننته اذا اتهمته فهو فعيل بمعنى مفعول، ويثلم: يعيب وينقص، وأصله من ثلم الأناء اذا كسر حرفه، وبابه ضرب وفرح».

(٤) وفي رواية «واستعمل، وفي أخرى «ووال».

(٥) الحرب خدعة مثلثة الخاء، وبضمها مع فتح الدال أي تنقضي بخدعة.

(٦) آسى بينهم: أي سوى.

يَعِزُّ في الدين إلا الأتقياء الأبرار، تَوَسّموا بسيما الصالحين، ليظن المسلمون بهم خيرا، فما زالوا بذلك حتى شركوهم في أماناتهم، وقالوا حسابُهم على الله، فان كانوا صادقين فاخواننا في الدين، وان كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الآخرين، وقد مُنِيت بأولئك وبأبنائهم وأشباهم، ولله ما زادهم طولُ العمر الا غيًّا، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مَقْتًا، فجاهِدْهم ولا تَـرْضَ دنِيَّةً، ولا تَقْبَلْ خَسْفًا[1]، فان عليًّا لم يُجِب الى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب، وانهم يعلمون أنه أولى بالأمر ان حكموا بالعدل، فلما حكموا بالهَوَى رجع الى ما كان عليه حتى أتى عليه أجَلُه، ولا تخرجَنَّ من حق أنت أولى به، حتى يَحُول الموت دون ذلك، والسلام»[2].

★ ـ وكتب عبدالله بن عباس الى مُجْبِرة[3] الشام:

«أما بعد: أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضَلَّ المتقون، وتنهون الناس عن المعاصي وبكم ظهر العاصُون؟ يا أبناء سَلَفِ المقاتلين، وأعوان الظالمين وخُزّان مساجد الفاسقين، وعُمّار سلف الشياطين، هل منكم الا مُفْتر على الله يحمل اجرامه[4] عليه، وينسبُها علانية إليه، وهل منكم الا من السيفُ قلادته، والزور على الله شهادته، أعَلَى هذا تواليتم، أم عليه تَمَاليتم؟[5] حَظُّكم منه الأوفر، ونصيبكم منه الأكبر، عَمَدتم إلى مُوالاة من لم يَدَعْ لله مالاً الا أخذه، ولا منارا الا هَدَمه، ولا مالاً ليتيم الا سَرَقه أو خانه، فأوجبتم لأخبث خلق الله أعظمَ حقِّ الله، وتخاذلتم أهل الحق حتى ذَلّوا وقَلّوا، وأعَنْتم

---

(١) ذلا.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٨، والعقد الفريد ١: ٩، ٢: ٢٤٤.

(٣) المجبرة أو الجبرية: فرقة تقول بأن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة، وانما هو مجبور في أفعاله لا قدرة له ولا ارادة ولا اختيار، وانه كالريشة في مهب الرياح ليس له كسب فيما يأتيه.

(٤) الاجرام: جمع جرم بالضم وهو الجريمة.

(٥) مخفف عن تمالأتم أي اجتمعتم.

أهل الباطل حتى عَزُّوا وكَثُروا، فأنيبوا الى الله وتوبوا، تاب الله على من تاب، وقبل من أناب»[1].

★ ـ ودس معاوية رجلا من حِمْيَر إلى الكوفـة، ورجلاً مـن بني القَيْـن الى البصرة، يكتبان إليه بالأخبار فَدُلّ على الحميري، وعلى القَيْنِيّ فأُخِذا وقتلا، وكتب الحسن ـ عليه السلام ـ إلى معاوية في ذلك.

وكتب عبدالله بن عباس من البصرة الى معاوية:

«أما بعد، فانك وَدَسَّك أخا بني القَيْن الى البصرة تلتمس من غَفَلات قريش مثل ما ظَفِرت به من يمانيتك لكما قال أُمية بن الأسكر[2]:

لَعَمْـرُكَ انّـي والخزاعـيَّ طـارقًـا كَنَعْجَةَ غَـادَتْ حَتْفَهـا تَتحفَّـزُ[3]
أثـارت عليهـا شفْـرَةً بِكُـراعِهـا فظلَّت بها من آخِرِ الليل تُنْحَـرُ[4]
شَمِتَّ بقوم هم صَديقُكَ أُهلكـوا أصابهمُ يـومٌ مـن الدهـر أعسرُ[5]

فأجابه معاوية:

أما بعد: فان الحسن بن علي قد كتب إليّ بنحو مما كتبتَ به، وأنَّبَني بما لم يُحقِّق سوء ظن ورأي فيَّ، وانك لم تُصِبْ مَثَلِي ومثلكم، وانما مَثَلُنا كما قال طارق الخُزاعي يُجيب أمية عن هذا الشعر:

---

(١) المنية والامل ص ٩.

(٢) في شرح ابن أبي الحديد «أمية بن أبي الصلت» وهو خطأ، روى صاحب الأغاني قال: أصيب قوم من بني جندع رهط أمية بن الأسكر، أصابهم أصحاب الرسول يوم المريسيع واتهموا رجلا من خزاعة يقال له طارق، فاتهمه بنو ليث أنه دَلَّ عليهم وكانت خزاعة يميلون للمسلمين ضد قريش، فقال أمية بن الأسكر: لعمرك اني والخزاعي.. فأجابه طارق الخزاعي: لعمرك ما أدري..»

(٣) غارت: باكرت، والحنث: الموت.

(٤) الشفرة: السكين العظيم، والكراع من الغنم والبقر مُشتدة الساق.

(٥) الأغاني ١٨: ١٦٢، وشرح ابن أبي الحديد ٤: ١٢.

فـوالله مـا أدرى [واني لصـادق] إلى أيٍّ مَـــنْ يَظُنُّني أتَعَـــذَّرُ[1]
أُعَنِّفُ أن كانـت زَبينَـةُ أهلِكـتْ ونالَ بني لِحْيان شَرٌّ فأنـفــرُوا[2]

★ تصالح الإمام الحسن وابن ابي سفيان وحقنت دماء المسلمين[3].

فكتب معاوية الى ابن عباس - رضي الله عنه - عندما تم الصلح كتابا يدعوه فيه إلى بيعته، ويقول له فيه:

« ولَعَمْري لو قتلتُك بعثمان رجوتُ أن يكون ذلك لله رِضًا، وأن يكون رأيًا صوابًا، فانك من السَّاعين عليه، والخاذلين له، والسَّافِكين دَمَهُ، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، ولا بيدك أمانٌ »[4].

فكتب إليه ابن عباس جوابا طويلا يقول فيه:

« وأما قولك: إنّي من الساعين على عثمان، والخاذلين له، والسافكين دمه، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني، فأُقسِم بالله لأَنْتَ المتربِّصُ بقتله، والمحبُّ لهلاكه، والحابِسُ الناسَ قِبلَكَ عنه على بصيرة من أمره، ولقد أتاك كتابه وصريخُه[5] يستغيث بك ويستصرخ، فما حَفَلْتَ به، حتى بعثت إليه مُعَذِّرًا بآخَرَة[6]، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يُقْتَل، فقُتِل كما كنت أردت، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يَعْدِلوا[7] بيننا وبينك، فطَفِقْتَ تَنْعي عثمان وتُلزِمنا دَمَه، وتقول: قُتل مظلومًا، فان يك قُتل مظلوما فأنت

(١) أظنه: اتهمه.
(٢) أنفروا: شردوا.
(٣) الاغاني ١٨: ١٦٢.
(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٨.
(٥) الصريخ: المستغيث.
(٦) المعذر: المقصر يتعذر بغير عذر، يوهم أن له عذرا ولا عذر له، وجاء آخرة وبآخرة محركتين وقد يضم أولها: أي آخر كل شيء، وفي الأصل (بأجرة) وهو تحريف.
(٧) أي لن يسووا.

أظلم الظالمين، ثم لم تزل مُصَوِّبًا ومُصَعِّدا[1]، وجاثمًا ورابضًا[2] تَسْتَغْوِي الجهّال، وتنازعنا حقَّنا بالسفهاء، حتى أدركت ما طلبت، وأن أدرى لعله فتنة لكم ومتاح الى حين »[3].

★ ـ ولما فكر معاوية في الأمر من بعده، وبذل محاولات شتى في دعوة الناس الى البيعة لابنه يزيد تعجب الناس من الأمر فسارع من سارع، وامتنع من امتنع، وهذا أمر استحدثه معاوية في الإسلام فغير به السنة الموروثة تغييرا خطيرا وهو استخلاف ابنه « يزيد » بعده على سلطان المسلمين، ولم يكره المسلمون شيئا في الصدر الأول من أيامهم كما كرهوا وراثة الخلافة فقد عهد أبو بكر الى عمر، ولم يخطر له أن يعهد الى أحد من بنيه، وزجر عمر مَنْ طلب إليه أن يعهد لعبدالله ابنه، ولم يخطر لعثمان أن يعهد الى أحد، وايضا أبى عليّ أن يستخلف، وقال لأصحابه حين سألوه ذلك: أترككم كما ترككم رسول الله ﷺ وسأله الناس: أيبايعون الحسن ابنه؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم.

وكان المسلمون يذكرون الكسروية والقيصرية، يريدون بذلك حكم القياصرة والاكاسرة، ولم تكن وراثة الملك الا لونا من الحكم الأعجمي. ولو وقف أمر معاوية عند هذا الحد، لكان من الممكن أن يقال: اجتهد للناس فأخطأ أو أصاب. ولكنه قاتل عليًا على أن يرد الخلافة شورى بين المسلمين، فلما استقام له السلطان نسي ما قاتل عليه، أو أعرض عمّا قاتل عليه: ولما أراد مصالحة الحسن عرض عليه أن يجعل له ولاية الأمر من بعده، فأبى الحسن ذلك واشترط فيما اشترط أن يعود الأمر بعد معاوية شورى بين

---

(١) التصويب: خلاف التصعيد، يقال صوب رأسه: اذا خفضه.

(٢) جثم الطائر والانسان كضرب ونصر جثم وجثوما: تلبد بالارض وربضت الشاة كضرب ربضا وربوضا، وهو مثل جثوم الطير وبروك الابل.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٥٨.

المسلمين يختارون لخلافتهم من أحَبّوا، فقبل معاوية ذلك فيا قبل من الشروط.

وكان معاوية طلب الى عبدالله بن عباس والى عبدالله بن الزبير وإلى عبدالله بن جعفر وإلى الحسن بن علي - رضي الله عنهم - البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين.

فكان أول من أجابه عبدالله بن عباس، فكتب إليه:

« أما بعد: فقد جاءني كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ، وأنْ ليس معي منك أمانٌ، وانه واللهِ ما منك يُطلبُ الأمان يا معاوية، وانما يُطْلَبُ الأمانُ من الله رب العالمين، وأما قولك في قتلي: فوالله لو فعلت لَلَقيتَ الله، ومحمد ﷺ خَصْمُكَ، فما إخاله أفلَحَ ولا أنجح[1] مَنْ كان رسول الله خَصْمَهُ، وأما ما ذكرتَ من أني ممن أَلَّبَ على عثمان وأجْلَبَ، فذلك أمر غِبْتَ عنه ولو حَضِرتَهُ ما نَسَبْتَ إليَّ شيئا من التأليب عليه، وآيمُ الله ما أرى أحدا غضبَ لعثمان غَضَبي، ولا أعظَمَ أحدٌ قتْلَهُ إعظامي، ولو شَهِدتُه لنَصرتُه أو أموتَ دونه، ولقد قلتُ وتمنيتُ يوم قُتِلَ عثمان: ليت الذي قَتَلَ عثمان لَقِيَني فقتلني معه ولا أبقى بعده، وأما قولك لي: ألعن قتلة عثمان، فلعثمان ولدٌ خاصة وقرابةٌ هم أحق بلعنهم مني، فان شاءوا أنْ يَلْعَنُوا فليلعنوا، وان شاءوا ان يُمْسِكوا فليمسكوا، والسلام »[2].

★ - وكتب نجدة بن عامر وهو زعيم من زعماء الخوارج - الى ابن عباس يسأله عن سهم ذوي القُربى: لمن هو؟

فكتب إليه ابن عباس:

« كتبت إليَّ تسألني عن سهم ذوي القربى لمن هو، وهو لنا، وان عمر بن

---

(١) أنجح: صار ذا نجح.
(٢) الامامة والسياسة ١: ١٣.

الخطاب ـ رضي الله عنه ـ دعانا الى أن نُنكح منه أيِّمنا[1]، ونَقْضِيَ منه مَغْرَمنا، ونخدم منه عائلتنا، فأبينا الا أن يسلمه لنا: وأبى ذلك علينا[2].

★ ـ ولما أخرج عبدُالله بن الزبير عبدَالله بن عباس من مكة الى الطائف تلقاه أهلها، فقالوا: مرحبًا يا بن عم رسول الله ﷺ أنت والله أحبُّ إلينا وأكرم علينا مِمَّن أخرجك، هذه منازلنا تَخَيَّرْها، فانزِل منها حيث أحببتَ، فنزل مَنْزِلا، فكان يجلس إليه اهلُ الطائف بعد الفجر وبعد العصر، فيتكلم بينهم، كان يحمد الله ويذكر النبي، ﷺ وآله والخلفاء بعده، ويقول: ذَهبوا فلم يَدَعوا أمثالهم، ولا أشباههم، ولا مَنْ يُدانيهم، ولكن بقيَ أقوام يطلبون الدنيا بعمل الآخرة، ويَلْبَسُون جلود الضأن تحتها قلوبُ الذئاب والنمور، ليظن الناسُ أنهم من الزاهدين في الدنيا، يُراءون الناس بأعمالهم، ويُسخطون الله بسرائرهم، فادْعوا الله أن يَقْضيَ لهذه الأمة بالخير والإحسان، فيولِّي أمْرَها خيارها وأبرارها، ويُهلِك فُجّارها وأشرارها، ارفعوا أيديكم الى ربكم وسَلوه ذلك، فيفعلون، وبلغ ذلك ابن الزبير فكتب إليه:

«أما بعد: فقد بلغني أنك تجلس بالطائف العصرين[3] فَتُفْتِيهم بالجهل، تعيب أهل العقل والعلم، وان حِلْمِي عليك، واستدامتي فَيْئَك، جرآك عليّ، فاكْفُف ـ لا أبا لِغَيْرِكَ ـ مِنْ غَرْبِك[4] وارْبَعْ على ظَلْعِكَ[5]، واعْقِل ان

---

(١) الأيم: العزب رجلا كان أو امرأة سواء تزوج من قبل أو لم يتزوج.

(٢) كتاب الخوارج لأبي يوسف ص ٢٤.

(٣) العصران: الغداة والعشي ومنه حديث علي «ذكرهم بأيام الله واجلس لهم العصرين» أي بكرة وعشيا وفي الحديث: «حافظ على العصرين» يريد صلاة الفجر وصلاة العصر. سماهما العصرين لانهما يقعان في طرفي العصرين وهما الليل والنهار، والاشبه أنه غلب أحد الاسمين على الآخر، كالعمرين لأبي بكر وعمر، والقمرين للشمس والقمر.

(٤) الغرب: الحدة.

(٥) ربع كمنع: وقف وانتظر وتحيَّن ويقال اربع على ظلعك: أي أنك ضعيف فانته عما لا تطيق.

كان لك معقول[1]، وأكْرِم نفسك، فانك إن تُهِنْها تجدْها على الناس أعظم هوانًا، ألم تسمع قول الشاعر:

فنفسَك أكرِمْها فانك ان تَهُن ... عليك فلن تَلْقَى لها الدهرَ مُكْرِما

واني أقسم بالله لئن لم تنته عما بلغني عنك، لتجِدنَّ جانبي خَشِنا، ولتجدنِّي الى ما يردَعُك عني عَجِلا فان أشفى[2] بك شقاؤك على الرَّدَى فلا تلم الا نفسك»[3].

فكتب إليه ابن عباس:

«أما بعد: فقد بلغني كتابك، قلتَ: اني أُفتي الناسَ بالجهل، وانما يُفتى بالجهل مَنْ لم يعرفْ من العلم شيئًا، وقد آتاني اللهُ من العلم ما لم يُؤْتِك، وذكرتَ أن حِلْمك عنى واستدامتك فَيئي جَرَّءاني عليك ثم قلت: أكفُف من غَرْبك، وارْبَعْ على ظلعِك، وضربت لي الأمثال «أحاديث الضَّبعُ»[4] متى رأيتَني لِعُرامك[5] هائبًا، ومِنْ حَدَّكَ ناكِلاً؟[6] وقلتَ: لئن لم تكفُف لتجدن جانبي خَشِنًا، فلا أبقَى اللهُ عليك ان أبْقيتَ، ولا أرعى عليك أن أرْعَيْتَ[7]، فوالله لا انتهي عن قول الحق، وصفة أهل العدل والفضل، وذَمِّ الآخرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، والسلام»[8].

---

(١) معقول: عقل.

(٢) أشفى: أشرف.

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤٨٧.

(٤) في الأمثال «أحاديث الضبع استها» يزعمون أن الضبع تتمرغ في التراب ثم تقعي. «أقعى الكلب: جلس على أسته» فتتغنى بما لا يفهمه أحد، فتلك أحاديث استها، وهو مثل يضرب للمخلط في حديثه.

(٥) عرام الجيش: حدتهم وشدتهم وكثرتهم.

(٦) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولا: نكص وجبن.

(٧) أرعى عليه: أبقى.

(٨) شرح ابن أبي الحديد ٤: ٤٨٧.

كلام لا تبلى جدته:

وبعد... فهذه بلاغة ابن عباس، وهذه رسائله، بل هذا فكره وعقله، تعرفنا على الجملة بالقليل المأثور عنه، طريقته ومنهجه، وعلمنا كيف يبالغ في اختيار كريم ألفاظه، ويسلكها في سلكه، ويرصعها في عقوده، فتجيء جزالة من دون تعمل، وسلاسة من غير تبذل، ونمطا عاليا من السهل الممتنع، يتدفق حكمة ويسيل بيانا.

ابن عباس أحد أصحاب الرسول الكريم القلائل، الذين زانوا بما صاغوا من الكلام أدب القرن الأول الهجري. واختطوا لمن بعدهم خطط التفكير وبلاغة التصوير... وكلامه في أعلى مراتب البلاغة والأدب والفصاحة لا تَبلى جِدته على مرور الأيام وتعاقب الحدثان.

الفصل الخامس
الحكمة في أدب ابن عباس

الحكمة: هي خلاصة تجارب الإنسانية.. وهي قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالناس والحياة، ويتضمن حكما صائبا في أمر بخير أو نهي عن شر..

وأدب الحكمة معروف عند جميع الأمم القديمة ومنهم العرب في جاهليتهم واسلامهم، فلقد كثرت الحكمة والحكماء في الجاهلية.. وكان في كل قبيلة حكيم تفزع إليه الناس في الشدائد والمشكلات والخصومات والمنافرات..

والحكمة تكسب الكلام سحرا وحلاوة، وتجعله مقبولا في الذوق قريبا الى القلب، مسلما به من العقل، واذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا[1].

ولما جاء الإسلام العظيم، ونزل القرآن المعجز.. أذاع بين العرب والمسلمين أدب الحكمة، ورفع من شأن العقل واعتز به، وجاءت أكثر آيات الكتاب المبين، وأكثر نصوص الأحاديث القدسية والأحاديث النبوية حكما جليلة، استفادت منها الإنسانية وأثرى بها العقل والفكر، وأفاد منها الناس في دنياهم وفي دينهم، وكانت بلاغة الصحابة حكما صادقة صائبة فهمها كل الناس وتأثروا بها واستمدوا منها مناهج في السلوك والأخلاق والآداب..

---

(١) انظر الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الأسلام ص ٥٥ د. خفاجي.

وابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أحد الذين قالوا عن خبرة وتجربة وأعطوا للناس نماذج من حكمهم في شتى ألوان بلاغاته ومأثوراته وبعض المصادر تقتصر ـ في شيء من فصوله ـ على رواية حكمته فقط، غير موصولة بلون معين من أدبه، كرسالة أو وصية أو غيرهما.. ولتشابه أسلوب ابن عباس في أدبه كله، لم يكن سهلا ردّ هذه الحكمة الى واحد من هذه الفنون الأدبية. والحكمة في أدب ابن عباس يسوقها لنا عبارة موجزة قل أن تطول فيها الجملة، فقد تتكون من جملتين: مثل: التواضع من مصايد الشرف. أو إن الأدب الصالح خير من النسب المضاعف[1].

وقد تطول في عبارة محكمة يصحبها الوضوح ويتخللها التقسيم وذلك كثير في كلامه وحكمه ومنه قوله:

من لم يجد مسَّ نقص الجهل في عقله وذُلَّ المعصية في قلبه ولم يَستبن موضع الخلة في لسانه عند كلال حدّه عن حد خصمه فليس ممن يفزع عن ريبه ولا يرغب عن حال معجزة، ولا يكترث لفضل ما بين حُجة وشبهة.. قالوا: وذكر ابنه «علي» بلاغة وحكم أبيه وأهله: فقال: اني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار علمه كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلا عن مقدار عقله..

وقد تأخذ حكمة ابن عباس حظها من زينة اللفظ دون كلفة، كما قد يستعين في ابراز معناها بلون من أساليب البيان ومنها: الرخصة من الله صدقة، فلا تردوا صدقته..

وأيضا: ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: حليم من أحمق، وبرٌّ من فاجر وشريف من دنيء[2].

---

(١) انظر زهر الأداب ج ٢ ص ٢٨٦.

(٢) انظر زهر الآداب ج ٢ ص ٢٨٢.

وقوله: لكل داخل هيبة فابدءوه بالتحية، ولكل طعام حشمة فابدءوه باليمين.

وقوله: الدنيا كلها هموم.. فما كان منها في سرور فهو ربح.

وقوله: كفى المرء نبلا أن تعد معايبُه.

أخذها يزيد بن محمد المهلبي فقال:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلُّها كفى المرء نبلا أن تُعد معايبه

وليس لحكمة ابن عباس ـ مكان بعينه ـ من حديثه، وانما يرسلها حيث تحل من الكلام في صدره ولنستمع إليه وهو واقف على قبر الامام الحسن وقد اغرورقت عيناه بالدموع فقال[1]:

رحمك الله أبا محمد! فلئن عزَّت حياتك، لقد هدَّت وفاتُك، ولنعم الروحُ روحٌ تضمنه بدنك ولنعم الجسدُ جسدٌ تضمنه كفنُك، ولنعم الكفن كفن تضمنه لحدُك، وكيف لا تكونُ كذلك وأنت سليلُ الهدى، وخامس أصحاب الكِساء[2] وخَلَفُ أهل التُّقَى، جدُّك النبيُّ المصطفى، وأبوك علي المرْتَضَى، وأمك فاطمةُ الزهراء، وعمك جعفر الطيار، في جنة المأوى وَغَذَتْك أكُفُّ الحق، ورُبِّيتَ في حِجْر الإسلام، ورضعت ثَدْي الإيمان، فَطِبْتَ حَيًّا ومَيْتًا، فلئن كانت الأنفسُ غير طيِّبة لفراقك، إنها غيرُ شاكَّةٍ أن قد خيرَ لك، وإنك وأخاك لسيِّدا شبابِ أهل الجنة، فعليك يا ابا محمد منا السلام[3].

وحكمة ابن عباس بعضها مطروق يسير على ألسنة الناس وبعضها من تجربته وخبرته الذاتية بالحياة، وبعضها أخذه عن القرآن الكريم وكثيره أخذه عن ابن عمه رسول الإسلام، أو عن كلام الحكماء.

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٧، ومروج الذهب ج ٢ ص ٥١.

(٢) أصحاب الكساء هم: النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

(٣) انظر زهر الأداب ج ٢ ص ٦٠ - ٦١.

يقول: صاحب المعروف لا يقع، فان وقع وجَدَ مُتَّكأً..

الحرمان خير من الامتنان، مِلاك أمركم الدين وزينتكم العلم، وحصون أعراضكم الأدب، وعزكم الحلم، وحليتكم الوفاء.. القرابة تُقطع، والمعروف يُكْفَر، ولم يُرَ كالمودة، لا تُمارِ سفيها ولا حليما، فان السفيه يؤذيك، والحليمَ يقليك (يبغضك) واعمل عمل من يعلم أنه مجزِيّ بالحسنات مأخوذ بالسيئات..

ولا شك أن حكمة ابن عباس - رضي الله عنهما - تنبع من معين الفكر الإسلامي وجاءت في معارض شتى من الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع وكل ما ينفع الناس في حياتهم وآخرتهم..

جاء في البيان والتبيين.. قال ابن عباس: اذا ترك[1] العالم قول: لا أدري، أصيبت مقاتله.

وكانوا يستحبون أن لا يجيبوا في كل ما سئلوا عنه.

وقال: من قال عندما لا يدري: لا أدري فقد أحرز نصف العلم.

وقال معاوية بن أبي سفيان لابن عباس: اني لأعلم أنك واعظ نفسه، ولكن المصدور اذا لم ينفث جَوِي[2]..

والحكمة عند أبن عباس لم تكن خلاصة تجارب فقط ولكنها معلومة امتزج فيها العلم بالخبرة وسنجدها عندما كتب قيصر إلى معاوية: أخبرني عما لا قِبْلة له، وعمن لا أب له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم، وعن شيء ونصف شيء ولا شيء، وأبعث إلي في هذه القارورة ببَزْرِ كُلِّ شيء؟

(١) انظر البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٢ للسندوبي.

(٢) أصابه الجوى: وهو حُرقة الوجد وشدته.

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة الى ابن عباس.. فقال ابن عباس: أما لا قبلة له فالكعبة، وأما ما لا أب له فعيسى ـ عليه السلام ـ وأما من لا عشيرة له فآدم عليه السلام ـ وأما من سار به قبره فيونس ـ عليه السلام ـ، وأما ثلاثة أشياء لم تُخلق في رحم.. فَكَبْشُ ابراهيم ـ عليه السلام ـ وناقة ثمود ـ عليه السلام ـ وحيَّة موسى ـ عليه السلام ـ وأما شيء فالرجل له عقل يَعْمل بعقله..

وأما نصف شيء.. فالرجل ليس له عقل، ويعمل برأي ذوي العقول، وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره..

وملأ القارورة ماء وقال: هذا بَزْر كل شيء.. فبعث به الى معاوية، فبعث به معاوية الى قيصر الروم فلما وصل إليه الكتاب والقارورة قال: ما خرج هذا الا من أهل بيت النُّبُوَّة[1]..

ومن حكمه في العزاء قال لعمر بن الخطاب يعزيه على بُني له مات فقال: عوضك الله منه ما عوضه منك..

وهذا الصبي الذي مات هو الذي كان عمر بن الخطاب قال فيه: ريحانة أشمها وعن قريب ولد بار أو عدو ضار[2].

وحكمة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تجدها وكأنها تتعانق في الأثر الأدبي الواحد، فيأخذ بعضها برقاب بعض، وترتبط الحكمة بالحكمة في وحدة عضوية محكمة فلنستمع إليه وهو يتحدث عن فضل الصداقة على القرابة:

القرابة تُقطع، والمعروفُ يكفر، وما رأيت كتقارب القلوب[3]..

---

(١) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) انظر البيان والتبين ج ٣ ص ١٦٥.
(٣) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٣١٣.

وله ايضا:

لا تحقرن كلمة الحكمة ان تسمعها من الفاجر فانما مثله كما قال الأول: رُبَّ رمية من غير رام[1].

وقال: أذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، ودع منه ما تُحبُّ أن يدع منك[2].

وذكر الغوغاء: وهِي: الدَّبا.. صغار الجراد، وشبه بها سواد الناس ـ عند ابن عباس فقال: ما اجتمعوا قَطُّ الا ضَرّوا ولا افترقوا الا نفعوا.

وقيل له: قد علمنا ما ضر اجتماعهم، فما نفع افتراقهم؟..

قال: يذهب الحجام الى دكانه، والحداد الى أكياره وكل صانع الى صناعته[3].

وله في التأديب في الصغر.. من لم يجلس في الصِّغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يُحب[4].

وله في أدب العيادة: اذا دخلتم على الرجل وهو في الموت فبَشِّروه ليلقى ربّه وهو حسن الظن، ولقنوه الشهادة ولا تُضْجِروه[5]..

ودخل عبدالله بن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية ووسَّع له الى جانبه، وأقبل عليه يُسائله ويحادثه، وزياد ساكت، فقال له ابن عباس: كيف حالك أبا المغيرة كأنك أردت أن تُحدث بيننا وبينك هجرة؟!

فقال: لا، ولكنه لا يُسلِّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين..

---

(١) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٣١٣.
(٢) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٣٣٦.
(٣) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٩٤.
(٤) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٠.
(٥) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٠.

قال ابن عباس: ما أدركت الناس الا وهم يُسلمون على إخوانهم بين يدي أمرائهم، فقال له معاوية: كُفَّ عنه يابن عباس، فانك لا تشاء أن تَغْلب الاّ غلبت[1]..

ولمكانة ابن عباس وحكمته وبلاغته ذكر فيه معاوية اذا قال لم يترك مقالا ولم يقف بعي ولم يثن اللسان على هجرة يصرف بالقول اللسان اذا انتحى ونظر في أعطافه نظر الصقر[2]..

ولابن عباس - رضي الله عنه - أقوال مشهورة، وحكم معروفة تنم عن وعي كامل، وعقل راجح، ولا شك أن هذه الأقوال خلاصة تجاربه في الحياة، أو نفحة من النفحات قبسها من منبع الحكمة، وقبس النبوة - عليه الصلاة والسلام -.

ومن أقواله:

الزهد في المعروف: لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره فانه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه «يريد الله سبحانه وتعالى»[3].

حق الجليس: قال ابن عباس: لجليسي عليَّ ثلاث: ان أرميه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له اذا جلس، وأصغي له اذا حدث[4].

- **إيناس الداخل:** قال ابن عباس: ان لكل داخل دهشة فآنسوه بالتحية[5]..

- **إيثاره السلامة:** قيل لابن عباس: ايما أحب إليك؟ رجل يكثر من الحسنات ويكثر من السيئات، أو رجل يقل من الحسنات والسيئات قال: ما

---

(١) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٢) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٠.

(٣) الكامل للمبرد: ١٢٣/٢.

(٤) الكامل للمبرد: ٢٠٥/٢.

(٥) البيان والتبيين: ٩١/٢.

أعدل بالسلامة شيئا[1].

(فضل صاحب الذنوب القليلة والعمل القليل)..

- **قل لا أدري:** قال ابن عباس - رضي الله عنه - اذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله[2].

- **خذ الأحسن:** قال - رضي الله عنه -: العلم اكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه[3].

- **أدب الحديث:** ومن أقواله وحكمه في أدب الحديث ما رواه عكرمة عنه أنه قال: حدث الناس كل جمعة مرة، فان أبيت فمرتين، فان أكثرت فثلاث مرات، ولا تملّ الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن انصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فاني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون الا ذلك الاجتناب[4]..

- **قضاء الحاجات:** قال رضي الله عنه: ما رأيت أحدا اسعفته في حاجة الا أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيت رجلا رددته عن حاجة إلا أظلم ما بيني وبينه[5]..

- **اجتنب البغي:** قال ابن عباس: لو أن جبلا بغى على جبل لدك الباغي، وقال: ما ظهر البغي في قوم قط الا ظهر فيهم الموتان[6].

---

(١) البيان والتبيين: ٢٥٧/٣.

(٢) البيان والتبيين: ٣٩٨/١ - وأنظر حياة الصحابة: ٧٢٣/٣.

(٣) البيان والتبيين: ٣٩٨/١.

(٤) البخاري: ١٥٣/٧.

(٥) شرح الكامل للمبرد: ٧٥/٥.

(٦) الحلية: ٣٢٢/١ - الموتان بضم الميم: الموت الكبير.

- **مكانة أهل العلم:** عن سفيان بن عيينة قال: بلغنا عن ابن عباس أنه قال: لو أن حملة العلم أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله وملائكته والصالحون، ولها بهم الناس، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس[1].

- **وصفه نفسه بثلاث خصال:** عن عبدالله بن بريدة قال:

شتم رجل ابن عباس فقال: انك لتشتمني وفي ثلاث: أني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأحبه، ولعلي لا أقاضي إليه ابدا، واني لأسمع بالغيث يصيب البلاد من بلدان المسلمين فأفرح به، وما لي بها سائمة ولا راغية واني لآتي على آية من كتاب الله تعالى فوددت أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم[2]..

- **ذهب الناس:** قال ابن عباس: ذهب الناس وبقي النسناس، قيل: ما النسناس؟ قال: الذين يشبهون الناس وليسوا بالناس[3].

- **أنا على ملة رسول الله:** عن أبن عباس: قال لي معاوية: أنت على ملة علي؟ قلت: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله ﷺ[4]..

- **كونوا ربانيين:** عن ابن عباس قال: كونوا ربانيين فقهاء علماء. ويقال: الرباني الذي يربى الناس بصغار العلم قبل كباره[5]..

- **اتباع الهوى:** قال ابن عباس: الهوى الله معبود وتلا قول الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ على علمٍ﴾[6].

---

(١) حياة الصحابة: ٨٠٣/٣.

(٢) الاصابة: ٩٤/٤ - والحلية: ٣٢٢/١.

(٣) سير النبلاء: ٢٣٠/٣ والحلية: ٣٢٨/١.

(٤) سير النبلاء: ٢٣٠/٣.

(٥) البخاري: ٢٥/١.

(٦) البيان والتبيين: ٢٣٥/١. والآية من سورة الجاثية، آية ٢٣.

ـ **صيامه:** عن سعد بن أبي سعيد قال: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس كيف صومك؟ قال: أصوم الاثنين والخميس، قال ولم؟ قال: لأن الأعمال ترفع فيهما فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم[1]..

ـ **امتناعه عن اعطاء الشعراء:** لما مدح عتبة بن مرداس عبدالله بن عباس: قال لا أعطي من يعصي الرحمن ويطيع الشيطان ويقول البهتان[2]..

ـ **انزاله الناس منازلهم:** عن ميمون بن مهران قال: سمعت ابن عباس يقول: ما بلغني عن أخ مكروه قط الا أنزلته احدى ثلاث منازل: ان كان فوقي عرفت له قدره، وان كان نظيري تفضلت عليه، وان كان دوني لم أحفل به.. هذه سيرتي في نفسي، فمن رغب عنها فأرض الله واسعة!..

ـ **قراءة القرآن:** وعن ابن عباس قال: لأن أقرأ البقرة في ليلة وأتفكر فيها أحب إلى من أن أقرأ القرآن هَذْرَمة..

ـ **وصفه الدينار والدرهم:** وعن ابن عباس قال لما ضرب الدينار أخذه ابليس فوضعه على عينيه وقال: أنت ثمرة قلبي وقرة عيني، بك أطغى وبك أكفر، وبك أدخل الناس النار، رضيت من أبن آدم بحب الدنيا أن يعبدك[3]..

وعن ابن عباس قال: آخر شدة يلقاها المؤمن الموت...

وعنه قال: خذ الحكمة ممن سمعت، فان الرجل ليتكلم بالحكمة وليس بحكيم، فتكون كالرمية خرجت من غير رام[4].

وبعد.. فتلك قبسات من حكمة ابن عباس وأدب ابن عباس، وتجربة ابن

---

(١) سير النبلاء: ٣/٢٣٠ ـ والحلية: ١/٣٢٨.

(٢) البيان والتبين: ١/٢٨٤.

(٣) صفة الصفوة: ١/٧٥٧ ـ والحلية ١/٣٢٨.

(٤) الحلية: ١/٣٢٨.

عباس، تمثلت فيما عرضته من نماذج مختلفة ـ تصور ذهنه الذكي، وقلبه الثري، وخلقه الرضي، ودينه السَّني..

وهي في مجموعها تلقي الضوء على ثقافته وروافدها التي صقلت حسه وذوقه، وأثرت ملكته، وغذت موهبته وهي ثقافة إسلامية عربية صميمة، قوامها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وما أضافه ابن عباس الى ثقافته من تجارب وخبرة بالحياة وطول معاشرة لها، وفهم لأحداثها..

رحمه الله..

الفصل السادس
مكانة ابن عباس الأدبية

مما لا شك فيه أنه كان للعرب في جاهليتهم أدب ساوق حياتهم وساير أحوالهم، وصور مجالي تفكيرهم وعواطفهم، وترجم عن مظاهر المجتمع من حولهم، وانطباع الأدباء ازاء المشاهد التي كانوا يرونها، والأحداث التي تروى من حولهم وتستحوذ على مشاعرهم.

وقد تمثل هذا الأدب ـ فيا بقي وما روي لنا من شعرهم وامثالهم وحكمهم ووصاياهم وخطبهم ومنافراتهم ومحاوراتهم ونثر كهانهم[1]... ولقد صبغت هذه الآداب بالصبغة الجاهلية في مضمونها وخصائصها وسماتها، وعبرت عن الروح الجاهلية وما كان يسودها من منفرات ومنازعات وأحقاد وأهواء وحروب وفتن، لا سيا فن الشعر الذي سيطرت عليه العصبية القبلية، وكان الشاعر لسان القبيلة الذي ينطق باسمها ويشيد بوقائعها وانتصاراتها وأيامها ومفاخرها ويسلط لسانه على أعدائها يهجوهم، وينافرهم، ويخاصمهم!..

فلما جاء الإسلام بعظمة تعاليمه، وسماحة وجهه، وجمال هدفه، طوى ذلك الرداء الخلق، بما حوى من تنافر وتناحر وأحقاد وغارات، وخصومات

(١) انظر: الحياة الأدبية في عصري الجاهلية وصدر الأسلام للدكتورين خفاجي وصلاح عبد التواب ص ٢٥٩.

وثارات، كادت تفتك بالمجتمع الذي نشأت فيه، وتعيده الرجعى نحو الفناء!!..

وقد أعطى إشارة الضوء الأحمر قول الرسول ـ صلوات ربنا وسلامه عليه ـ في إحدى مأثوراته:

أيها الناس ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء.. كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى».

واذا كان هذا الدين الجديد قد هذب طبائع النفوس، وكبح جماح شهواتها المسعورة، وأتى على الناس بالنافع المفيد في دنياهم وآخرتهم فانه كان له تأثير بليغ في النهوض بأدبهم ولغتهم، ودفعها دفعا جديدا للتعبير عن أغراضه الجديدة، وأهدافه النبيلة..

وذلك عن طريق ـ القرآن الكريم ـ والأحاديث النبوية الشريفة، اللذين تأثر بهما الناس روحا وجوهرا وأسلوبا وتعبيرا وتصويرا وبهما انتقلت لغة العرب من حال إلى حال، وتبدلت مقاييس الكلام، وسمات التعابير من مظهر إلى مظهر، حيث أخذت ثوبا قشيبا نفذت به إلى القلوب والأسماع، واستطاعت أن تمازج الأفئدة فتؤثر فيها تأثيرا شاهقا..

وذلك بما أفاض عليها القرآن من ألفاظ جديدة، وأساليب بليغة، وأنماط من الصور، وطرائق من التعابير المختلفة، وحسن الانتقال من غرض إلى غرض، ومن معنى إلى معنى آخر، وغير ذلك ـ من آثار أحدثها القرآن الكريم في لغة العرب..

وما أفادته من بيان معلم الإنسانية، وبلاغته، وقوة بيانه، وقدرته على اختراع الصور والتعابير التي لم يكن للعرب بها عهد من قبل[1] ولقد كانت

---

(١) انظر: أثر القرآن في اللغة العربية للشيخ الباقوري.. وانظر تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ٥٠ ـ د/ شوقي ضيف..

بلاغة الرسول ﷺ مضرب المثل، ومثار إعجاب الناس قديما وحديثا، كما كانت مقدرته على التعبير والتصوير والتأثير والاقناع موضع اعجاب كبار الصحابة - رضي الله عنهم وأرضاهم -..

وإذا كان العرب قد اشتهروا بأنهم قادة البلاغة، وأئمة الفصاحة تنقاد لهم أزمة القول، وتنصاع لهم أعنة الكلام، فان الرسول ﷺ كان أصدقهم قاطبة إذا حدث، وأبلغهم اذا تكلم، وأفصحهم اذا خطب، وأقدرهم على الإتيان بالحجة المقنعة، والأسلوب المؤثر والبيان البليغ الذي يجلو الحق، ويكشف عن الصواب، ويصل الى الغاية من أقرب طريق، وتلك سمة البلاغة وآية العبقرية ووحي الإلهام، وهو كما أدبه ربه، وعلمه خالقه لم ينطق عن الهوى، ولم ينشأ هكذا دون مؤدب أو معلم، وانما أدبه ربه فأحسن تأديبه.. وتضافرت عناية الله عليه، فجعلت منه إماما بليغا ورسولا حكيما، ومعلما ملهما، وأستاذ مدرسة.. تخرجت فيها العبقريات الفذة، التي أضاءت للعالم طريق الحق، وسلكت به مسلك الهداية والنور والتقدم والحضارة..

وصدق الله العظيم: ﴿**هو الذي بعثَ في الأُمِّيين رسولاً منهُم يتلُو عليهم آياتِهِ ويزكّيهم ويعلِّمُهُم الكتابَ والحِكمةَ وإنْ كانوا مِنْ قبلُ لفي ضَلالٍ مبينٍ**﴾[1].

وعلى هذا يمكننا أن نقول: ان من أغنى الروافد الثقافية التي أثرت في الأدب في عصر صدر الإسلام - ذلك العصر - الذي عاش فيه ابن عباس - هو الإسلام نفسه - بكتابه المبين وحديث رسوله العظيم..

لقد تعددت ألوان الأدب في حياة ابن عباس - رضي الله عنهما - ولذلك أقدم شيئا من محاسن كلامه، وعلو كعبه وثقته العالية في نفسه.. وعلمه، وقدرته على المحاورات العلمية المأثورة..

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢.

روى المنذر عن أبيه عن الشعبي[1] عن ابن عباس أنه دخل المسجد، وقد سار الشهيد الحسين بن علي - رضي الله عنه - الى العراق فإذا هو بابن الزبير في جاعة من قريش قد استعلاهم بالكلام فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عُضديْ ابن الزبير وقال:

يـا لـك مـن قُبَّـرَةٍ بمَعْمَـر خلا لَكِ الجوّ فبيضي واصْفِـري
وَنَقّـرِي مـا شِئـت أن تُنقّـرِي قـد رُفـع الفَـخُّ فماذا تَحْـذَرِي

خلت الحجاز من الحسين بن علي، وأقبلت تهدر في جوانبها فغضب ابن الزبير وقال: والله انك لترى أنك أحق بهذا الأمر من غيرك.. فقال ابن عباس: انما يرى من كان في حال شك وأنا من ذاك على يقين.. فقال أو بأي شيء تحقق عندك أنك أحق بهذا الأمر مني؟.. فقال ابن عباس: لأنا أحق ممن يدلّ بحقه.. وبأي شيء تحقق عندك أنك أحق بها من سائر العرب إلاّ بنا؟..

فقال ابن الزبير: تحقق عندي أني أحق بها منكم لشرفي عليكم قديمًا وحديثًا. فقال: أنت أشرف أم من قد شرفت به؟!..

فقال: ان من شرفت به زادني شرفا الى شرف قد كان لي قديما وحديثا. قال: أفَمِنِّي الزيادة أم منك؟! قال: بل منك. فتبسم ابن عباس، فقال: يا ابن عباس دعني من لسنك هذا الذي تقلبه كيف شئت، والله لا تحبوننا يا بني هاشم أبدا؟.

قال ابن عباس: صدقت.. نحن أهل بيت مع الله - عز وجل - لا نحب من أبغضه الله تعالى. فقال: يا بن عباس ما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة؟!.. قال: انما أصفح عمن أقرَّ وأما عَمَّن هَرَّ فلا!!.. والفضل لأهل الفضل.

---

(١) المحاسن والمساوئ للبيهقي ص ٩٥.

قال ابن الزبير: فأين الفضل؟.. قال: عندنا أهل البيت لا تصرفه عن أهله فتظلم ولا تضعه في غير أهله فتندم!!.

قال ابن الزبير: أفلستُ من أهله؟!.. قال: بلى إن نبذت الحسد، ولزمت الجدد، وانقضى حديثهما، وقام القوم وتفرقوا.

ان الأدباء الأصلاء، لا ينشدون التفوق على خصومهم في المحاورات والمناقشات، ولا ينشدون النصر - مجرد النصر، انما هم ينشدونه عفّا شريفا، عادلاً، والعظمة عند ابن عباس.. ليست اندفاعا عرمرمًا تزجيه طاقاته الأدبية، وعلوه البلاغي، انما هو التزام يكاد يكون مطلقا لمنهج الرسول الذي آمن به، والدين الذي حمل رايته!! وهكذا نرى ابن عباس.. صاحب الولاء للحق، وكلمة النور تسري في أرجاء الأمة تحمل معنى الصدق. والحق. وإليك هذا المثل في لقائه مع الأمير.. معاوية بن أبي سفيان: يروى عن ابن عباس أنه قال:

قَدِمْت على «معاوية» وقد قعد على سريره، وجمع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلت فَسَلَّمْت وقعدت. فقال: من الناس يا بن عباس؟!.. فقلت: نحن. قال: فإذا غبتم؟ قلت: فلا أحد، قال: ترى أني قعدت هذا المقعد بكم؟.. قلت: نعم، فيمن قعدت؟!» قال: بمن كان مثل حرب بن أمية..

قلت: من أكفأ عليه اناءه وأجاره بردائه، قال فغضب وقال: وَارِ شخصك مني شهرا، فقد أمرت له بصلتك وأضعفتها لك.. فلما خرج ابن عباس قال لخاصته: ألا تسألوني ما الذي أغضب معاوية؟!..

إنه لم يلتق أحد من رؤساء قريش في عَقَبَة ولا مضيق مع قوم الاّ لم يتقدمه أحد حتى يجوزه.. فالتقى حرب بن أمية مع رجل من بني تميم في عقبه فتقدمه التميمي فقال حرب: أنا حرب بن أمية، فلم يلتفت إليه وجازه، فقال: موعدك مكة؟! فبقي التميمي دهرا ثم أراد دخول مكة فقال: من يجيرني من حرب بن أمية؟!.. فقالوا: عبد المطلب!! قال: عبد المطلب أجلّ

قدرا من أن يجير على حرب.. فأتى ليلا دار الزبير بن عبد المطلب فدقَّ عليه.. فقال الزبير للغيداق: قد جاءنا رجل إمّا طالب حاجة.. واما طالب قرى!! واما مستجير وقد أعطيناه ما أراد. قال: فخرج إليه الزبير. فقال التميمي:

لاقيتُ حَرْبًا في الثَّنيَّةِ مُقْبِلاً	والصبحُ أبلجَ ضوءَهُ للسَّارِي
فدعا بصوتٍ واكتنى ليَروعُني	ودعا بدَعْوته يريدُ فِخَاري
فتركته كالكلب يَنْبحُ وحْدَهُ	وأتيتُ أهل مَعالم وفَخَار
لَيْثًا هِزَبْرا يُستجار بقُربْه	رَحْبَ المَباءَةِ مُكْرِمًا للجار
ولقد حَلَفْتُ بزمزم وبمكة	والبيت ذي الأمجاد والأسقار
ان الزبيرَ لما يعي من خوفه	ما كبَّر الحُجّاجُ في الأمصار

فقال: تقدم فانا لا نتقدم من نَجيره.. فتقدم التميمي فدخل المسجد فرآه حرب. فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف فعدا حتى دخل دار عبد المطلب فقال: أجرني من الزبير، فأكفأ عليه جفنةً كان هاشم يطعم فيها الناس، فبقي هناك ساعة ثم قال له: أخرج، فقال: كيف أخرج وتسعة من ولدك قد احْتَبَوْا بسيوفهم على الباب؟! فألقى عليه رداء كان كساه اياه سيف بن ذي يزن له طُرّتان خضراوان، فخرج عليهم فعلموا أنه قد أجاره فتفرقوا عنه..

وحضر مجلس معاوية بن أبي سفيان عبدالله بن عباس وابن العاص فأقبل عبدالله بن جعفر، فلما نظر إليه ابن العاص قال: قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمني، والطربات بالتغنّي، مُحب للقيان، كثير مزاحه، شديد طِماحُه، صَدوقٌ عن السّنان، ظاهر الطَّيش، لين العيش، أخّاذ بالسلف، منفاق بالسَّرف فقال ابن عباس: كذبت والله.. أنت وليس كما ذكرت، ولكنه لله ذكور، ولنعمائه شكور، وعن الخفا زجور، جواد كريم، سيد حليم، ماجد يهميٌّ، ان ابتدأ أصاب، وان سئل أجاب، غير حصر ولا هياب..

فسكن القوم وانصرفوا[1].

وقد ذكر أنه اجتمع من بني هاشم جماعة عند معاوية يوما، فأقبل عليهم فقال[2]: يا بني هاشم.. والله ان خيري لممنوح، وان بابي لكم لمفتوح.. فلا يقطع خيري عنكم علة، ولا يوصد بابي دونكم مسألة.. واني نظرت في أمري وأمركم فرأيت مُختلفا: انكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني، واذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم قلتم: أعطانا دون حقنا، وقصر بنا عن قدرنا، فصرت كالمسلوب، والمسلوب لا حمد له، هذا مع انصاف قائلكم، واسعاف سائلكم، قال: فأقبل ابن عباس فقال: أما والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك، فالله أوسع خيرا منك ولئن أغلقت دوننا بابًا لنكفّن أنفسنا عنك، وأما هذا المال فليس لك منه الا ما لرجل واحد من المسلمين ولنا في كتاب الله حَقّان: حق في الغنيمة، وحق في الفيء... فالغنيمة ما غلبنا عليه.. والفيء ما احتسبناه.. ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خفٌ ولا حافر..

كفاك أم أزيدك؟! قال معاوية: كفاني فانك لا تهر ولا تنبح!.

وهذه الروافد الثقافية التي تعددت مجالاتها عند ابن عباس وأسلوب الحوار المقنع، والجرأة في الحق أمام أمير المؤمنين لا يخشى في الحق لومة لائم، انما يصدع بالحق، ويقول الكلمة الحرة لا يبالي بعدها ما الله فاعل فيه.. لأنه يقولها ولاء للحق، وخالصة لوجه الله فهل يروعه أن تُقطع عنه منحة، أو يذهب مال، أو أن تُولى الدنيا مدبرة!! وهو الذي كان يردد دائما.. قل الحق ولو كان علقما؟!.

فنحن أمام نسيج فريد في الرجال، وطراز جديد من العلماء تركوا بصماتهم

---

(١) المحاسن والمساوئ للبيهقي ص ٩٠.

(٢) العقد الثمين ٥/١٩٠. ونكت الهميان ص ١٨٠.

على التاريخ حتى يشع الحق واضحا فريدا عبر أنماط من السلوك الفريد الألق المشع!!

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ما رأيت رجلا لي عنده معروف الا أضاء ما بيني وبينه..

وقال: أربعة لا أقدر على مكافأتهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرت قدماه في المشي في حاجتي، فأما الرابع فما يكافئه عني الا الله ـ عز وجل ـ قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر فيمن يقصده.. ثم رآني.. أهلا لحاجته فأنزلها بي[1].

وقال الجاحظ: «ان كلام الناس في طبقات، كما ان الناس انفسهم في طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والقبيح، والخفيف والثقيل وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا».

---

(١) طبقات الشيرازي ص ١٠ ـ وتذكرة الحفاظ ص ٤٠.

خاتمة

الحمد لله حمد الشاكرين، وصلى الله وسلم على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى الأئمة المجتهدين والعلماء المجاهدين، الذين أعلوا كلمة الحق باجتهادهم وجهادهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فما أشد الحاجة إلى نشر سيرة السلف الصالح من هذه الأمة، وإلى بعث ماضيها الزاهر الزاخر، ليتصل حاضر الأمة الإسلامية بماضيها، وليقف عليها الشباب المثقف ليرى من خلال تلك السير عظمة أولئك الرجال الذين بنوا مجد الإسلام وتاريخه المؤثل، ثم لتكون حياة هؤلاء العظماء قدوة لشباب الإسلام في هذه الأيام، ثم بعد ذلك لتظهر روعة هذا الإسلام الشاهق، ولن تظهر روعته واضحة جلية الا اذا رأيناه مترجما في حياة قادته: انتماء وولاء، وعقيدة وعبادة، ودعوة وجهادا، وثقافة وأخلاقا.

ان عملية البناء التي استهدفت الإنسان في صدر الإسلام استمدت مقوماتها من كتاب الله الخالد، وارتوت من نبعه الطهور حتى تقدم لتلك الفترة الضآلة من حياة البشر نموذج حضارة عصرية متكاملة تقوم على العلم والإيمان، وتنقذ البشر من وهدة الجاهلية حتى تستقيم على منهج الله.

لأن هذه القيم المجيدة ـ حين تلتمس في القرآن.. وتستمد منه مباشرة

فانها ستمنحنا الثقة ـ وتبث في قلوبنا العزم ونقبل على تطبيقها برضى وإذعان وايمان.

وعندما يرى المسلم ذلك كله في حياة ابناء مدرسة معلم الإنسانية ويقارن ذلك بحياة الذين جاؤوا بعدهم، يدرك سر انتشار الإسلام واستبحاره على أيدي اولئك، وسر انكماش الإسلام وانحساره على ايدي من بعدهم.

وبعد المقارنة، وعندما يدرك الفارق الكبير بين رجال ورجال بين الذين ربتهم مدرسة القرآن، ورجال القرون الحالية سننشد مع الشاعر قوله:

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم   ليس الصحيح اذا مشى كالمقعد

ولقد برهن هذا الإسلام العظيم بما تزاحم في تاريخه الطويل من أبطال على جدارته وسموه في تقديم النماذج الباهرة أشرق بهم تاريخ الإسلام وازدانت بهم عصوره، وعالمنا البحر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بما تجتمع فيه من أنواع المحامد والفضائل، علما وعملا، وعبادة وجهادا، وورعا وأخلاقا ـ وهو خير من يكون مثلا أعلى، ونموذجا فريدا لما ينبغي أن يكون عليه شباب الإسلام.

ان سيرة أولئك الأفذاذ من المفكرين والعلماء ورواد البحث والثقافة والمعرفة المستفيضة، الذين لا تشوب حياتهم أية شائبة من تقصير في البحث، أو عزوف عن المعرفة، أو كلل في التفكير، أو عدم الاستقصاء والتتبع لآفاق العلوم، وجزئيات المسائل والقضايا، مهما دقت واستعصى حلها، وانما كانوا بحق جبابرة في الهمة، اعلاما في الرأي والفكر، عباقرة في كل فن من فنون العلم، يسوقهم إلى السباق رغبة ذاتية، وحب أصيل للمعرفة لا تعكره نزعة مادية، أو شره دنيء ويتوجه باخلاص وتفان منقطع النظير للوصول إلى الحق الأبلج، والرأي الأصلح.

ولا أعدو الحقيقة أو أتهم بالتعصب ان قلت: ان هدى الإسلام ورسالته الساحقة في مجالات الفكر والعقل والبحث، هي التي غذت نفوس أولئك

الخلص من علمائنا الأبرار بالزاد الدائم الذي لا ينفد، فأكسبهم اخلاصهم العلمي رفعة ومجدا وإكبارا في نفوس المعاصرين لهم، ومن تلاهم في مختلف الأعصر والأزمان.

واذا كان تاريخ الأمم يقاس بتاريخ رجالاتها وما أنجبته وتمخضت عنه من أعلام، فتاريخنا ـ ولله الحمد ـ حافل بآثار شخصيات كبرى، رباها الإسلام في مدرسته، وحباها بعطفه، وغذاها بلبانه، فكانوا المثل الرفيع للأجيال يهتدون بنبراسهم، ويستضيئون بنورهم، ويتحفزون للاقتداء بهم.

وهذه هي غايتنا من التعريف بعلم من أعلام الدنيا الذي أجمع من قبله ومن عاصره ومن بعده على تقدير علمه وسعة معرفته، والتماس الصواب لديه.

فأصبح من الضروريات معرفة سيرة هذا البحر وأدبه وبلاغته اذ ان التأريخ لرجال الفكر وقادة الرأي، وكبار الفقهاء والعلماء أهم من التأريخ لرجال السياسة والحكم.

ثم اننا اذا عرفنا ان مكان ابن عباس ـ رضوان الله عليه ـ الذي عاش فيه هو مدينة الرسول ﷺ وان الدار التي رضع فيها لبان العلم والمعرفة هي دار خالته أم المؤمنين وزوج رسول الله ـ ﷺ ـ فكان ينام هو ورسول الأمة المحمدية تحت سقف واحد، بل ينامان على وسادة واحدة ويتنفس الفتى في جو محمد منير، فشرب وارتوى من ذلك المعين الصافي، ونهل من ذلك المورد العذب.

اشتد بنا الشوق للتعرف عليه، فمما لا شك فيه أن للمكان والزمان تأثيرا في تكوين شخصية الإنسان ونتاجها وعطائها. واذا انضم لذلك استعداد شخصي وهمة عالية وعزيمة قعساء ماضية، انجبت تلك الشخصية الاعاجيب وأصبحت فلتة من فلتات الزمان، وآية من آي الله العظمى في الكون.

ولقد أدى ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وقام بدوره وواجبه الأرفع خير

قيام، فاستحق رضا الله تعالى بما أعده له ولأمثاله من جنات النعيم المقيم، قال عز من قائل: ﴿والسَّابقون الأوَّلُون من المهاجرين والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم وَرَضُوا عنه وأَعَدَّ لهم جَنَّاتٍ تجري تحتَها الأنهارُ خالدين فيها ابدا، ذلك الفوزُ العظيم﴾[1] وقال تعالى: ﴿وآخرين مِنْهم لمَّا يَلحَقُوا بهم وَهُوَ العزيزُ الحكيم﴾[2].

وقد شهد رسول الله ﷺ لهم بالخيرية في قوله: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق إيمانهم شهادتهم، ويشهدون قبل أن يستشهدوا».

ومنهجي في البحث، هو - كما ذكرت في المقدمة - منهج مقارنة وتحليل وتقييم مع مبادئ الإسلام، وليس مجرد تأريخ، اذ أن التاريخ سيكون مجرد نقل وتكرار لما في كتب التراث، بالرغم من صعوبته أحيانا لما يتطلب من دقة النقل، والتوفيق بين الروايات المتعارضة، بل قد يكون مدعاة للسأم والملل، خصوصا في مثل الكتابة عن أدب ابن عباس - رضي الله عنه - الذي توجه البحث بأكليل من الغار ثناء واعجابا ومفخرة فاعتبروه من أعلام الدنيا، وابن الاسلام الذي أوجد آلاف العباقرة أمثاله. وسيظل الإسلام - لمن اهتدى به - ذلك الجبل الأشم الذي ترتسم على صفحاته صور العديد من العبقريات الفذة، والمثل الرائع لكل علو ومجد وتقدم علمي.

وكيفية مقارنة بلاغة ابن عباس - رضي الله عنه - مع هدي الإسلام: هو عرض المبدأ أو الحكم الإسلامي المقرر في كل جزئية مدعما بسنده القرآني وبالهدي النبوي، ثم التنويه بجلائل أعمال هذا الرجل العظيم كمثل صالح للقدوة الحسنة به، وواقع حي مطبق لقيم الإسلام، وترجمان أمين صادق لتعاليم المصطفى ﷺ مما يعتبر حجة على الأجيال والناشئة في كل زمان يظل

---

(١) سورة التوبة، آية ١٠٠.

(٢) سورة الجمعة، آية ٣.

فيه الإسلام هو الأصل والمنبع، وأما الرجال فهم عنوانه، به نعرفهم، لا بهم يعرف لأن الرجال يعرفون بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال، ولأن الإسلام لا يقر ابدا ما يعرف بعبادة الأشخاص وتمجيد ذات أحد من البشر، مهما كان، حكما أو عالما أو مخترعا أو قائدا بارزا في الفتوحات الشهيرة.

وبعد هذه المقارنة، والإشارة الى ما تفرد به من عظمة الرأي اخلص الى المغزى الذي هو رائد البحث، ومفتاح النور الأخضر ومشعل الهداية الأنضر، وعين الهدف الذي نبغيه في مسيرة هذه الحياة الصاخبة بالمادية الحارقة، وهجر القيم والأخلاق والأديان.

وكما أنه لم ينشر للآن سفر عن هذا العالم المقتدر، وان كانت آراؤه دونت ونقلت بالتلقي والحفظ والمشافهة وهي مبثوثة في جل كتب التفسير والحديث والفقه ومعظم كتب التراث الإسلامي، حتى أنه ملأ الدنيا علما وأثرى من حوله ثراء عظيما، هذا ـ مع العلم ـ بأن تدوين التفسير والحديث والفقه بالمعنى الشامل قد تأخر عن عصر صدر الإسلام.

ومن هنا كان لزاما على أبناء هذا الجيل من المسلمين أن يعملوا على رصد معالم حضارتنا، وتجلية مفاخرها، ومن خير ما يحقق هذه الغاية، دراسة اعلامها المبرزين الذين أتيح لهم أن يسهموا في تخطيط أبعاد تلك الحضارة، وإرساء قواعدها، والكشف عن بعض جوانب عظمتها.

وقد رأيت من واجبي أن آخذ نفسي بدراسة علم من أعلام الأدب والبيان في هذه الأمة فمهدت لذلك بتقدمة عن شخصية ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ونسبه وأسرته وحياته فذكرت أنه يلتقي نسبه ونسب رسول الله ﷺ في جدهما عبد المطلب وولد ـ رضي الله عنه ـ قبل الهجرة النبوية الشريفة بعامين أو ثلاث ـ بالشعب والنبي الكريم والذين آمنوا معه في حصار رهيب ومقاطعة ظالمة أكلوا بسببها ورق الشجر.

ومع نور الفجر الوليد كانت أمه ـ لبابة الكبرى ـ تتهادى داخل الشعب

ورسول الإسلام يناديها، يا أم الفضل: انك حامل بغلام، فإذا ولدت فأتني به، فلما ولدته أتته به، فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في أذنه اليسرى، وسماه عبدالله ثم ألباه وحنكه.

وهو واحد من عشرة بنين وثلاث بنات.

وامه: الصحابية الورعة لبابة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم.. أم الفضل. وهي زوج العباس بن عبد المطلب ولدت للعباس ستة رجال لم تلد امرأة مثلهم وهم الفضل، وبه كانت تكنى ويكنى زوجها العباس أيضا (أبو الفضل) وعبدالله الفقيه، وعبيدالله العالم، ومعبد، وقثم، وعبد الرحمن.

وهي أخت ميمونة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ ولبابة الصغرى هي أم خالد بن الوليد وفي اسلامها وصحبتها نظر والصحيح أنها أسلمت وعاشت إلى ما بعد وفاة ابنها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

وقد قال فيها الشاعر عبدالله بن يزيد الهلالي:

ما ولدت نجيبة من فحل ... كسنة من بطن أم الفضل
أكرم بها من كهلة وكهل ... عم النبي المصطفى ذي الفضل
وخاتم الرسل وخير الرسل

ولبابة الكبرى كانت ترى في ولدها عبدالله مخايل النجابة، فكانت تقول وهي ترقصه في مهده:

ثكلت نفسي وثكلت بكري ... ان لم يسده فهرا وغير فهر
بالحسب الزاكي وبذل الوفر ... حتى يوارى في ضريح القبر

ووالده: العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب عم رسول الله ﷺ ومن أقرب الناس إلى قلبه، ومن أحبهم إلى نفسه، ولذا كان الرسول الكريم يقول دائما: «العباس صنو أبي فمن آذى العباس فقد آذاني».

ويروى ان الأرض اجدبت اجدابا شديدا، ويهرع الناس الى الفاروق عمر - رضي الله عنه - يشكون ما هم فيه من جوع ومسغبة، فيقول عمر: هذا عم رسول الله ﷺ وصنو أبيه، وسيد بني هاشم، ثم صعد عمر المنبر ومعه العباس فقال عمر:

اللهم انا توجهنا إليك بعم نبينا وصنو أبيه فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين « ثم تقدم العباس فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه:

اللهم ان عندك سحابا، وعندك ماء، فانشر السحاب، ثم أنزل الماء منه علينا، فاشدد به الأصل، وأدر به الضرع، اللهم انك لم تنزل بلاء إلا بذنب ولم تكشفه الا بتوبة، وقد توجه القوم إليك فأسقنا الغيث، الله اسقنا سقيا وادعا نافعا، اللهم انا لا نرجو الا اياك ولا ندعو غيرك ولا نرغب الا إليك، اللهم إليك نشكو جوع كل جائع، وعري كل عار، وخوف كل خائف، وضعف كل ضعيف، اللهم فأغثهم بغياثك من قبل أن يقنطوا فيهلكوا فانه لا ييأس من روحك الا القوم الكافرون».

واستجاب الله، فجاءت السماء بأمثال الجبال حتى استوت الحفر بالآكام، وأخصبت الأرض واستبشر الناس خيرا. فقال عمر: هذا والله الوسيلة الى الله، والمكان منه، وقال الناس: هنيئا لك ساقي الحرمين.

وأنشد حسان بن ثابت:

سأل الإمام وقد تتابع جدبنا	فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي	ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا الاله به البلاد فأصبحت	مخضرة الأجناب بعد الياس

وننتقل الى فترة الصحبة والملازمة مع سيد البشر وكانت نحوا من ثلاثين شهرا، لازمه فيها ملازمة تكاد تكون دائمة متصلة، فابن عباس كان يبيت عند خالته ام المؤمنين ميمونة وذكرت أن النفس الفاضلة تشيع الفضل فيما حولها، وتضع الكمال للحياة والاحياء ووجد ابن عباس الفرصة متاحة له مهيأة

فشرب من ذلك المعين الصافي ونهل من ذلك المورد العذب ولا غرابة في أن ينقل لنا مشاهد حية من حياة معلم الإنسانية. فعن كريب مولى ابن عباس أن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أخبره أنه بات ليلة عند أم المؤمنين ميمونة ـ خالته ـ فاضطجعت في عرض الوسادة واضطجع عليه أفضل الصلاة والسلام في طولها هو وأهله، فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله أو بعده بقليل استيقظ رسول الله ﷺ فجلس يمسح النوم عن وجهه بيد، ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن الوضوء ثم قام يصلي.

قال ابن عباس: فقمت فصنعت مثل ما صنع، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه، فوضع يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأذني يفتلها، فصلى ركعتين ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتر. ثم اضطجع حتى أتاه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج الى المسجد فصلى الصبح.

ها هو ابن عباس يصور لنا تلك اللحظات الأخيرة في حياة صاحب الرسالة فيقول:

لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا».

فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.

ثم انتقلنا الى وفاة حبر هذه الامة، وعالمها المتساوق، ونجمها الهادي وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ واحد من هؤلاء الذين أحبهم الله فامتحنهم وابتلاهم، فقد كف بصره كما كان في أبيه وجده. فقد عزوا ذهاب بصره الى كثرة بكائه على ابن عمه الإمام علي بن أبي طالب، وعلى ولديه الحسن والحسين، ويقال إن السبب في ذلك هو سقوط ماء في عينيه.

وقد توفي في امارة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) في سنة ثمان وستين أو تسع وستين بالطائف وله إحدى وسبعون سنة.

وروي انه لما مات سمع عند دفنه ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ★ ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾[1].

وابناؤه: هم: علي السجاد، وهو أبو الخلفاء العباسيين الذين أسسوا دولة العباسيين التي قضت على دولة الأمويين واستمر حكمها منذ عام ١٣٢ هـ حتى عام ٦٥٦ هـ.

والعباس ومحمد والفضل، وعبد الرحمن، وعبدالله، وأسماء، ولبابة وأمهم زرعة بنت مشرح الكندية.

وأما عبدالله ومحمد والفضل فلا أعقاب لهم.



ثم عرضنا في الفصل الثاني إلى تعدد ثقافات ابن عباس وذكرنا أنه نشأ وتربى في بيئة تحمل السمة المميزة لهذا الميراث العظيم، وفي بيت كريم له الشرف الجليل والمجد المؤثل.

قال رسول الله - ﷺ -: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمة، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال رسول الله ﷺ: «ان الله - عزَّ وجل - اصطفى بني كنانة من بني اسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشا واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» فلا عجب اذن أن يقول الفاروق عمر - رضي الله عنه - ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول.

(١) سورة الفجر الآيتان ٢٧ و٢٨.

ولم ينل ما نال ويحظى بما حظي به الا في نور الآيات المنزلة التي كان الوحي يجيء بها تباعا، فقد قضى ابن عباس بواكير حياته النضرة، يبهره نورها.. ويبهره هديرها يسمع آية الجنة تخرج من في رسول الله ﷺ ألقة نضرة.. فكأنما هذا الفتى الصاعد يراها رأي العين، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها ونورها.

ويسمع آية النار.. فيرتعد كالعصفور الذي دهمه اعصار رهيب.. ولولا جلال الموقف، وروعة المشهد.. لولى هاربا من لفح النار الذي يكاد يحسه ويراه!!.

ومع جلال الموقف «في الكعبة المشرفة» وهذا الامام يفتي الوافدين وضيوف الرحمن في كل ما يعن لهم من شؤون المسلمين وعقائدهم يخرج عليه زعيم من زعماء الخوارج ويوجه إليه مائتي مسألة في التفسير ويطلب منه الاستشهاد على كل كلمة بمصادقة من كلام العرب وتتدفق الاسئلة ويشتد الحوار وابن عباس كالبحر الطامي يمد يده ليخرج لنا من كتاب الحياة ومستودع الحكمة، ومستقر المعرفة. وسيظل القرآن يمد تلك الحياة بالزيت المقدس لتضيء جوانب الحياة.

ويخصب العلوم والمعارف والآداب والفقه وعلم الكلام ونظام الحياة، وسير الحضارات وكذلك سائر المعارف الأخرى.

ولابن عباس مكانة في التفسير.. ذكر مجاهد «أنه اذا فسر الشيء رأيت عليه النور» ومن قول ابن عمه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يثني عليه في تفسيره لكلمات الله «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق» ومن قول ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد».

ويسأل عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ الصحابة عن معنى آية من كتاب الله فلما لم يجد عندهم جوابا مرضيا رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره.

وفي هذا يروي الطبري «أن عمر سأل الناس عن هذه الآية ﴿أَيَوَدُّ أحدُكم أنْ تَكُونَ له جَنَّةٌ من نَخيلٍ وأَعْناب﴾[1]... الآية «فما وجد أحدا يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين اني أجد في نفسي منها شيئا فقال: تحول ههنا.. قال: هذا مثل ضربه الله ـ عزَّ وجل ـ فقال أيود أحدكم ان يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فني عمره واقترب أجله حتى ختم ذلك بعمل من أعمال أهل الشقاء فأفسده كله وهو أحوج ما كان إليه».

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾[2] وجوابه المشهور عنه يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفي المعاني التي يشير إليها القرآن. ولا يدركها الا من نفحه الله بنفحة من روحه.

وله علم واسع بالحديث النبوي.

ساعده على ذلك كمال خلقه وتواضعه وحبه للعلم والعلماء.. أخذ مرة بركاب زيد بن ثابت فقال زيد: لا تفعل يا ابن عباس.. فقال له هكذا أمرنا ان نفعل بعلمائنا، فقال له زيد: اين يداك؟.. فأخرج يديه فقبلهما وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا».

وفي معاني الحديث عامة وما رواه ابن عباس خاصة صفات عديدة قل أن تجتمع في كلام سواه، ومن هذه الصفات الغنى في الأفكار، والعمق، والجدة والسمو في الأحكام والتسلسل وملامسة أبعاد النفس الإنسانية.

ويؤثر عن ابن عباس: «ان هو الا وحي يوحى ما تلي منه فهو القرآن، وما لم يتلَ فهو السنة المطهرة.

وقدمنا في ايجاز تلك المعاني الرائعة. فنرى في الحديث النبوي ثراء ضخما

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٦٦.

(٢) سورة النصر، آية ١.

في الأفكار والمعَاني، ومما يدل على ذلك ما نجده في استنباط العلماء للأفكار والأحكام العديدة من الحديث الواحد، وأما عمق هذه الأفكار.. فذلك واضح من موازنة معاني الحديث بمعاني الشعر الجاهلي، ولا يدع الحديث جانبا من الفكرة مهما دقت دون أن يسلط عليها الأنوار المشعة، ولا عجب في ذلك لأنه قبس من نور الله.

وهكذا فان الحديث، أدب عميق كلما انعمت النظر فيه وقفت منه على جديد.

وما أجمل كلمة الرافعي فيه: انه كلام كلما زدته فكرًا زادك معنى.

ولابن عباس علم بالأدب فقد كان أديبا أبلغ الأدباء وفصيحا من أكبر الفصحاء ورث الأدب والبلاغة والبيان عن بيئته وقومه ومجتمعه.

ان من يقرأ الشعر الجاهلي يجد آثارا من عقل يبحث ويجرب فحكم زهير ونظرات النابغة تدلان على فهم وتجربة ولكن ذلك كله وليد الفطرة الهادية وليس وليد ثقافة واطلاع لأن العرب كانوا أميين.

ولكن هذه الأمية لم تحل بينهم وبين العقل الذكي والتجربة الرائدة.. بل لم تحل بينهم وبين وجود حضارة لهم في الجاهلية شوهدت آثارها في سدود اليمن وقصور صنعاء وبساتين الحيرة بالعراق ومنازل الغساسنة بالشام، مما يدل على المام بشئون العمارة والري والطب والحساب، وهو المام يوجد في الحواضر لا البوادي.

وان كانت علومهم محدودة فحسبهم البراعة في الخطابة والقدرة الرائعة على نظم الشعر وارتجاله وكان لا بد لابن عباس ان يروي ما يسمع من شعر العرب ومفاخرها وبلاغاتها ومحاوراتها وخطبها ومناظراتها، وأن يكون له من ذلك زاد ثقافي وفكري كبير.

ومن بركات المنهج الالهي ـ أنه كون جماعة من البشر فصنعهم على عين

وصاغهم صياغة فريدة وجعل منهم نموذجا يحتذى للعالم بأسره.

وهذه المجموعة الإنسانية التي قادها معلم الإنسانية لم تتكون بين يوم وليلة.. وانما تكونت مشاعرها الطيبة وأخلاقها النبيلة وأدبها العالي في أعوام من عمر الرسالة كانت كلها حافلة بضروب التربية النفسية والخلقية والاجتماعية، ولم تكن لحظة تمر عليهم دون ان يكتبوا المعرفة الجديدة وينهلوا من ورد الله الطهور.

وقد أراد الله لهذه التربية ان تمضي مع الفطرة في هدوء واتساق وعلى مهل.

وهذه النشأة.. وتلك البيئة، والموهبة جعلت من ابن عباس بليغا متميزا، وأديبا محلقا، وخطيبا مصقعا مفوها، ومناظرا ومحاورا لا يغلب.

وجعلت منه ملما بكل بلاغات العرب ومأثوراتها في الشعر والنثر.

وكان القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ له خير زاد، وأكبر معين، وأعظم مورد، لذلك كله لا يكون من الاسراف في شيء ان نقول: ان ابن عباس كان بليغا مجيدا، ومتكلما فصيحا، وكان بحق من أعلام الأدب والبلاغة في عصره وبعد عصره.

واذا وصلنا في الحديث الى الشعر، فقد كان لابن عباس به علم كبير، فقد كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تدانيها منزلة، فهو ديوان مآثرهم، وسجل مفاخرهم واللسان الناطق بما لهم من فضل، وما هم عليه من مجد أثيل، وعز تالد.

وما من حرب كانت تنشب بين القبائل الا وكان الشعر هو الذي يوقد نارها، ويشعل لظاها، ويؤجج سعيرها، كما كان الشعراء يزكون لهيب المعارك ببيانهم الملتهب، وشعرهم القوي.

ولا تفتح مغاليق الأنفس، أو تلين قساوة القلوب، أو تنال العطايا والهبات

في عهدهم، الا بالقول الفاتن، والشعر الساحر الذي يصل به الشاعر إلى ما يريد من رغبة او يهدف إليه من غرض، ولا تعمر مجالس السمر ومحافل العلية الا بما ينشد فيها من طرائف وروائع القصيد.

وجاء هذا الفجر الباهر، فجر الإسلام الزاهر.. بدعوة الحب والسلام. يدعو إلى العفة في القول والفعل ويشجع على الأدب العالي الذي يليق بمسلم، فحرم على الناس الفواحش، وحذرهم من باطل القول وزوره. ومن سيء الظن وخداعه وغروره، ودعا أولياءه وأتباعه الى ان يمحقوا كل رذيلة وأن يجانبوا كل موبقة، وحظر عليهم أن يأتوا في كلامهم بما يثير النفوس أو يذكر بالخصومات أو يحرك كامن الأحقاد ومستور الضغائن.

ولقد استطاع - نبي الرحمة - أن ينفذ بمنهج الوحي الى قلوبهم وضمائرهم وان يبعث مواتهم الأدبي وان يعيد بناء شخصيتهم التي عبث بها الشيطان وأن يرتب عناصرها وينظم كيانها. كما استطاع كذلك أن يصلح الفاسد من اوضاع المجتمع، وقد تحول الشعراء عن تلك المعاني الهابطة إلى اتجاه جديد، ونبذوا تلك القيم الذميمة التي لم يعد لها مكان بين سماحة الإسلام، وعظمة مبادئه بل ان بعض الشعراء ترك قول الشعر، وانصرف إلى القرآن الكريم يتدارسه ويتدبر معانيه فها هو لبيد بن ربيعة الشاعر الفحل ينصرف عن الشعر حتى قيل انه لم يؤثر عنه في الإسلام سوى بيت واحد قوله:

الحمد لله إذ لـــم يـأتني أجـــلي حتى اكتسيـت من الإسلام سربالا

ولقد بعث إليه الفاروق عمر يسأله. ماذا أحدثت من الشعر في الإسلام:

فقال: أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران. وقد وصلنا في بحثنا إلى أن ابن عباس لم يكن شاعرا، فليس معنى ذلك أنه كان يبغض الشعر ويتأفف منه أو يكره الشعراء ويتجهم لهم، ولكنه كان يحب من الشعر ما يعبر عن جوهر الدين الجديد ولا تتعارض معانيه مع القيم الجديدة والسلوك السوي.

وقد ذكرنا انه كان في المسجد الحرام، وعنده أحد زعماء الخوارج يسأله اذ أقبل عمر بن أبي ربيعة فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى آخرها. فبرز نافع بن الأزرق محتجا.. الله.. الله يا بن عباس؟! انا نضرب إليك أكباد الابل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشى فيخسر

فقال: ليس هكذا، فقال: فكيف. قال:

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر

فقال نافع: ما أراك الا وقد حفظت البيت: قال: أجل!.

وان شئت ان أنشدك القصيدة أنشدتك إياها.

قال: فاني أشاء، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها.

وسر اعجاب ابن عباس بما اشتملت عليه قصيدة زهير بن ابي سلمى، أنه يؤثر في المعنى فوق صدقه وابتكاره أن يكون موائما لمقاييس الدين الخلقية. فقد وهب مقدرة عظيمة صادقة الحكم الصحيح على الشعر ومعرفة جيده من رديئه. وكان يعينه على ذلك ذوق سليم وحس مرهف.

فهرم أبوهم سنان حين ننسبهم طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
محسدون على ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم ماله حسدوا

قالوا: لما سمع ذلك ابن عباس قال: ما كان أحب إلي لو كان هذا المدح في بيت محمد ﷺ.

وبهذا نستطيع أن نقول: ان ابن عباس كان مرهف الحس، رقيق الشعور،

يتذوق الشعر ويرويه ويبدي فيه رأيا صائبا.. بيد أنه لم يكن شاعرا كما يرى بعضهم.

وان كان هناك من يقول انه كان شاعرا، ولكن ذلك مما لا يسلم به النقاد والشعراء المنصفون لأنه عاش في قومه أديبا نابها، وخطيبا بليغا ومفسرا قديرا، ومناظرا ليس له ضريب.

وكانت ندواته ومناظراته تجمعه وغيره من الناس ولو كان لابن عباس شعر لرّواه الرواة، وأذاعه المذيعون، ووصل إلى كل سمع، ووعاه كل قلب، ولم يكن ذلك يقلل من مكانته الأدبية، فهو الذي كان يظل الليل ساهرا بجانب الفاروق عمر - رضي الله عنه -.

ويطلب منه عمر بقوله: «أنشدني لشاعر الشعراء الذي لم يعاظل بين القوافي، ولم يتبع وحشي الكلام.

قال: ومن هو يا أمير المؤمنين؟!.. قال: زهير فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح».

على أن الأبيات التي نسبت إلى ابن عباس، وان كانت تدل على شاعرية خصبة، وبيان رائع، ليس فيها ضرب من النظم المتكلف، ولكنها على أية حال لا تسلك بابن عباس - البحر الزاخر - الذي ما كان يرضى ان تكون له الريادة في كل مجالات العلم والأدب، ثم تنسب إليه أبيات لا يكون صاحبها في عداد الشعراء البارزين وفي هذا الجو المعطر بأريج الإيمان، والمشحون بعاطفة الإسلام كان ابن عباس - رضي الله عنهما - يفسح في مجالسه لكثير من الشعراء يسمع لهم ويوجههم ويدعوهم إلى البعد عن الحشو والتكلف، واختيار الكلام الذي يستهدف الحق، ولا يخضع لهوى الأنفس وضلال الشيطان حتى تجد فيه الإنسانية ما يرفع شأنها ويعلي قدرها، ويسمو بخصائصها ومواهبها وملكاتها، وفيه من قوة الاشعاع، وقدرة الطاقة ما يؤازر على تحقيق رسالة الإسلام السامية.

وابن عباس بذلك يعتبر ظاهرة فريدة حيث يضع بنقده وتوجيهه هذا الاساس الجمالي للشعر، على ضوء المبادئ الإسلامية.

قال الأصمعي: أتى قوم إلى ابن عباس بفتى محول ضعفا. فقالوا: استشف لهذا الغلام. فنظر إلى فتى حلو الوجه.. عاري العظام. فقال له: «ما بك؟».

فقال:

بنا من جوى القيد المبرح لوعة ... تكاد لها نفس الشفيق تذوب
ولكنما أبقى حشاشة ما نرى ... على ما به عود هناك صليب

فقال ابن عباس: أرأيتم وجها اعتق، ولسانا أذلق وعودا أصلب، وهو أغلب.. مما رأيتم اليوم؟.. هذا قتيل الحب.. لا قود ولا دية!

نحن الآن أمام عالم نفساني قبل ان يبتكر علم النفس بقرون.. ذو بصر نافذ للصراع داخل النفس البشرية.

وكان لابن عباس مواقف تتميز بالحرية في إطار الحرمين الفضيلة ومصلحة الجماعة، وليس لأحد في هذا الإطار ان يصادر حريتك أو يعتدي عليها، وهي حرية الكلمة التي أخذت امتدادها في حضارة الإسلام، فمكنت كل فرد في ظلها ان يعبر عن رأيه وفكره بأي اسلوب يرتضيه.

فقد مر بقوم ينالون من الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ويسبونه فقال لقائده:

أدنني منهم فأدناه. فقال: أيكم الساب الله؟!

قالوا: نعوذ بالله أن نسب الله. فقال: أيكم الساب رسول الله - ﷺ - فقالوا نعوذ بالله ان نسب رسول الله ﷺ فقال، أيكم الساب علي بن أبي طالب؟!.. قالوا: أما هذه فنعم، فقال:

أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سبني فقد سبب الله، ومن

سب عليا فقد سبني ».

فأطرقوا ، فلما ولى قال لقائده : كيف رأيتهم ؟ قال:

نظـروا إليـك بـأعين مـزورة　　نظـر التيـوس إلى صغـار الجآزر

فقال زدني : فداك أبي وأمي ـ فقال:

حـزر العيـون منكس أذقـانهم　　نظر الذليـل إلى العـزيـز القـاهـر

قال : زدني ـ فداك أبي وأمي ـ قال: ما عندي مزيد .

قال: ولكن عندي.

أحيـاؤهـم تجنـي على أمـواتهم　　والميتـون فضيحـة للغـابـر

وذكرت في البحث أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كان يتذوق الشعر ويسمعه ، ويرق لمعانيه ، وذلك من وحي شفافيته به ، وإحساسه الجمالي بقيمته ، وتأثيره المباشر ، وهو الذي يقول : فيما يحتاج إليه المرء من الدين والأدب .

« كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسعك جهله ، وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل » .

فهو كان يتعشق من الشعر ما يدعو إلى مكارم الأخلاق ويتأفف من ألوان الشعر الخبيث الذي يحمل في طياته وبين ثناياه روح الجاهلية .

ولمعاوية بن أبي سفيان .. يقول في ابن عباس وقد اعجزته بلاغته :

اذا قال لم يترك مقالا ولم يقف لعي　　ولم يثـن اللسـان على هجـر
يصرف بالقول اللسـان اذا انتحـى　　وينظـر في أعطـافـه نظـر الصقـر

وقد ذكرنا ما روي عن سفيان الثوري عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : انها لكلمة نبي : يعني قول الحطيئة .

ستبدي لك الأيام ما كنت جـاهلا　　ويأتيـك بـالأخبـار مـن لم تـزود

وهذه صورة جمالية تعتمد على الفطرة والذوق، والشعور بالاستحسان أو الاستهجان، وان كانت بلا تفسير. او تعليل، ولكنها تخضع للمقاييس العقلية، والمبادئ الإسلامية.

ولابن عباس علم واسع وشامل بالشعر، ولم يكن شاعرا - حفظ منه الكثير، حتى ذكر النقاد أنه حفظ ما وصل إلى علمه من شعر الأقدمين، ووعى كل ما قيل ضد الإسلام، وكان منه على طرف لسانه ما يستطيع أن يعقب به على كل سائل أو وافد.

كان ابن عباس يحس القيمة الجمالية للشعر ويتذوقه ويفطن لمواطن الجمال والقوة فيه، ويبصر مواطن الإلهام في روحه، فكان له شاعرية في نفسه وروحه وهناك الكثير عن معرفة عبدالله بن عباس بكل ما يتصل بالشعر الجاهلي.. بطرقه وأساليبه وروايته، وتحبيب طلاب العلم في تعلمه ووضعه في إطار مضيء، يشع الهدى والمعرفة على فهم كتاب الله تعالى، فهو كان دائما يلفت الأنظار ويوقد الأذهان ويطلب من تلامذته الرجوع إلى الشعر على اعتبار انه ديوان العرب.

وقد كانت قضية الانتحال في الشعر الجاهلي من القضايا التي أثارت اهتمام المثقفين ومعظم أدباء عصرنا بعد أن فجرها كالبركان الهادر الدكتور طه حسين.

وقد أنكر آراءه في النتحال كثير من أدباء الإسلام إنكارًا سديدًا يتمثل في هذه الكتب التي ألفوها للرد عليه، ونقض كتابه الدي جعل عنوانه: أولا: الشعر الجاهلي ثم غيره وجعله ثانيا: غي الأدب الجاهلي.

وقد كنت مترددًا في عرض هذه القضية في بحثي هذا لولا ان الدكتور الباحث احتج في نفي الشعر المستشهد به على القرآن بقوله: «أليس من الممكن ان تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت في تكلف وتصنع؟» ثم ذكر «بل أليس من الممكن ان تكون قصة ابن عباس هذه،

وقد وضعت في سذاجة وسهولة ويسر، لا لشيء إلا لهذا الغرض التعليمي اليسير؟»

فأجيبه مع الأستاذ الخضري «بلى هذا ممكن، كما يمكن أن يكون الخبر صحيحًا... كما يمكن أن يكون بعضه صحيحًا وبعضه غير صحيح.. كل ذلك ممكن ولكن الذي يجب أن تجيب عنه هو: بم ترجح عندك أن الخبر مندوب كله؟.. أهو غير معثول؟!.. أم هو مخالف لطبائع التعليم؟»

واستمر الدكتور طه حسين يقول: «وعلى هذا النحو تستطيع ان تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث من شبه قوي أو ضعيف».

ومن تعقيب الشيخ محمد الخضر حسين على هذا الكلام قوله «من شاء ان ينظر إلى قاعدة تمتد الى غير نهاية، ولا تصل بما يمسكها أن تزول إلا ارادة هذا المؤلف.. فلينظر الى هذه الفقرة التي تمثل قلما يشتهي أن يكتب فينتكس، ويرمي بالحديث في غير قياس.. كل شعر أو خبر أو حديث يضاف إلى الجاهليين ويكون بينه وبين آية من القرآن شبه قوي او ضعيف فهو مصنوع!..» أليس من الجائز ان ينطق العرب بحكمة فيأتي القرآن بهذهالحكمة على وجه أبلغ وأرقى!! أمن الحق أن ننكر أن العرب قالوا مثلا: القتل أنفى للقتل، لمجرد شبهه بقول القرآن **﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾**[1] أو من الحق أن ننكر ان زهيرا قال:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

لأن له شبها قويا أو ضعيفا بقول القرآن **﴿أينما تكونوا يُدرككُمُ الموت ولو كنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدة﴾**[2].

(١) سورة البقرة، آية ١٧٩.

(٢) سورة النساء، آية ٧٨.

وقد تعرض الدكتور طه حسين إلى أسباب نحل الشعر الجاهلي وقد جعلها في خمسة أسباب: السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة.

وقد أجمع نقاده على أن الدكتور لم يورد شيئا من الشعر الجاهلي التي دعت السياسة أو الدين أو الاسباب التي ساقها الى ذلك النحل. ومع أنه أطنب في الحديث عن المقدمات الظنية والفروض المتخيلة، ولكنه لم ينته بها الى ما يريد.

وقد أشار الشيخ محمد الخضر حسين إلى ما في حديث الدكتور في كل الفصول التي ساقها - من تعميم ومبالغة وذلك حين قال الدكتور ان الرواة «بين اثنين: اما ان يكونوا من العرب فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب، وأما أن يكونوا من الموالي فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي...».

وعقب عليه الشيخ الخضر بقوله: «ويريد من التأثر - بطبيعة السياق - الوجه الذي يحمل على صنع الشعر وعزوه إلى الجاهلية، ومعنى هذا نفي أن يكون لطائفة من الرواة خطة ثابتة وهي الا يتأثروا بشيء من هذه الأسباب تأثرا يستهينون معه بموبقة الافتراء على الناس كذبا وهذه المبالغة لا تأويل لها الا أن المؤلف يحب أن يكون هذا الشعر الجاهلي منحولا».

والحقيقة تقول: ان الأدب بمفهومه الواسع والحديث والتفسير، والسير والمغازي اسلامية في مادتها، وقد دلت بما لا يقبل الشك على أن تدوين تلك الموضوعات في كتب بدأ مبكرا في عهد رسول الله ﷺ، وان هذه الموضوعات لم تنقل بالرواية الشفهية قرنا او يزيد حتى دونت - كما ذكر ذلك جميع المحدثين - وثبت كذلك أن المفسرين كانوا يعتمدون على الشعر الجاهلي وكلام العرب في تفسير الفاظ القرآن الكريم وفهم معانيه.

وأسوق مثلا واحدا فقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر: ما

تقولون فيها؟ (يقصد في قوله تعالى: ﴿أو يَأْخُذَهُم على تَخَوُّفٍ﴾[1] فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص.

فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم.

قال شاعرنا «أبو كبير» يصف ناقته:

تخوف الرحل منها تامكا قردا   كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟

قال: شعر الجاهلية، فان فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

وقد قدمت ايضا رواية عن ابن عباس فقد ذكر ابو بكر الانباري قال: أتى أعرابي إلى ابن عباس فقال:

تخوفني ما لي أخ لي ظالم فلا تخذلني اليوم يا خير من بقي.

فقال ابن عباس: تخوفك أي تنقصك؟ قال: نعم.

قال: الله أكبر!.. ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أي تنقص من خيارهم.

وذكرنا في البحث أن ابن عباس كان حريصا على الشعر الجاهلي يحث الناس على تعلمه وطلبه لتفسير القرآن. وقد ذكر السيوطي في المزهر عن ابن عباس «اذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فان الشعر ديوان العرب».

وفي ختام هذا الفصل نستطيع ان نقول: ان الدكتور طه حسين لم يلتزم المنهج العلمي الذي أعلن انه يريد ان يصطنعه وهو يحتج في نفي الشعر المستشهد به على كتاب ربنا عز وجل بقوله:

«أليس من الممكن ان تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد

---

(١) سورة النحل، آية ٤٧.

وضعت في تكلف وتصنع ؟ ».

ونحن نكتفي بما سقناه من قبل في نهاية هذا الفصل بما ذكره الرافعي في كتابه « تحت راية القرآن ».

كلما نظرنا في كتاب « الشعر الجاهلي » لم نزدد الا يقينا بان هذا الاستاذ الذي يسبح بمذهب « ديكارت » هو أشد الناس خروجا في كتابه على هذا المذهب فانه لا يكتب ولا يفكر الا لغرض واحد يبتغي له وسائله وأسبابه بكل ما استطاع.. وهو توهين امر الإسلام وصدعه من مفاصله. وتفكيك العقد المحكمة التي يتماسك بها في تاريخه.. وناهيك به دائبا يجمع من هنا وهناك من أثينا إلى مكة.

واستشهد الرافعي بعبارة ناطقة برأي قائلها، حتى كأنه يقول: أن القرآن لا ينقصه الا أن يكتب عليه «تأليف فلان» ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره.

وذكر عنه ايضا انه جاء في صفحة ١٨ في كتابه هذا وفي بيان أن القرآن ليس في حاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيه عند العرب « نخالفهم أشد الخلاف، لأن أحدا لم ينكر عربية النبي فيما نعرف..» يعني اذا لم ينكر احد عربيته لم ينكر صحة كلامه » ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره.

ثم يقول في صفحة ٧٦ عن علماء الموالي وعلماء العرب:

« وارادهم ـ علماء العرب ـ أو الموالي أو أولئك وهؤلاء ان يدرسوا القرآن درسا لغويا ويثبتوا صحة الفاظه ومعانيه ولأمر ما شعروا بالحاجة الى اثبات ان القرآن كتاب عربي مطابق في الفاظه للغة العرب، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت ان هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل الى الشك في عربيتها.

والدكتور يكرر هذا المعنى ويطيل فيه، ولا يفهم أن الاستشهاد بالشعر لا

يراد منه اثبات عربية القرآن، ولا مطابقة الفاظه لألفاظ العرب. ولا هو من شك في العربية وانما يراد به اتخاذ القرآن سببا في جمع مادة اللغة وشواهدها، كما كان هو السبب في وضع العلوم العربية كلها.. أفترى وضع النحو كان لاثبات ان القرآن ليس فيه لحن.. أم كان لإقامة الألسنة الزائفة حتى يسهل عليها الأداء والقراءة.

ثم يراد من تقييد تلك الشواهد وجمعها وتدوينها تفسير كلمات القرآن ليفهمها من يجيئون بعد العرب كما فهمها العرب أنفسهم.

ولعمري لولا المعاني التي اضافها ابن عباس في جمع هذه الشواهد ووقوفه مع الشعر الجاهلي وروايته له واستشهاده به يؤكد صحته وينبغي الانتحال فيه لقام ألف زنديق يضيفون الى مطاعنهم في القرآن أن فيه خطأ في اللغة، وقد يجر ذلك إلى اشياء كثيرة لا يعرف مداها الا الله.

وفي البحث تناولنا موقف ابن عباس من النقد.. وفي ظلال الإسلام نهض النقد وتعددت أحكامه وكان لابن عباس فيه القدح العلي.

وتناولنا بالبحث روافد النقد عند ابن عباس، فذكرنا انه لم تفته ثقافة العصرين: الجاهلي والاسلامي، وانه كان مستوعبا حافظا لدور الشعر العربي، عالما بأحوال العرب: جاهلية واسلامية.. عقيدة وعلما وتاريخا وأنسابا وفهما لكل ما يدور على ارض الجزيرة العربية من صراعات متباينة وهكذا نضجت عواطفه في هذا الجو المشحون بالأسى الذي هو وقود الإيمان ويصهر المعدن النقي.. وهكذا تنضج العواطف في جو المحن، وتنصهر النفس في بوتقة الأسى والارزاء والآلام.

ثم كان من الروافد مجالس «عمر الأدبية المتعددة».

وكانت تلك المجالس تجمع ضروبا شتى من العلم والأدب وانشاد الشعر والقاء الخطب، فكانت غنية بالعطاء، لا سيا وأنها قد جمعت افذاذًا من رجالات العرب أدبائهم وعلمائهم.

وهي التي غذت ذوق ابن عباس النقدي، وصقلت ملكته الناقدة، وجعلته يتبوأ هذه المكانة الأدبية في عصر صدر الإسلام.

وحينما تعرض البحث الى مقاييس المعنى واللفظ وبين الشكل والمضمون ذكرنا أن النقاد درجوا على اختلاف مناهجهم النقدية على أن الاسلوب هو الجانب الحي من فن الكلام وان العناية بالشكل مردها الى الحاسة الجمالية والتذوق الأدبي التي تكمن في طبع الأديب والشاعر، ويهتدي بها تلقائيا الى مواطن الروعة في التعبير والتصوير.

وأصحاب الطبع والذوق من أدباء العرب في جاهليتهم واسلامهم لا يختلفون في تقديم الفن الكلامي من هذا الجانب. فالجمال يكمن دائما في الصورة الخلابة والتعبير الذي ترف حوله الظلال، وتتزاحم فيه الإشارات والإيحاءات حتى ان المتلقي لهذا الفن يحس إحساسا قويا ان هناك قوة غامضة ترتفع بشعوره وخياله الى عالم يموج بالرؤى ويعمر بالمشاهد.

وهذه القاعدة الثابتة في الفنون جميعا لا يختص بها نقاد الغرب أو الشرق لأنها تقوم على حقيقة الابتكار الفني وطبيعته.

وهناك ضوابط ومقاييس أخرى كان «ابن عباس» ينهج نهجها في الأدب، ويوجه بها الأدباء وجهة جديدة تأسيسا على هدي الكتاب والسنة وروح الإسلام، ويمكن ان تضاف إلى المقاييس الفنية الأخرى، حتى يمكن على هديها ان تعطي القارئ تصورا لمقاييس الأدب في عصر الإسلام الذهبي ممثلة في أحكام ابن عباس على الأدب، لقد كان ابن عباس مدركا تمام الإدراك لتلك الحقيقة الفنية وهي التي تمثل جانب الصدق في الترجمة عن نبضات القلب، ومشاعر الحس، وتصوير العواطف النبيلة.

كان ذلك مما يفضله ابن عباس ويستحسنه وينال اعجابه وقد روى سفيان الثوري عن ليث عن طاوس حينما استمع ابن عباس إلى معلقة «طرفة» حتى وصل فيها إلى:.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

كانت صورة تفيض بالجمال، وتعتمد على الشعور والذوق فتجد «ابن عباس» وقد هيجت تلك المعاني كوامن نفسه فيقول: «انها لكلمة نبي».

وانه ليتحرى المعنى الدقيق، وعناصر الصدق، والعاطفة الجياشة الحارة حينما يفد إليه عمر بن أبي ربيعة وهو في المسجد الحرام فينشده الشعر، وتلمس في شفافية ابن عباس حبه للشعر وتذوقه لكل معنى جميل، فيقول له متعني الله بك.. ان نفسي قد تاقت إلى قول الشعر ونازعتني إليه، وقد قلت منه شيئا أحببت ان تسمعه وتستره علي فقال: انشدني. فأنشده:

أمن آل نعم انت غاد فمبكر

فقال له: انت شاعر يا ابن أخي فقل ما شئت.

وقد استحسن ابن عباس الصدق لذاته دون اعتبار آخر.

وقد اهتم البحث بدراسة بلاغة ابن عباس «وأدبه البناء فبدأ بدراسة خطب «ابن عباس» حيث كانت اداة من ادوات ارساء نظام القبيلة وسياستها في الداخل والخارج، وقيامها بحاجتها في الوفادة والعمل على حل مشاكل شديدة اطلت بخطها على أثر التحكيم بين علي، ومعاوية. ومن أطلق عليهم اسم «الخوارج» وارتفع شأن الخطابة في المفاخرة والمنافرة واعلان الحرب وإرساء السلام حيث كانت الحرية من أهم عوامل نشاطها ولا زال لها به شأن حتى علت بالخطيب فوق الشاعر لسدادها في ميادين ليس للشعر فيها كبير مقام ولسبب تكسب الشاعر بشعره.

وقد تعرض البحث الى خصائص هذه الخطابة الجاهلية وسمات الفاظها وطابعها النفسي حيث كانت صادقة الانفعال فصيحة يلازمها السجع كثيرا، ويضعف الترابط بين جملها، وقد نجد فيها الفاظا موحشة غريبة.

ثم جاء الإسلام، فقامت بالدعوة، ورقت أساليبها، وتركت السجع وتخلت

عن الوحشي والغريب، وبعدت عن التكلف، وكانت بجانب قيامها بالدعوة ـ لسان الجهاد، وسياسة الحكم، وشرح الشعائر والمناسك.

وفي الاسلام مارس العربي حريته كاملة فنمت الخطابة في لسان الحاكم والدعاة والأمراء..

وتميزت خصائصها في هذا العصر فبدأت بحمد الله والثناء عليه ثم الصلاة والسلام على النبي ثم فصلت «بأما بعد» كما كان الأمر من قبل ثم طرقت موضوعها وانتهت بدعاء أو استغفار أو إسلام.

ووجدنا خطبة ابن عباس صورة من هذه الخطابة، وكانت ألفاظها سهلة الإدراك سريعة الاداء لما تحمل من معان جيدة التركيب لا وحشي فيها ولا غريب.. ذات مقدرة على بث انفعالات ابن عباس في نفوس المستمعين لما لازمها من اخلاص صاحبها.

وقد درسنا أسلوب ابن عباس ابتداء من الفكرة في ذهنه إلى انسيابها عبر ألفاظ ليسمعها الناس او ليقرأوها.

فوجدنا أفكارًا، معبرة عن القيم الإسلامية تنطلق في أسلوب صادق التعبير سهل مسترسل، واضح قوي التأثير، واذا كرر فان التكرار غير مخل وايضا لا يخلو من تجديد، وطابعه اسلامي، ومنهجه في الخطبة ايضا اسلامي بدءا وعلاجا وخاتمة.

ووجدنا أغراض خطبة ابن عباس «كفيلة باشباع حاجة الجمهور، وحاجة الفكر الإسلامي، والقيم الاسلامية والدعوة إلى الوحدة بين أهل العراق، وأهل الشام والعمل على رد الخوارج تحت راية ابن عمه علي بن أبي طالب وهم انصاره ورجاله.

ثم نظرنا في عرض ودراسة هذه الخطب فوجدناها: خطبا طوالا أو قصارا، أو مقتطفات.. وهي جميعا اسلامية.

وفي ضوء دراستنا لخطبه أمكن ان نعرف ان بعض خطبه كان يرتجلها سريعا، وأن منها ما كان يعالج موضوعا بعينه فينزوي فيه ويتأتى ومنها ما كان يتصعد، ومرد ذلك انه كان يعالج مشكلة أو يرد على فتوى او يطلب منه عمر او عثمان او علي - رضي الله عنهم ان يدلي برأيه في مشكلة من مشاكل الإسلام والمسلمين.

وعني البحث برسائل ابن عباس، فقد ظهرت رسائله غير عارية من ألوان الفن ولا مسرفة في وصفها.. وانما كان حسبها من ذلك الصدق في الأداء، والتروي لجلاء الحق بلا تكلف، والقصد في الزينة.

وكانت رسائل ابن عباس لها قيمتها البلاغية والأدبية كما أن لها قيمتها التاريخية.

وأنت اذا قرأت رسائل ابن عباس تعرف انتهاء جلته من رنينها، بعد ان تكون ملكت عليك مشاعرك، وأدخلت السرور والهناءة على نفسك، فهو لا يحفل بالاسجاع الا اذا جاءت عفو الخاطر ولا يتعمد الجزالة إلا اذا اقتضى الموضوع ذلك، وقلما خلا قوله من فكاهة تحمد له او تحمل له، وتعيش معه في بلاغاته في أسلوب سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ، ففي أسلوبه تقرأ الفاظا جيلة وقوالب محكمة، وفي كلمه الطيب تقع على اشباع المعاني، وتقطيع الجمل، والابلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع، وتفعل البلاغة فعلها في نفسك من طريق الاقناع والبرهان، لا من مجرى التقفية والزخرف وتوازن الكلمات، ورنة الفقرات.

ثم تحدثت عن حكمة ابن عباس وهي ككل حكمة مصدرها تجارب البشر عامة، وهي قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالناس والحياة، وتتضمن حكما صائبا في أمر خير أو نهي عن شر.

ووجدنا حكمته في عبارة موجزة تارة، وأخرى في عبارة تطول وقد تأخذ

بحظها من زينة اللفظ دون كلفة، وربما استعان في تصويرها بلون من البيان الجميل.

وحكمته - التي عرفنا موطنها من أدبه - ليس لها مكان خاص استقام عليه في وضعها، وانما يرسلها حيث تقع في صدر الكلام أو في خاتمته او بين ذلك.

وحكمته بعضها مطروق يجري على ألسنة الناس، ولابن عباس فيه فضل الصياغة وقد يستمد فيها من رسول الله ﷺ وبعضها ابداعه فيه واضح.

والحكمة في أدب ابن عباس تسوقها لنا عبارة موجزة قل ان تطول فيها الجملة فقد تتكون من جملة او جملتين: مثل التواضع من مصايد الشرف.

أو ان الأدب الصالح خير من النسب المضاعف.

وقد تطول في عبارة محكمة يصحبها الوضوح، ويتخللها التقسيم وذلك كثير في كلامه.

وقد تأخذ حكمة ابن عباس خطها من زينة اللفظ دون كلفة كما قد يستعين في ابراز معناها بلون من أساليب البيان ومنها: الرخصة من الله صدقة، فلا تردوا صدقته.

وحكمة ابن عباس، تجدها وكأنها تتعانق في الأثر الأدبي الواحد، فيأخذ بعضها برقاب بعض، وترتبط الحكمة بالحكمة في وحدة عضوية محكمة فلنستمع إليه وهو يتحدث عن فضل الصداقة على القرابة:

القرابة تقطع، والمعروف يكفر، وما رأيت كتقارب القلوب.

وأخيرا نستطيع أن نقول أنه أمكن - بما بين أيدينا - من أدب ابن عباس أن نصل إلى الكشف عن عمود النص الأدبي عنده، وخلصنا من ذلك إلى أمرين أولها:

خصائص تتوفر للكلمة فترتفع من لغو الكلام وسقطه لتصل إلى منزلة

الأدب، وذلك بسلامة عربيتها من اللحن، وانسياب أفكارها عبر ألفاظ مأنوسة لا وحشية فيها، وتتميز باستقلال المعنى فيها، وأخذ حظه التام من التعبير، وحسن التكوين في وضوح تام، وكامل.

وأدب ابن عباس كله لا يفقد هذه السمات من الوضوح والإبانة. فإذا توفر للنص هذه الخصائص وتلك السمات أمكنه أن يكون له خصائص تجعله قمة من قمم الأدب عند ابن عباس، وذلك اذا اجتمع له الصدق في تصوير الأفكار النبيلة بمشاعر تجاربها الوجدانية في واقعية لا تفوتها جزالة التعبير، وجمال الأداء، ولا يحلق بها الخيال الى مبالغة تحيل صدق المضمون إلى أوهام لها من دبيب الصنعة ما يفصلها عن الشعور والوجدان.

وعلى هذا يمكننا ان نقول: ان من أغنى الروافد الثقافية التي أثرت في الأدب في عصر صدر الإسلام ـ ذلك العصر ـ الذي عاش فيه ابن عباس ـ يرحمه الله تعالى ـ هو الاسلام نفسه ـ بكتابه المبين، وحديث رسوله العظيم.

المصادر والمراجع

١ ـ الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، المطبعة الأميرية ١٢٨٧هـ.
٢ ـ احياء علوم الدين للامام الغزالي، المطبعة العثمانية بمصر ١٣٥٢هـ.
٣ ـ حلية الأولياء، للأصفهاني، مطبعة السعادة ١٣٥٢هـ.
٤ ـ أخبار العلماء بأخبار الأدب، لجمال الدين القفطي، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٦هـ.
٥ ـ الأخلاق، صمويل سمير، القاهرة ١٣٢٩هـ.
٦ ـ الأخلاق، عبد الرحمن زغلول، ط. المعارف بمصر ١٣٣٦هـ.
٧ ـ أدب الدنيا والدين، الماوردي، ط. القسطنطينية ١٢٩٩هـ.
٨ ـ الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، للدكاترة خفاجي، حسن جاد، عبد الحميد المسلوت، القاهرة ١٣٧١هـ.
٩ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، ط. الشعب، ١٩٧٠م.
١٠ ـ الاسلوب، أحمد الشايب، النهضة المصرية بالقاهرة، ١٩٧٠م.
١١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر.
١٢ ـ أشهر مشاهير الإسلام في الحروب والسياسة، رفيق بك العظم، ط. المنار ١٣٢١هـ.
١٣ ـ الأغاني، لابي الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية ١٣٤٥هـ.

١٤ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، ط. مصطفى محمد بمصر، ١٣٥٨هـ.
١٥ ـ امتاع الاسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والاتباع، المقريزي تحقيق محمد شاكر، القاهرة ١٩٤١م.
١٦ ـ الأمالي، لأبي علي القالي، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ.
١٧ ـ الامامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الزيني، القاهرة ١٩٦٧م.
١٨ ـ الأموال، لأبي عبيد الهروي، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة ١٩٦٨م.
١٩ ـ إنسان العيون في سيرة الأمين ـ المعروف بالسيرة الحلبية، برهان الدين الحلبي، المطبعة الأزهرية، ١٣٢٩هـ.
٢٠ ـ الأنساب، لأبي سعيد السمعاني، مصور عن مخطوط المتحف البريطاني بمكتبة الأزهر رقم ٢٨٥٥ خاص.

(ب)

٢١ ـ البخاري، المطبعة الأميرية، ١٣١٤هـ.
٢٢ ـ البخلاء، لأبي عمرو الجاحظ، دار الكتب المصرية ١٣٥٨هـ.
٢٣ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف بيروت ١٩٦٦.
٢٤ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الألوسي، دار الكتاب العربي.
٢٥ ـ البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ، مكتبة الخانجي مصر.

(ت)

٢٦ ـ التهذيب، ابن حجر، دار الكتاب العربي ١٣٨٠هـ.
٢٧ ـ التاج في أخلاق الملوك، للجاحظ، ط. أولى، المطبعة الأميرية بمصر ١٣٢٢هـ.

٢٨ ـ تاريخ الأدب العربي، د. عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت ١٣٨٥هـ.
٢٩ ـ تاريخ الأدب العربي، احمد حسن الزيات ط٧٥، ط. الرسالة بمصر..
٣٠ ـ تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٦.
٣١ ـ تاريخ بغداد، للبغدادي، دار الكتاب العربي بيروت.
٣٢ ـ تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٩٧٦.
٣٣ ـ تاريخ الإسلام الكبير، للذهبي، مطبعة السعادة ١٣٦٩هـ.
٣٤ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د. حسن إبراهيم حسن، السنة المحمدية ١٩٦٤م.
٣٥ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، جورجي زيدان، دار الهلال ١٩٥٨م.
٣٦ ـ تاريخ الامم والملوك، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
٣٧ ـ تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٩م.
٣٨ ـ تاريخ العرب (عصر ما قبل الإسلام)، مبروك نافع، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.
٣٩ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، محمد محمد مصطفى النجار، ط. الأزهر ١٣٧٢هـ.
٤٠ ـ تاريخ الدول، لأبي الفرج الملطي، ط. اكسفورد ١٩٦٣م.
٤١ ـ تاريخ أبي الفداء، لأبي الفداء، القسطنطينية ١٢٨٦هـ.
٤٢ ـ تاريخ العرب (مطول) د. فيليب حتى، دار الكشاف بيروت، ١٩٥٨.
٤٣ ـ تاريخ بغداد، للعرفي، دار الكتاب العربي.

٤٤ ـ تهذيب الكمال، للذهبي، مخطوط بالجامعة الإسلامية.
٤٥ ـ تاريخ كنيسة اورشليم الارتوذكسية، شحادة خوري ونقولا خوري، بيت المقدس ١٩٢٥، القدس الشريف.
٤٦ ـ تحت راية الإسلام، د. أحمد الحوفي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة ١٣٨٥.
٤٧ ـ التفسير والمفسرين، للشيخ الذهبي.
٤٨ ـ تفسير القرآن الكريم (جزء عم)، الإمام محمد عبده، مطبعة بولاق ١٣٢٢هـ.
٤٩ ـ تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه، المطبعة الحسينية بمصر ١٣٢٩هـ.
٥٠ ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ابو طاهر محمد يعقوب الفيروزابادي، مطبعة الحلبي ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

(ج)

٥١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن، للإمام الطبري، مطبعة بولاق ١٣١٣هـ.
٥٢ ـ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للسيوطي، دار الطباعة العامرة، ١٢٨٦هـ.
٥٣ ـ الجرح والتعديل، أبي حاتم، ط. دائرة المعارف «حيدر أباد» ١٣٧٢.
٥٤ ـ جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، دار نهضة مصر.
٥٥ ـ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، دار المعارف بمصر، ١٣٩١هـ.
٥٦ ـ جمهرة خطب العرب، جمع أحمد زكي صفوت، ط٢، مطبعة البابي الحلبي، ١٣٨١هـ.
٥٧ ـ جمهرة رسائل العرب، جمع احمد زكي صفوت، مطبعة البابي الحلبي ١٣٥٦هـ.

٥٨ ـ حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن ١٣٧٩هـ.
٥٩ ـ حركة الفتح الإسلامي، د. شكري فيصل، بيروت ١٩٧٤م.
٦٠ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي، دار نهضة مصر ١٣٨٢هـ.
٦١ ـ الحيوان، للجاحظ، مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٦هـ.

(د)

٦٢ ـ دائرة معارف القرن الرابع عشر (العشرين)، محمد فريد وجدي، مصر ١٣٨٦هـ.
٦٣ ـ دراسة في عصر الخلفاء الراشدين، د. فتحية النبراوي، كلية الشريعة ـ الرياض ١٣٩٧هـ.
٦٤ ـ ديوان المبتدأ والخبر، ابن خلدون، المطبعة الأميرية بمصر ١٢٨٤هـ.

(ر)

٦٥ ـ رسائل الجاحظ، جمع حسن السندوبي، مصطفى محمد بمصر ١٣٥٢هـ.
٦٦ ـ الروض الأنف، عبد الرحمن السهيلي، دار النصر للطباعة بمصر ١٣٨٧هـ.
٦٧ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، المحب الطبري ط٢، دار التأليف بمصر ١٣٧٢هـ.
٦٨ ـ زهر الآداب، لأبي اسحاق الحصري، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٢هـ.
٦٩ ـ زاد المعاد، ابن النعيم، دار الكتب العلمية بيروت.

(س)

٧٠ ـ سيرة رسول الله ﷺ، د. خفاجي، دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة ١٩٧٠.

٧١ ـ السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك، ط اولى، دار النصر للطباعة بالقاهرة ١٣٨٧هـ.

٧٢ ـ سيرة ابن هشام، لابن هشام، ط أولى.

٧٣ ـ السيرة النبوية، لابن كثير القرشي، عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٤هـ.

٧٤ ـ سير النبلاء للذهبي.

٧٥ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي رياض، المطبعة العثمانية ١٣١٢هـ.

٧٦ ـ صفة الصفوة، جمال الدين بن الجوزي، مطبعة الأصيل بحلب ١٣٨٩هـ.

(ط)

٧٧ ـ طبقات علماء افريقيا، للقيرواني، ط. الدار التونسية.

٧٨ ـ طبقات الشعراء، لابن سلام الجمحي، مكتبة الثقافة العربية.

٧٩ ـ الطبقات الكبرى، للإمام الشعراني، المطبعة الأميرية ١٢٨٦هـ.

٨٠ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد الواقدي، دار بيروت ١٣٧٧هـ.

٨١ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، مطبعة بريل بلندن ١٣٢١هـ.

٨٢ ـ طبقات الفقهاء، للشيرازي، مطبعة بغداد ١٣٥٦هـ.

(ع)

٨٣ ـ علم الأخلاق، ارسطو، ترجمة احمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتب بالقاهرة.

٨٤ ـ العمدة، ابن رشيق القيرواني، مطبعة السعادة بمصر ١٣٧٤هـ.

٨٥ ـ العصر الثمين في تاريخ البلد الأمين، تقي الدين المكي، مطبعة السنة المحمدية.

٨٦ ـ عيون الأخبار، لابن قتيبة، مطبعة دار الكتب، القاهرة.

٨٧ ـ علوم الحديث، محمد علي قطب، دار الحديث للطباعة سوريا ١٣٩٦هـ.

٨٨ ـ عيون الأخبار، لابن قتيبة، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(ف)

٨٩ ـ الفاروق عمر، محمد حسين هيكل، ط٦، دار المعارف بمصر.

٩٠ ـ فتوح البلدان، ابن يحيي البلاذري، دار السعادة بمصر ١٩٥٩م.

٩١ ـ فاكهة الخلفاء، لابن عرب شاه، الموصل ١٢٦٩هـ.

٩٢ ـ فتوح الشام، لابن عمر الواقدي، دار العهد الجديد، بيروت ١٣٧٤هـ.

٩٣ ـ فتح العرب لمصر، أ ـ جـ ـ بتلر، محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣م.

٩٤ ـ فتوح مصر وأخبارها، لأبي القاسم عبدالله بن الحكم، ليدن/ ابريل ١٩٢٠م.

٩٥ ـ في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية ـ العصر الجاهلي والإسلامي، د. طه الحاجري، رويال بالإسكندرية ١٣٧٢هـ.

٩٦ ـ في مواكب النبوة، د. خفاجي، رابطة الأدب الحديث ١٩٧٠م.

٩٧ ـ فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي لصحيح البخاري، الشيخ عبدالله الشرقاوي، مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٣٩هـ.

(ق)

٩٨ - القرآن الكريم.

٩٩ - القاموس المحيط للفيروزأبادي، الحلبي وشركاه.

١٠٠ - قصة الحضارة ول - ديوارانت، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١.

١٠١ - الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس المبرد، مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٥هـ.

١٠٢ - الكامل في التاريخ، لابن الأثير، مطبعة الحلبي بمصر ١٣٠٣هـ.

١٠٣ - الكامل في التاريخ، ط. أخرى، ١٣٨٥هـ.

١٠٤ - الكنز المدفون والفلك المشحون، للسيوطي، المطبعة الأميرية بمصر ١٢٨٨هـ.

١٠٥ - لباب الآداب، اسامة بن منقذ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٤هـ.

١٠٦ - لسان العرب، ابن منظور المصري.

١٠٧ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (البخاري ومسلم)، وضع محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٦٨هـ.

(م)

١٠٨ المعارف، ابن قتيبة، ط. دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

١٠٩ - المجازات النبوية، للشريف الرضي، مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٥٦هـ.

١١٠ - مجالس ثعلب أحمد بن يحي ثعلب، دار المعارف بمصر، ١٣٦٠هـ.

١١١ - المحاسن والأضداد، للجاحظ، الشركة اللبنانية للكتابة والطباعة بيروت ١٩٦٠.

١١٢ - المنتخب للطبري، ط الاستقامة ١٣٥٨هـ.

١١٣ - محمد المثل الكامل، محمد أحمد جاد، مصر ١٣٥٦هـ.

١١٤ - معجم الأدباء، لياقوت الرومي، ط الهندية بالموسكي ١٩٢٣م.

١١٥ - المعرفة والتاريخ، للفسوي، ط. الإرشاد ببغداد ١٣٩٤هـ.

١١٦ ـ المغازي، للواقدي، تحقيق د. مارسون جونس، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦م.
١١٧ ـ مشاهير علماء الأمصار، ابن حيان البستي، ط التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٩هـ.
١١٨ ـ منهج عمر في التشريع د. محمد بلتاجي، دار الفكر العربي ١٩٧٠م.
١١٩ ـ المواهب اللدنية للبيجوري، المطبعة البهية، ١٣٠١هـ.
١٢٠ ـ مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين، الطبعة الأولى ١٩٥٦، دار الكتاب العربي.

(ن)

١٢١ ـ النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، ط دار الكتب المصرية.
١٢٢ ـ النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د. زكي مبارك، دار الكتب المصرية، ١٣٥٢هـ.
١٢٣ ـ نقد الشعر لقدامة.
١٢٤ ـ نهاية الارب في فنون الأدب، للنويري، القاهرة بدون تاريخ.
١٢٥ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، ١٣٢٧هـ.

(و)

١٢٦ ـ الوزراء والكتاب، للجهشياري، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٧هـ.

الفهرس

الصفحة